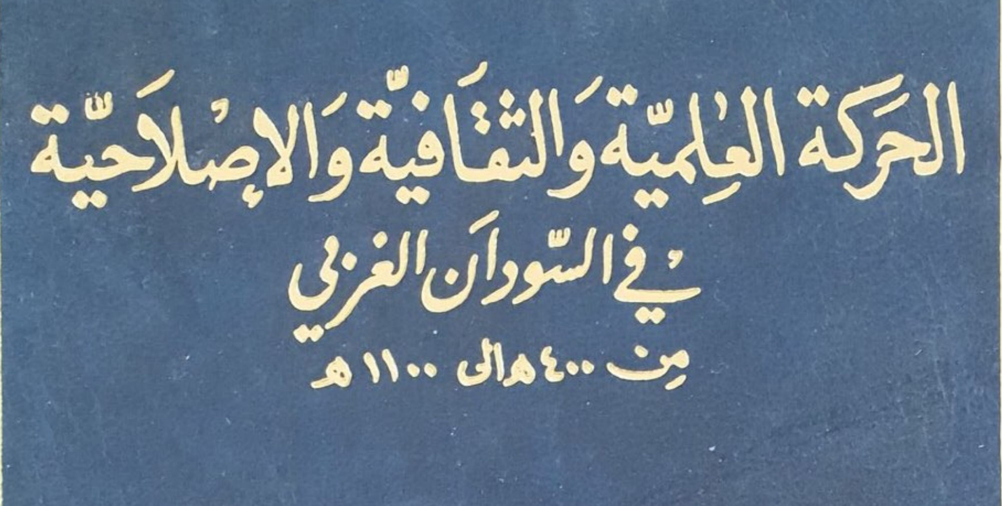
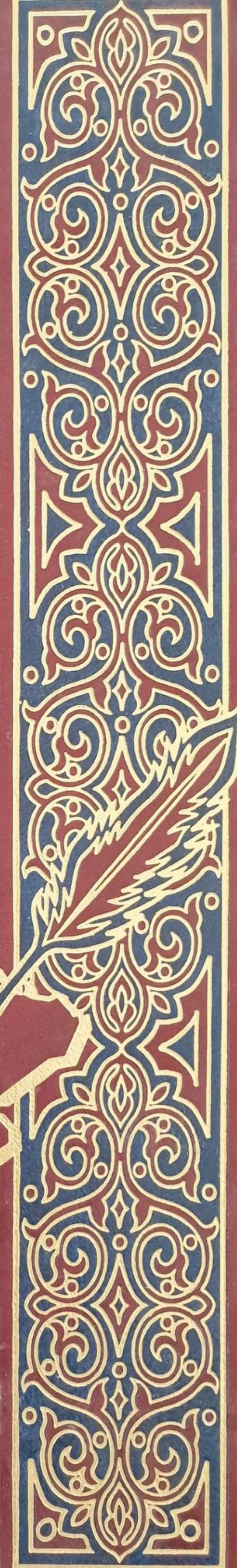


الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي

من ٤٠٠ هـ إلى ١١٠٠ هـ

في عهد الممالك الإسلامية غانا - مالي - سنغاي
التي قامت في غرب أفريقيا بين
القرن الرابع الهجري والحادي عشر هجري

تأليف
الأستاذ الدكتور أبو بكر اسماعيل ميقا
أستاذ الدراسات الإسلامية
في جامعة الملك سعود





مكتبة
التوبة

الحَرَكَة العِلْمِيَّة والثَّقَافِيَّة والإصْلاحِيَّة

في السُّودَان الغَربِي

من ٤٠٠ إلى ١١٠٠ هـ

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي

من ٤٠٠هـ الى ١١٠٠هـ

في عهد الممالك الإسلامية غانا - مالي - سنغاي
التي قامت في غرب أفريقيا بين
القرن الرابع الهجري والحادي عشر الهجري

تأليف

الأستاذ الدكتور أبو بكر اسماعيل ميقا

أستاذ الدراسات الإسلامية
في جامعة الملك سعود

مكتبة
التوبة

محتويات الكتاب

يضم هذا الموضوع، مقدمة وخمسة فصول:

١ ـ المقدمة تتضمن نبذة عن الدول التي قامت في غربي إفريقيا قبل الإسلام وبعد دخول الإسلام.

الفصل الأول: التعليم والثقافة الإسلامية في غربي أفريقيا بعد دخول الإسلام فيها من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الحادي عشر.

الفصل الثاني: أثر حج ملوك أفريقيا الغربية في ازدهار الثقافة الإسلامية واللغة العربية في غربي القارة.

الفصل الثالث: دعوة الإمام المغيلي الإصلاحية في إفريقيا الغربية وأثرها في الرعاة والرعية...

الفصل الرابع: أشهر علماء تمبكتو وجنى وغاو الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن إفريقيا الغربية.

الفصل الخامس: نظام القضاء في دولة سنغاي الإسلامية في عهد ملوك آل أسكيا.

المقدمة

قامت في غربي إفريقيا حكومات وطنية قبل الإسلام بقرون كانت لها نظمها وحضارتها. ولها علاقات وصلاتها التجارية مع مصر الفرعونية منذ أقدم العصور وكذلك بالفنيقيين بشمال إفريقيا.

إن آثار التنظيم السياسي للمالك السودانية التي قامت في غرب إفريقيا تدل على ظهور أثر حضارة البحر الأبيض المتوسط وحضارة وادي النيل في الحكومات السودانية التي قامت في إفريقيا الغربية. وتأثرها بتلك الحضارات العريقة، فالآثار التي اكتشفت في غربي القارة من الفؤوس والتماثيل المنحوتة والمصنوعة على طريقة الفراعنة. التي لا تزال حتى أيامنا هذه فناً من فنون زخرفة المساكن والفنادق في غربي أفريقيا، في المدن وكذلك اكتشاف الأدوات والأسلحة التي تضم أنواعاً من السكاكين ورؤوس الحراب والنصال كل ذلك يدلنا على مدى تأثير تلك الشعوب بتلك الحضارات العريقة.

وفي أيام قرطاجة كانت قوافل (الغارامانت) تحمل إلى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط: الريش وبيض النعام ومسحوق الذهب من السودان الغربي، وربما معدن القصدير من هضبة باوتشي في نيجيريا. إن هذه المبادلات التي دامت زهاء عدة قرون قبل الميلاد تجعلنا نعتقد بأن المصريين قد أدخلوا إلى إفريقيا الغربية بعض معالم الحضارة.

إن الكتاب الذين تحدثوا عن تأثيرات مصرية وفنيقية في أفريقيا الغربية قد اعتمدوا على وجود اللآلىء الزجاجية القديمة التي وجدت

في داخل ساحل العاج وساحل الذهب وداهومي وفي أفريقيا الاستوائية أيضاً. ومن المستحيل تعيين مصدر وتاريخ هذه اللآلىء التي لم تكتشف كلها في ظروف علمية صرفة. إن هذه اللآلىء هي من بلاد الأبيض المتوسط ولكن يبقي تعيين أحد مصادرها المصرية والفنيقية والرومانية.

ومن علاقة إفريقيا الغربية بمصر في عهد الفراعنة ما ذكره السعدي في تاريخ السودان من أن فرعون موسى عليه السلام الذي حشر السحرة لمناظرة موسى عليه السلام قد استقدم بعض السحرة من مدينة (كوكيا) التي كانت عاصمة لمملكة سنغاي وكانت مشهورة بالسحر في عهد فرعون. وقد آمن بموسى السحرة الذين قدموا من تلك المدينة. وحصلت بعد ذلك هجرات من الشعب اليهود إلى إفريقيا.

وقد يكون هؤلاء السحرة الذين آمنوا بموسى من مدينة (كوكيا) (بِنْتِيَا حالياً) قد عادوا أو ذرياتهم إلى موطنهم الأصلي (إفريقيا الغربية) ففي القرون الأولى التي سبقت عصر الميلاد هرب بعض اليهود خوفاً من الظلم والاضطهاد من إفريقيا الشمالية ولجأوا إلى منطقة واحات (توات)، وبما أنهم من العمال الفنيين والتجار فقد تمكنوا من أن يؤدي دوراً هاماً في تجارة الذهب حتى إن بعضهم قد وصل إلى السودان.

وأهم هجرات اليهود إلى غرب إفريقيا في سنة ١١٥م على أثر ثورة اليهود ضد الحكم الروماني في سيرانيكا. وقد سلك اليهود المهاجرون طريقين مختلفين: أحدهما يسير جنوباً إلى أير عبر النيجر الأوسط، ثم الاتجاه غرباً إلى السنغال وقوتاً. وهناك لحق بهم الفرع الآخر من اليهود الذي كان قد سلك طريقاً غربياً عبر جنوب مراكش وموريتانيا وأدرار[١]. ونتيجة لهذه الهجرات أصبح اليهود موزعين على

---

(١) يراجع تاريخ السودان للسعدي، والممالك الإسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض والحضارات الإفريقية: تأليف دنيس بولم.

كل أجزاء شمال إفريقيا. وحافظت الجماعات اليهودية في واحات الصحراء على شخصيتها وأما في السودان الغربي فسرعان ما اختلطوا بالجماعات الكثيرة من السكان السودانيين الوطنيين. وأثر دم هذا الشعب الشرقي المهاجر على رغم اختلاطه بالسكان الأصليين واندماجه فيهم ما زال يرى في بعض شعوب غرب إفريقيا. وربما لا توجد شعوب في السودان الغربي لهم مثل هذا الدم مثل الشعب القولاني الرعاة الذين يحتلون (فوتا) حيث التقت الموجتان اليهوديتان. وهذا الشعب المهاجر من بني إسرائيل كان له دور ومساهمة فعالة في قيام الدول السودانية التي قامت في غربي إفريقيا. ويقال إن التوردب الذين استوطنوا (بلاد فوتا)[1] منهم، والشيخ عثمان فوديو مؤسس الدولة الفلانية الإسلامية في شمال نيجيريا من قبيلة التوردب التي هاجرت من مالي في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي متجهة نحو الشرق. والواقع أن تاريخ شعوب غربي إفريقيا هو تاريخ اندماج عبر الأجيال. مما له أثر في قيام حضارات وحكومات وطنية لها سماتها ومميزاتها الحضارية في مكانها وزمانها.

ومن أهم تلك الحكومات التي قامت قبل الإسلام أو بتعبير أدق قبل الميلاد، مملكة سنغاي وهي أقدم مملكة ظهرت في غرب إفريقيا على الإطلاق وتشير جميع المصادر الأجنبية منها والإسلامية إلى أن الممالك السودانية التي قامت في السودان الغربي قبل الإسلام ترجع

---

(١) من هجرات اليهود إلى غرب أفريقيا بعد ظهور الاستعمار في أفريقيا ما حصل في سنة ١٤٨٦م حين صدر أمر ملك البرتغال بنقل اليهود الذين تحت حكمه ويرفضون في الوقت نفسه تغيير عقيدتهم الدينية إلى شاطىء غينيا. وهكذا تم إبعاد آلاف من الأسر الإسرائيلية إلى المستعمرات البرتغالية في أفريقيا حيث استوطنوا هناك وتزوجوا بناء أهل البلاد ولقد نشأت مستعمرة يهودية في جزيرة (سان تومي) وقد امتزج أهلها بالسكان الأصليين وكانوا أول من بذر بذور شجر الكاكاو الذي يكون اليوم ثورة غينيا الأفريقية.

في أصولها إلى مملكة سنغاي أو على الأقل واحدة من تلك الممالك كانت ترجع في أصولها إلى مملكة سنغاي الواقعة إلى الشرق من ثنية نهر النيجر. والتي تعتبر إلى حد كبير أقدم من مملكة كانم وغانا القديمة[1]. وإلى الشمال من نيجير بجوار جمهورية النيجر الحالية كانت أصول ممالك الهوسا قد استقرت فعلاً قبل نهاية الألف الأولى قبل الميلاد. واليوربا في وسط وغرب نيجيريا...

ويتكون شعب سنغاي أصلاً من قبيلتين هما سادة الأرض وسادة المياه أي الزراع والصيادين. وكان موطنهم الأصلي في دندى أسفل النيجر وشمالي بوسا قليلاً.

أصل سنغاي: سنغاي اسم إقليم يقع في أواسط النيجر نسبة إلى قبائل سنغاي المشهورة ويعرفون بأسماء مختلفة منها: «سغى أو سنغى أو صنغى وكذلك سونرى أو سوننكي عند النسبة. وتطلق البامبارة عليهم اسم «كويربورو» وتعني بهذه التسمية «سكان القرى أو أهل الريف أو أهل المدينة» اختلف في أصول قبيلة سنغاي من أين أتى أصلها إلى هذا الموطن.

هناك من يقول إن سنغاي جاءوا أصلاً من مصر، وهم ميالون للسلم. (مثل المصريين) وأنهم سكنوا أولاً في أغديس، حيث وصلتهم هجرات جديدة من مصر زمن البطالمة والرومان. ومع هذه الهجرات وصلت معهم حيوانات مستأنسة وفنون معمارية مصرية مثل البناء باللبن.

وهناك من يقول إنهم أتوا من اليمن ومنهم من يقول: إنهم أتوا من ليبيا منذ عهود سحيقة.

---

(١) انظر المراجع السابقة وسنغاي أقدم من غانا في النشأة لا كأمبراطورية فإن غانة أقدم من سنغاي من حيث نشأة الأمبراطوريات في غرب إفريقيا.

أقول إن ادعاء النسبة إلى الأصول الشرقية بعد ظهور الإسلام أمر مألوف عند كثير من شعوب السودان الغربي والأوسط. وهي الشعوب التي اشتهرت في التاريخ وكونت لها أمبراطوريات واسعة مثل مالي، وارثة غانة، وسنغاي، وارثة مالي، وكذلك أباطرة برنو وغيرهم كما أن ادعاء النسبة إلى البيت العلوي، أمر مألوف ومشهور عند كثير من ملوك السودان. فقد ادعاها ملك غانة وادعاها ملك مالي وارثة غانة. وادعى ملوك برنو أنهم من سلالة سيف بن ذي يزن. كما ادعت القبائل الفلانية أنها من أصول عربية أو سامية أو من ذرية عقبة بن نافع.

كل هذه أساطير غير مبنية على حقائق علمية. إلا أن هذه الادعاءات تلقي ضوءً على أهمية علاقة الشرق الإسلامي بالأمبراطوريات الإسلامية التي قامت في غرب أفريقيا وبأهمية النسبة إلى الشعوب الشرقية وبخاصة إلى النسب العربي لدى شعوب غرب إفريقيا بعد إسلامها.

ونعود إلى شعب سنغاي؛ شعب له مميزات خاصة تمتاز بكثير منها عن شعوب غربي إفريقيا من تلك المميزات: الكرم الزائد ويتهافتون على إكرام الضيف ففي الإمكان الغريب، أن يجلس بينهم سنين يأكل ويشرب ويكرمونه بدون أن يشعر بغربته أو بحاجته. ومنها أن الغريب إذا ساكنهم يحمونه أكثر من حمايتهم لأنفسهم بل لا يسمح جاره أو من أواه لأي إنسان بأذيته وإذا خاصمه قريبه وقف إلى جانب الغريب، فهو يجد الأمان التام في وسطهم وقد يصل بهم الحال في بعض الأوقات إلى توليته عليهم والرضى به إذا أحسوا منه حسن التدبير والحنكة وكرم الأخلاق في المعاملة وبخاصة إذا كان ذا دين ومنها سلامة صدورهم وخلوها من الغش والمكر والخداع لذلك يسهل التغرير بهم وخداعهم لسلامة صدورهم. ومنها حبهم الشديد للدين

ولكل مسلم وصفاء عقيدتهم فلا تجد في مناطقهم عبادة القبور والبناء على الأضرحة أو تقديم القرابين لها فهم سنيون سلفيون في معتقداتهم. ومنها: أنهم ميالون للسلم لا يحبون الحروب ولا يبدأون بالعدوان على أحد فطبعهم في هذا قريب من طبع المصريين هذا بعض من صفاتهم وخصائصهم.

وقد لعب سنغاي دوراً هاماً في تاريخ غربي إفريقيا جنوب الصحراء فأقامت مملكة ذات مقومات ثابتة في النيجر الأوسط على طول مجرى نهر النيجر عاصمتها كوكيا الواقعة شرقي مدينة غاو منذ ما قبل الميلاد. وكانت هناك علاقات تجارية وثيقة تربطهم بمصر وبخاصة في عهد الفراعنة استمرت تلك العلاقات حتى ظهور الإسلام في مصر فوصل الإسلام إليهم عن طريق التجار. وقد بدأت دولة سنغاي دولة صغيرة وتدفقت عليها هجرات من الشرق والشمال استطاعت أن تبسط نفوذها على طول ضفة النيجر الأوسط ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مضطرداً. ثم بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخها حين أسلم أحد ملوكها المسمى (زاكُسُ) في أول القرن الرابع الهجري بعد نقل العاصمة من كوكيا إلى مدينة غاو وقد ذكر السعدي أنه حكم سنغاي قبل الإسلام أربعة عشر ملكاً. أما بعد الإسلام فقد اعتلى عرش مملكة سنغاي من أول سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م إلى آخر سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢م ثلاث أسر رئيسية حكموها على التعاقب:

الأسرة الأولى: لقب ملوكها (زا) وعددهم سبعة عشر ملكاً.

الأسرة الثانية: لقب ملوكها (سنى) نسبة إلى سنة النبي ﷺ. وقيل معناها المحرر والله أعلم والأول أرجح وعدد ملوكها تسعة عشر ملكاً.

وقد حولت هذه الأسرة سنغاي من مجرد مملكة إلى امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف واستولت على أكثر السودان الغربي، أو كلها ما عدا أطراف قليلة منه.

الأسرة الثالثة: لقب ملوكها (أسكيا) وعدد ملوكها ثمانية أو تسعة ملوك.

وقد وصلت امبراطورية سنغاي على يد مؤسس هذه الأسرة (أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر) إلى قمة ازدهارها وتقدمها ومجدها ورخائها وأمنها إلى حد لم يسبق لها مثيل لا في أفريقيا الغربية وحدها بل في إفريقيا كلها في تلك الأيام. واستولت على جميع إفريقيا الغربية، فانبسط نفوذ أسكيا محمد غرباً إلى المحيط وسيطر على بلاد الماندنجو والفولان. وشمالاً حتى مواطن الطوارق. وامتد نفوذه جنوباً بعد إخضاعه مملكة موشى الوثنية. وشرقاً بلاد هوسا (نيجيريا) وخضعت كلها له. واشتهر عدله وكرمه وقوته في أرجاء السودان الغربي كله وفي شمال إفريقيا أيضاً. وتجاوز مد سنغاي الآفاق التي وصلت إليها امبراطورية مالي في عز مجدها وقوتها. والمسلم به أنه لم تصل دولة من دول غرب إفريقيا بهذا القدر من سرعة الزحف وامتداد النفوذ والسلطان مثل ما وصلت إليه سنغاي وكان أسكيا محمد قد جعل من قوة الجيش الذي نظمه تنظيماً جيداً عدته في الغزو والفتح والجهاد في سبيل الله. فضم إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق، وفرقاً من المشاة. استمرت امبراطورية سنغاي حتى سقطت في القرن العاشر الهجري أو في بداية القرن الحادي عشر الهجري تحت وطأة ضربات جيش منصور الذهبي السعدي.

امبراطورية غانة قبل الإسلام وبعدها

وتاريخ امبراطورية غانة هو أولى حلقات التاريخ القومي الإفريقي في غرب إفريقيا وهي من أقدم الأمبراطوريات وأول امبراطورية قامت بالسودان الغربي وهي أقدم من امبراطورية مالي وسنغاي وإن كانت مملكة سنغاي أقدم في التاريخ إلا أنها كانت مملكة صغيرة لم تكن مثل مملكة غانة قبل الإسلام في الشهرة والغلبة.

وذكر ابن خلدون في العبر: أنه لما فتحت إفريقيا المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيها أعظم من ملوك غانة، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك وحاضرة ملكهم غانة مدينتان على حافتي النيل (أي نهر النيجر) من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً.

وتذكر بعض المصادر أن أول حكومة قامت في غانة كانت في القرن الأول الميلادي والله أعلم. فإن المعلومات المتداولة عن فجر تاريخ غانة ليست من الدقة بحيث يمكن الاعتماد عليها. ويقول القاضي محمود كعت في تاريخه (الفتاش) عن ملوك غانة الأوائل: «قد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم، أن يأتي بصحة شيء من أمورهم يقطع بها، ولم يتقدم تاريخ فيعتمد عليه»[1].

والكشوفات الأثرية الحديثة التي قام بها علماء الآثار في المنطقة ألقت الكثير من الضوء على التاريخ القومي لتلك الامبراطوريات، مما يؤكد أصالة المصادر الإسلامية ودقة معلوماتها. فإن الآثار التي تم العثور عليها في غانة جاءت مطابقة لأوصاف المؤرخين المسلمين مما أدهش المكتشفين أنفسهم.

والحكم في امبراطورية غانة وما اتصف به ملوكها من النظام الدقيق والعدل وسعة الملك هو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الإفريقي الناجح في تلك البلاد وقد دل ازدهار امبراطورية غانة قبل الإسلام وبعده وبقاؤها إلى القرن الثالث عشر الميلادي على قدرة الإفريقيين السود في تلك الأيام على تدبير شؤونهم بأنفسهم على حسن أسلوب الحكم والنظام.

وقد بلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها وعظمتها واتساعها من القرن التاسع الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر.

---

(١) الفتاش ص ٤٢.

مؤسسو دولة غانة وأصولهم

أصول سكان غانة هي قبائل السوننك هم مؤسسو دولة غانة التي تحولت إلى امبراطورية وهناك روايات مضطربة في أصلهم وموطنهم الأصلي. والذي أميل إليه من تلك الأقوال أنهم قبيلة متفرعة من قبائل سنغاي هاجروا إلى تلك المنطقة فأنشأوا دولتهم. فإن موطنهم الأصلي هو «التورد» مكان قريب من غاو أو اسم قرية وهو المكان الذي ولد فيه (أسكيا محمد بن أبي بكر) مؤسس الأسرة الثالثة التي حكمت سنغاي ويقول القاضي محمود كعت في وصف أسكيا وبيان مكان ولادته: (ومنّ الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردى أصلاً الكوكوي داراً ومسكناً) (فالتورد) مكان ولادته ونشأته والكعت في تاريخه ينسب الأعيان من العلماء والملوك دائماً كلاً إلى بلده مكان ولادته وكذلك يفعل السعدي في تاريخه، فأهل غانة القدماء من هذا المكان هاجروا وهم يرجعون إلى قبيلة سنغاي في أصولهم. فلذلك نجد في بعض المصادر أنهم يسمون أنفسهم (التورود أو التوروث) وأنهم جاءوا أصلاً من المشرق، وقد مرت الرواية التي تدعى بأن أصول قبائل سنغاي قدموا من المشرق من مصر في هجرتين إلى أغديس ثم تفرقوا من هناك والله أعلم بصحة ذلك.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي سقطت غانة نهائياً تحت ضربات المادنجو حيث احتلها جيوش الدولة النامية الجديدة دولة المادنجو وفي سنة ١٢٤٠ م/٦٣٨ هـ نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من كومبي صالح عاصمة غانة التي يقال إنها تأسست سنة ٣٠٠ م وبذلك انتهت امبراطورية غانة وقام ماري جاطة بتأسيس مملكة مالي.

امبراطورية مالي الإسلامية

مر تاريخ مالي بثلاثة أطوار حيث حكمها ملوك من ثلاث أسر حكموها على التعاقب.

الأسرة الأولى: أسرة الترووريين وأشهر ملوكها (منسانوفين تروورا).

الأسرة الثانية: أسرة (الكوناتيين) وأشهر ملوكها جورماندانا كوناتي المعروف في المصادر الإسلامية باسم (برمندان) وكانت مالي مملكة صغيرة تحت حكم الأسرتين.

الثالثة: أسرة (كيتا) وأشهر ملوكها: سنديانة أوماري جاظة الذي حكم مالي من سنة ٦٢٩ ـ ٦٥٣ هـ/ ١٢٣٠ ـ ١٢٥٥م ويعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية مالي.

وأشهر منه منسى موسى ٧١٢ ـ ٧٣٨ هـ بلغت مالي في عهده الذروة في الإدارة والسياسة والاقتصاد والاتساع وذاعت شهرة مالي بعد حجه في العالم.

ثم أخوه منسى سليمان وفي عهده زار ابن بطوطة مالي.

ومرت مالي تحت حكم هؤلاء الملوك بثلاثة أدوار:

١ ـ دور التأسيس يمتد بين ١٢٢٥ و ١٤٥٥م وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانة القديمة التي ألحقت بمالي نهائياً سنة ١٢٤٠ م كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي فوتاجالون.

٢ ـ دور الازدهار والقوة وقد استمرت طيلة القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً. فعم الأمن كل جهات الامبراطورية وازدهر اقتصادها وبنيت المراكز الثقافية في مدنها واستقدم العلماء من أنحاء العالم الإسلامي.

وبعد توقف الفتوحات التي قام بها ملوك مالي الأقوياء انصب اهتمام بعض ملوك مالي قبل منسى موسى وأشهرهم بكارى الثاني على

اختراق المحيط الأطلسي وذكر العمري في المسالك نقلاً عمن قابل منسى موسى أثناء حجه، يقول: إن هذه المحاولة التي جرت مرتين بأمر من بكاري وتحت إشرافه كلفت الخزينة كثيراً من الأموال وأكثر من ثلاثمائة سفينة.

وفي هذه الفترة ربطت مالي علاقات دبلوماسية نشطة وثقافية مع مصر والمغرب كما اتصلت لأول مرة بالبرتغاليين.

٣ ـ دور الضعف والانهيار وانتهت باستيلاء مملكة سنغاي عليها وبسطت نفوذها على أراضيها جميعها وأقامت على أنقاضها امبراطورية جديدة واسعة فاقت مالي في ازدهارها ورخائها واتساع رقعتها وفي تنظيمها وفي جميع جوانب الحياة. ولله الأمر من قبل ومن بعد وله البقاء وحده سبحانه وتعالى.

من ص ٩/ ١٢

الفصل الأول

الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي
(أفريقيا الغربية)

[من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر]



مقدمة:

الثقافة والتَّعليم عند الشعوب الإفريقية قبل الإسلام

سادت المجتمعات الأفريقية نظم قبلية دقيقة اشتملت على ألوان من النشاط الثقافي والتعليمي، وكان التعليم في إطار عادات وتقاليد القبيلة أحد تلك النظم الدقيقة التي يراد بها صقل مواهب الطفل وإعداده للمستقبل وفق تقاليد القبيلة.

ولم تكن هناك مؤسسات تعليمية واضحة تقوم بدور التثقيف ونشر الوعي الثقافي بين طبقات المجتمع إلا أنَّ وسائل التربية والتثقيف والتَّعليم ـ حسب المعلومات والروايات المتواترة ـ كانت تسير على مستويات ومراحل يمر بها الطفل منذ ولادته حتى يصل الأهلية الكاملة للمشاركة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والروحي للقبيلة.

وكانت حياة الفرد في طور التربية والتعليم تنقسم إلى مرحلتين: الطفولة، والتعبئة. ففي مرحلة الطفولة تختلف طبيعة التربية والتعليم في المجتمع الإفريقي الجاهلي باختلاف مراحل السن وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمراحل نمو الطفل، فكان الطفل في فترة الطفولة الأولى (من الولادة حتى السادسة) يخضع خضوعاً تاماً لرعاية أمه، وتقتصر حياته على ألوان من اللعب والتغذية لتربية الجسد، وخلق الروح الاجتماعية القبلية.

وفي فترة الطفولة الثانية (بين سن السادسة والعاشرة) يبدأ الطفل في تلقي بعض التعليمات الأخلاقية والاجتماعية وبعض التدريبات على الأعمال البسيطة والمساعدة التي يشارك بها في نطاق الأسرة أو المحلة مع استمراره في طور اللعب والتغذية، أما بعد سن العاشرة حيث يدخل الطفل مرحلة الطفولة النهائية فإنه يعد إعداداً أكبر للمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي المراسيم الدينية والروحية عن طريق

الاشتراك في الأعمال الرئيسة بقصد اكتساب بعض الخبرات والمعلومات عن الحياة الاقتصادية، وحضور احتفالات القبيلة في مختلف المناسبات للتشبع بالقواعد الاجتماعية والمعتقدات التي تسير عليها القبيلة، ويتم في هذه المرحلة نقل حرفة الآباء إلى أبنائهم.

وإذا بلغ بعض أطفال العشيرة أو المحلة سن الخامسة عشرة، فإنَّ ذلك يعد حدثاً عظيماً في حياتهم حيث يدخلون مرحلة جديدة من الحياة، فتقام لهم مراسيم خاصة لإدخالهم في مجموعة السن، وتكوين الدفعة التي تمر باختبارات عديدة، وتُتْرَك الدفعة لتكتسب بنفسها خبرات جديدة في الغابات والصيد والمراعي والمزارع، وتتحمل مسئوليات جسيمة، وتكلف بأعمال شاقة. وفي ذلك تعليم وتربية اجتماعية وأخلاقية وروحية وإعداد للمستقبل، واكتشاف المواهب والقدرات التي يمكن أن يفيد بها كل فرد مجتمعه، وتستمر فترة التعبئة هذه سنوات عديدة يعود بعدها الشاب ليدخل في المجتمع عضواً عاملاً متكامل الشخصية له قدرات معينة اكتسبها، وتخصص يسهم به في حياة المجتمع. وهذا النوع من التعليم التقليدي حسب النظم والعادات القبلية في أفريقيا الغربية قبل الإسلام لا تزال آثاره قائمة في كثير من القرى حتى عهد قريب[1]. إلا أنهم وإن كانوا قد تمسكوا ببعض العادات الجاهلية التي توارثوها حتى بعد إسلامهم فإنهم قد تمثلوا الثقافة الإسلامية وهضموها وأسسوا عشرات المراكز الثقافية التي أثرت الحياة العلمية والفكرية في السودان الغربي. ولم تقلل تلك العادات المتوارثة من الأثر العميق الذي أحدثه الفكر السياسي الإسلامي في حياة السودان العلمية والسياسية، فقد قامت حكومات السودان بتعليم علوم الدين والدنيا فأنشأت مدارس ومساجد لتعليم أبناء المسلمين، وسيأتي توضيح ذلك كله.

---

(١) هذه المعلومات عن نظام التعليم والتثقيف وتنمية القدرات وإعداد الطفل للمستقبل في أفريقيا الغربية قبل الإسلام حسب النظم القبلية: روايات متواترة بين الشيوخ والكهول والطبقة الواعية من الشباب في غرب أفريقيا وقد أدرك الكثير منهم هذا النظام من التعليم.

التّعليم الإسلامي والثّقافة الإسلامية
بعد انتشار الإسلام بين القبائل الأفريقية

الإسلام دين وثقافة وحضارة إنسانية دينية شاملة، وجميع تشريعاته وعلومه وأخلاقياته تعبير عن روحه لذلك غيّر الأفريقيين حين اعتنقوه تغييراً جذريّاً شاملاً في جميع المجالات، سواء في مجال معتقداتهم أو السلوك أو في مجالات حياتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد وفدت الثقافة الإسلامية على السودان الغربي من المشرق الإسلامي وخاصة مصر، وشمال أفريقيا والمغرب الأقصى واشتهرت المدن في السودان الغربي كمراكز ثقافية مهمة أمّها طلاب العلم والعلماء على السواء منذ وقت مبكر[1].

ويرجع أول اتصال ثقافي إسلامي بين السودان الغربي وبخاصة (غانا) والعالم الإسلامي إلى ما ذكره ابن خلدون في العبر وغيره من أن موسى بن نصير ولى على طنجة بالمغرب الأقصى (طارق بن زياد) وأنزل معه سبعة وعشرين ألفاً من العرب وإثني عشر ألفاً من البربر، وأمرهم أن يعلموا البربر والملثمين والسودانيين المجاورين لهم القرآن والفقه وذلك في الربع الأخير من القرن الأول الهجري[2].

وأسلم الملثمون، واتحدوا تحت لواء الإسلام وأرسلوا الدعاة إلى بلاد السودان[3]، ينشرون الإسلام وثقافته، وهاجر كثير من العلماء والفقهاء إلى مملكة غانا الوثنية السودانية ووجدوا فيها الرعاية والتشجيع

---

(١) انظر مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٥٩ ـ ٦٠ الباب العاشر لأحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ٧٠٠ ـ ٧٤٩ هـ تحقيق وتعليق د/ مصطفى أبو ضيف أحمد. وانظر المغرب ص ١٧٥ للبكري ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٧ د/ إبراهيم علي طرخان.

(٢) العبرج ٦ ص ١١٠ لابن خلدون.

(٣) نفس المراجع السابق ٦ ص ١٨١.

لدى ملوكها، وكانت ممتلكاتها الشمالية تقع قريباً من جبال درن وتختلط بديار الملثمين[1].

ونتج عن ذلك قيام المراكز الثقافية الإسلامية في السودان التي حققت نجاحاً مهماً في ربط الفكر الإسلامي العربي بالحضارات الأفريقية وقد ظهر تأثيره في التبادل العلمي والثقافي دون حدوث نكسات أو أي مظهر للرفض من قبل الأفريقيين الذين أصبح ما تعلموه جزءاً من كيانهم الخاص.

وقد حرص سلاطين وملوك السوذان الغربي على إرساء قواعد نهضة ثقافية إسلامية مزدهرة في بلادهم وذلك بإيفاد طلاب العلم إلى مصر والمغرب والحجاز للتعمق في دراسة العلوم والثقافة ثم يعودون إلى بلادهم. وقد تألق نجم كثير من أولئك الطلاب في تلك البلاد فاشتهر في مصر الشيخ العالم الفقيه الصالح أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي وفد على مصر وتعلم في الجامع الأزهر، ونبغ بين علمائه واشتهر بينهم بالعلم والصلاح والتقوى وكان معاصراً للخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) الذي قربه وأدناه منه، وأغدق عليه، وظل في القاهرة ينشر علمه ومعارفه حتى وافته المنية، فدفن في حي من أحيائها نسب إليه، وهو حي بولاق الدكرور المحرف عن التكرور[2]، وقد شيد المصريون على قبره قبة وبجانبها مسجداً جامعاً عرف بجامع التكروري، وجدد هذا المسجد ووسع على عهد المماليك البحرية عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م[3].

---

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ١١٠ وانظر التأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٢٢.

(٢) انظر الخطط لتقي الدين المقريزي ج ٢ ص ١٧١، ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٨ . ١٦٩.

(٣) الخطط للمقريزي ج ٤ ص ١٣٣ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ٤٣ للدكتور/ عبد الرحمن زكي.

والشيخ فاتح بن عثمان التكروري المتوفى سنة ٦٩٥هـ ـ ١٢٩٣ الذي لازم أحد مساجد دمياط للتعليم والعبادة حتى عرف باسمه (جامع فتح)[(١)].

والشيخ صبيح بن عبد الله التكروري الكلوتاني المتوفى سنة **٧٣١** هـ الذي سطع نجمه وشاع علمه، بعد أن تتلمذ على علماء مصر، وبرع في علم الحديث، ثم رحل إلى دمشق حيث أخذ يُدرِّس الحديث في مسجدها الجامع[(٢)].

والشيخ راشد بن عبد الله التكروري المتوفى سنة **٧٩٦** هـ ـ **١٣٩٤**م، الذي كان من أعيان العلماء. وله جامع عرف بجامع راشد، عند بركة الحبش[(٣)].

والشيخ عبد الملك بن علي الكانمي الذي اشتغل بالتعليم في مصر سنة ٧٢٠ هـ ـ ١٣١٨م[(٤)].

والشيخ محمد بن أحمد بن عثمان بن عبد الله بن سليمان بن العباس الحراز العز التكروري المعروف بالعز التكروري أو (العز الغاني) المتوفى سنة ٨٥٧ هـ[(٥)].

والشيخ محمد الكشناوي شيخ حسن الجبرتي الكبير، وتوفي الكشناوي بمصر سنة **١١٥٤** هـ بمنزل تلميذه الجبرتي الكبير الذي جعله وصياً على تركته، وكتبه، ودفن الكشناوي ببستان العلماء

---

(١) الخطط للمقريزي ج ٨ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤ هـ.

(٢) انظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ٣٠٤ للحافظ ابن حجر العسقلاني.

(٣) ابن حجر في أنباء الغمر بأبناء أبناء العمر ج ٨ ص ٥٨٢.

(٤) انظر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٠٤.

(٥) انظر الضوء اللامع ج ٧ ص ٢ ـ ٣ للسخاوي.

بالمجاورين، ويقال إن علماء الحرمين أثناء إقامته فيهما قد أقروا له بالعلم والفضل، كما أقر له علماء مصر بذلك[1].

ومن العلماء السودانيين الذين رحلوا في طلب العلم إلى مصر وفاس وتلمسان والقيروان والحرمين وغيرها من المراكز الإسلامية في المغرب والمشرق ثم عادوا إلى بلادهم بعد أن نهلوا من العلوم والمعارف المزدهرة في تلك البلاد:

١ ـ الشيخ عثمان فقيه أهل غانة وكبيرهم علماً وديناً وشهرة، قدم مصر سنة ٦٩٩ هـ، وذكر ابن خلدون في العبر أنه قابل بمصر سنة ٦٩٩ هـ فقيه أهل غانة وكبيرهم علماً وديناً وشهرة[2].

٢ ـ والفقيه القاضي كاتب منسى موسى الذي رحل إلى مدينة فاس لطلب العلم بأمر من سلطان مالي الملك العادل منسى موسى سنة ٧١٢ هـ ـ ٧٣٨ هـ، الموافق ١٣١٢ م ـ ١٣٣٧م وقد عاد إلى مالي ومعه أحد فقهاء المغرب: عبد الله البلبالي. وقد ذكر السعدي أن الفقيه القاضي كاتب موسى هذا مكث في إمامة المسجد الجامع الكبير في مدينة تمبكتو أربعين سنة ولم يستتب بعد عودته من المغرب في الصلاة ولو مرة واحدة لصحة بدنه[3].

٣ ـ أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد أقيت جد الشيخ أحمد بابا رحل إلى المشرق سنة ٨٩٠ هـ ـ ١٤٨٥ م، وحج، ولقي جماعة من العلماء منهم الشيخ جلال الدين السيوطي والشيخ خالد الوقاد

---

(١) انظر إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور لمحمد بلو بن عثمان فودي ٥١ والجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا لأحمد محمد كاني ص ٤٤ ـ ٤٥ الطبعة الأولى.

(٢) العبر ج ٢ ص ٢٠٠.

(٣) تاريخ السودان ص ٥٧.

الأزهري إمام النحاة واللقانيان شمس الدين بن حسن بن علي بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٥ هـ، وغيرهم. أخذ عنهم العلم واستفاد منهم ثم رجع إلى بلاد السودان فدرس العلم، وانتفع به خلق كثير وطلب منه الإمامة فأبى وتوفي سنة ٩٤٣ هـ[١]. وقيل إنه خلف وراءه سبعمائة مجلد[٢].

٤ ـ محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي قاضي تمبكت. قال عنه أحمد باب والسعدي: عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع. كان من خيار عباد الله الصالحين... تولى القضاء عام ٩٠٤ هـ في عهد أسكيا محمد الملك العادل ملك سنغاي؛ فسدد في الأمور وشدد مع ملازمة التدريس، وانتفع به بشر كثير وأحيا العلم بتلك البلاد واشتهر، ورحل إلى المشرق وحج عام ٩١٥ هـ ولقي علماء عصره بمصر والحجاز كالشيخ/ إبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والشيخ القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى، واللقانيين وغيرهم من كبار أهل العلم وأئمته في ذلك العصر. ثم عاد إلى بلده وقد استفاد، ولازم الإفادة وإنفاذ الحق حتى توفي عام ٩٥٥ هـ[٣]. وقيل إنه لازم التدريس خمسين سنة.

٥ ـ الشيخ مخلوف بن علي بن صالح البلبالي رحل إلى المغرب لطلب العلم وتتلمذ على ابن غازي وغيره من علماء المغرب ثم رجع

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٧، وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ٢٦ الطبعة الأولى وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٧٨ محمد مخلوف وذكر أحمد بابا أنه توفي سنة ٩٤٢ هـ.

(٢) ذكره السعدي في تاريخ السودان ص ٣٧.

(٣) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ على هامش الديباج وتاريخ السودان للسعدي ص ٣٨ ـ ٣٩، وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٧٥.

إلى السودان وزار بلاد كنو وكشنا وأكدس وغيرها، واستفاد منه أهلها فذاع صيته وتوافد عليه الطلاب من كل مكان من بلاد السودان، وانتشر علمه واشتهر بقوة الحافظة، ثم دخل مدينة تمبكت ودرس هناك ونشر علمه فيها، ثم رجع إلى المغرب فدرس بمراكش ثم آب إلى بلاده تمبكت وتوفي بها سنة ٩٤٠ هـ[١].

٦ ـ محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي. قال عنه السعدي: كان فقيهاً عالماً فهاماً محدثاً متفنناً محصلاً جيد الخط... رحل إلى المشرق صحبه الفقيه محمد بن عمر أقيت، وتتلمذ في مصر على علماء أجلاء كشيخ الإسلام زكريا والبرهانيين: القلقشندي وابن أبي شريف وعبد الحق السنباطي، وجماعة، فأخذ عنهم علم الحديث، وسمع وروى، وحصل واجتهد حتى تميز في الفنون، وصار من المحدثين، وحضر ودرس الأخوين اللقانيين وتصاحب مع أحمد بن محمد وعبد الحق السنباطي شيخه وأجازه من مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلي بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم ثم رجع إلى بلاد السودان، فتوطن كشنا فأكرمه سلطانها وولاه قضاءها، وتوفي سنة ٩٣٦ هـ، وله تقييد نافع على مختصر خليل[٢].

٧ ـ أبو بكر بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت التمبكتي وصفه السعدي بالزهد والورع والتقى، سافر إلى المشرق فحج وجاور المدينة وتتلمذ على شيوخها ثم رجع إلى بلاده السودان فنفع الله به الخلق، ونشر علمه، ثم عاد إلى المدينة المنورة حتى توفي فيها سنة ٩٩١ هـ، وكانت ولادته عام ٩٣٢هـ[٣].

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤٤، وتاريخ السودان ص ٣٩، وفتح الشكور في علماء التكرور ص ١٤٦.

(٢) تاريخ السودان ص ٣٩ ـ ٤٠ وإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٥١.

(٣) تاريخ السودان ص ٤١.

٨ ـ أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت وكان معاصراً للسلطان الأعظم العادل أسكيا داود وقال عنه السعدي: كان ذكياً داركاً متفنناً محدثاً أصولياً بيانياً منطقيّاً... وكان رقيق القلب، وكانت له مكانة عند الملوك وكافة الناس،... وكان جماعاً للكتب النفيسة وافراً لخزانة محتوية على كل نفيس سموحاً بإعارتها، وكان يعيرها لكل الناس. رحل إلى المشرق الإسلامي سنة ٩٥٦ هـ فحج وزار وتتلمذ على كبار علماء عصره في مصر والحرمين، وتدارس معهم كالناصر اللقّاني، والشريف يوسف تلميذ السيوطي وجمال الدين بن الشيخ زكريا، والأجهوري والتاجوري. ومن الحرمين أخذ عن أمين الدين الميموني والملائي. وابن حجر المكي، وعبد العزيز اللمطي، وعبد المعطي السخاوي، وعبد القادر الفاكهاني وغيرهم؛ وانتفع بهم، ولازم أبا المكارم محمد البكري، ثم عاد إلى بلاده فدرس وأسمع عنه الصحيحين نيفاً وعشرين سنة وشرح مخمسات العشرينيات الفزارية في مدح الرسول ومنظومة المغيلي في المنطق، وكان عظيم القدر والجاه عند السلطان أسكيا داود سلطان مملكة سنغاي، وكان يزوره في داره، ولما مرض في غاو كان أسكيا داود يأتيه بالليل ويسمر عنده حتى برىء، توفي عام ٩٩١هـ[١].

٩ ـ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التمبكتي المعروف ببغيع. وصفه أحمد بابا والسعدي بقولهما: الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك المفتي من خيار عباد الله الصالحين والعلماء. رحل مع أخيه الفقيه أحمد إلى بلاد المشرق الإسلامي فلقيا بمصر الناصر اللقاني والتاجوري والزين البحيري والشريف يوسف، والبرهموشي الحنفي والشيخ الإمام محمد البكري وغيرهم، فاستفادا منهم فحصلا هناك ما

---

(١) تاريخ السودان ص ٤٢ ـ ٤٣، وفتح الشكور ص ٢٩ ـ ٣٠، ونيل الابتهاج ص ٩٣.

حصّلا ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج إلى بلاد السودان فاستوطنا تمبكت فأشاعا العلم في كل مكان. ولازم محمد هذا العلم وتعليمه ودرسه وصرف أكثر وقته في نشر العلم وبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة للناس بحيث لا يفتش عنها بعد ذلك. قال أحمد بابا: قد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو ففتش في داره فأعطاني كل ما ظفر به منها. وقد توافد عليها طلبة العلم من كل مكان. وله تعليقات على بعض أمهات كتب المالكية ونبه فيها على هفوات لشراح خليل وغيره. توفي رحمه الله في مدينة تمبكت سنة ١٠٠٢ هـ وكانت ولادته سنة ٩٣٠ هـ، ويعتبر محمد بغيع من شيوخ مدرسة تمبكت الذين لهم دور عظيم في انتعاش الحركة العلمية ونشر الثقافة الإسلامية في ربوع السودان[١].

وغير هؤلاء كثيرون من علماء السودان ممن رحلوا إلى المغرب والمشرق: (مصر والحجاز) وتتلمذوا على أئمة العلم في عصرهم في تلك البلاد ثم عادوا إلى بلادهم وعملوا على نشر الثقافة الإسلامية في بلاد السودان وتعزيز المراكز الإسلامية التي أقامها ملوك وسلاطين السودان.

تأسيس رواق خاص بالأزهر وإنشاء مدرسة خاصة بالفسطاط لطلبة العلم الوافدين من السودان الغربي لطلبة العلم

عندما تزايد عدد الوافدين إلى مصر من أفريقية الغربية لطلب العلم وكثر عدد المقيمين بها من العلماء والطلبة أسس لهم رواق خاص بالأزهر[٢]، سنة ١٢٤٠ م وبالإضافة إلى ذلك فقد عهد بعض سلاطين السودان الغربي إلى الفقيه المالكي المصري: علم الدين، ابن رشيق ببناء مدرسة لطلاب السودان يدرسون فيها الفقه على مذهب الإمام مالك رحمه الله، وأعطوه قدراً من المال ليقوم ببنائها، فبناها

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦...

(٢) الخطط للمقريزي ج٢ ص ١٧١ ومسالك الأبصار ٤٩٢ ودولة مالي الإسلامية ص ١٨٩، وصبح الأعشى للقلقشندي ج ٥/ ٢٨١.

لهم بخط حمام الريش بالقاهرة سنة ٦٤٠ هـ، وكان بناؤها في أواخر الدولة الأيوبية. وقام بمهمة الإنفاق عليها طائفة من أهل التكرور بالسودان الغربي سنوياً، ونالت المدرسة شهرة كبيرة في غربي إفريقيا[(١)].

ويظهر مما تقدم أن بلوغ العلاقات التعليمية الثقافية ذروتها بين مصر والسودان الغربي كان في عهد دولة المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٢ هـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م).

وهو العهد الذهبي للثقافة الإسلامية في غربي أفريقية والعهد الذي ازدهر فيه التعليم في السودان الغربي وبلغ الإسلام فيه ذروته في الانتشار والقوة. وقام ملوك السودان برحلات متتالية إلى الحج عن طريق مصر.

استقدام ملوك السودان الغربي العلماء من الحجاز ومصر والمغرب لتعزيز مراكز العلم والثقافة الإسلامية في مدن السودان

لم يكن حرص ملوك وسلاطين السودان على نشر العلم وإرساء قواعد نهضة ثقافية في بلادهم مقصوراً على إيفاد طلاب العلم إلى المراكز الإسلامية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، بل اهتموا اهتماماً شديداً باستقدام كثير من العلماء والفقهاء من مواطن العلم في الحجاز ومصر والمغرب، فاهتم سلاطين مالي بنشر العلوم والثقافة الإسلامية في مالي عن طريق استقدام أئمة العلم من الأقطار الإسلامية وقد عرف من هؤلاء السلاطين أنهم استقدموا عدداً كبيراً من العلماء إلى بلادهم ولاسيما من مصر والحجاز والمغرب، والأندلس فامتلأت

---

(١) انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨١ نقلاً عن مسالك الأبصار للعمري، والخطط ج ٢ ص ١٧١، ودولة مالي الإسلامية ١٨٩، والجهاد الإسلامي في غرب أفريقية للكاني ص ١٤ ـ ١٥.

بلادهم بالعلماء من السود والبيض على السواء. فاستقدم السلطان منسي موسى الذي تولى عرش مالي سنة ١٣٠٧ م - ١٣٣٢ م وقام برحلة إلى الحج عام ١٣٢٤ م الموافق عام ٧٢٤ هـ[١]، فأحضر معه من علماء الحجاز:

١ - أبا إسحاق إبراهيم الساحلي شاعر الأندلس المهندس المعماري المتوفى في تمبكت عام ١٣٤٦ م، وكان السلطان موسى قد تعرف على أبي إسحاق بمكة خلال حجه ودعاه إلى بلاده، وصحبه معه في عودته، وهو الذي أدخل هندسة البناء وزخرفته في بلاد السودان. وبالإضافة إلى كونه شاعراً ومهندساً معمارياً فهو عالم جليل وقد بنى لمنسى موسى مسجد مدينة غاو على إثر عودته من الحج عام ١٣٢٥م بناه له من الطوب المحروق وجعل مِئْذَنته هرمية الشكل وهذا أول بناء من هذا الطراز في بلاد السودان. ولا يزال هذا المسجد قائماً بشكله الهرمي إلى يومنا هذا ويصلي فيه الناس. كما بنى له مسجد الجامع الكبير في مدينة تمبكت[٢].

٢ - القاضي أبا العباس الدكالي[٣].

٣ - القاضي عبد الرحمن التميمي: قدم مع السلطان موسى إلى مالي وسكن مدينة تمبكت فوجدها حافلة بالفقهاء السودانيين، فوجد

---

(١) الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، لأحمد بن علي المقريزي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٥ م ص ١١١ - ١١٢، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج ١٤ ص ١١٢، وصبح الأعشى ج٥ ص ٢٩٥ وتاريخ السودان ص ٧ - ٨.

(٢) تاريخ السودان ص ٧ ..، والعبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون: ج ٢ ص ٢٠٠ طبعة بولاق بمصر عام ١٢٨٤هـ، وانظر دولة مالي الإسلامية ص ١٤٨ والاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصرى ص ١٠١.

(٣) مسالك الأبصار ص ٦٠ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٩.

أنهم قد تفوقوا عليه في الفقه فسافر إلى فاس وتفقه على الفقهاء المالكيين ثم عاد إلى تمبكت[1].

واستقدم من المغرب: الفقيه عبد الله البلبالي الذي قدم مع كاتب السلطان منسى موسى، الذي كان من علماء السودان الذين رحلوا إلى مدينة فاس بالمغرب لطلب العلم بأمر من السلطان وكان البلبالي أول من تولى إمامة المسجد الجامع بتمبكت من البيض، وكان أئمته قبله من السودان، وآخر الأئمة منهم الفقيه كاتب موسى المذكور[2]. وقد حرص السلطان منسى موسى على استقدام كثير من العلماء والفقهاء وخاصة من المغرب ومصر، وكانت في مصر جالية كبيرة من العلماء والفقهاء وطلاب العلم منذ العهد الفاطمي من بلاد السودان، وأصبحوا جزءاً هاماً من المجتمع المصري وعرف حي بولاق «ببولاق التكرور» وكانت لتلك الجالية ذات اعتبار في الجانب العلمي والثقافي والديني تاركة بصمات قوية في حياة الشعب المصري، وكانت الصلات التعليمية والثقافية قوية جداً بين السودان الغربي ومصر في عهد المماليك[3]. وأقام عدد كبير من العلماء والفقهاء والتجار والأطباء المصريين في مالي حتى أن الطبيب الذي عالج ابن بطوطة وهو في مالي عام ٧٥٣ هـ ـ ١٣٥٢م كان مصرياً، وشاهد ابن بطوطة في تمبكت قبر أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية وهو سراج الدين بن الكويك وذكر أن في مدينة مالي العاصمة محلة خاصة للبيض من الفقهاء والعلماء والتجار من المصريين وغيرهم، وأنه اكترى داراً إزاء

---

(١) تاريخ السودان ص ٥١ وفتح الشكور ص ١٧٦.

(٢) تاريخ السودان ص ٧ ـ ٨ وفتح الشكور ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) انظر مسالك الأبصار ص ٦٠ ـ ٦١ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦. ودولة مالي الإسلامية ص ١٦٨ ـ ١٦٩ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ٤٣ ـ ٤٤.

دار الفقيه محمد بن الفقيه الجزولي بمحلة البيض[1]. ولم يكتف السلطان منسي موسى بن أبي بكر باستقدام العلماء والفقهاء من الحجاز ومصر والمغرب والأندلس، بل عمل على شراء عدد كبير من الكتب الدينية في مذهب الإمام مالك وغيره والكتب اللغوية والأدبية والعلمية والثقافية من الحجاز ومصر والمغرب، فاشتهرت المدن في امبراطورية مالي الإسلامية في عهده بالعلم وأصبحت مركز إشعاع ثقافي يؤمه طلبة العلم والعلماء من كل مكان: كمدينة تمبكت ومالي وغاو، وجنى وايوالاتن وأودغست، فازدهر التعليم والثقافة في مساجدها ومعاهدها وغدت محجة العلماء والفقهاء من بلدان العالم الإسلامي، فقد كانت آمنة رخية سخية بالخيرات تضفي على العلماء والفقهاء ما يريدونه من رفاهية وسكينة وأمن وسلام، وانقطاع للدروس والتدريس، وأصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة والكتابة في أفريقيا الغربي كلها ونظر إليها السودانيون بعين الاحترام والإجلال والتقديس باعتبارها لغة القرآن والدين والعلم[2].

عندما توفي منسى موسى عام **١٣٣٣** ترك دولة إسلامية مهيبة الجانب مزدهرة بالعلم والعلماء والفقهاء.

ولم يكن من أتى بعد منسى موسى أقل حرصاً في نشر العلم والثقافة الإسلامية في ربوع الأمبراطورية الإسلامية وتشييد المساجد والمدارس وجلب الفقهاء إلى مالي. وقد ذكر ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار أن منسي سليمان الذي تولى عرش مالي سنة **١٣٥٢** م الموافق **٧٥٣** هـ: (قد بنى في أرجاء امبراطورية مالي الإسلامية: المساجد والجوامع والمآذن (المنارات)، وأقام به الجمع والجماعات

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص **٤٤٤** ـ **٤٥١** وانظر دولة مالي الإسلامية ص **١٦٩** ـ **١٧٠**.

(٢) انظر تاريخ السودان ٧ ـ ٨ ورحلة ابن بطوطة ص **٤٥٠** ومسالك الأبصار ص **٥٩** ـ **٦٠**.

والأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك وبقي بها سلطان المسلمين وتفقه في الدين)[1] وقال في العبر: ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة[2].

وقد وصف ابن بطوطة الذي زار مالي في عهد منسى سليمان سنة ٧٥٣ ـ ٧٥٤ هـ مدى انتشار العلم والثقافة الإسلامية والعدل والأمن في كل مكان من السودان الغربي، ودهش لشدة حرص السودانيين على حفظ القرآن وتعليمه والتفقه في الدين، وحفظهم الأمانات وإقبالهم على الصلاة وتعمير المساجد بالمصلين. وازدحامهم عليها فقال: (فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه.

ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً. ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام. ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته، فيبسطها له بموضع يستحقه، حتى يذهب إلى المسجد...

ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة. ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم. وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه. ولقد دخلت على

---

(١) مسالك الأبصار ص ٥٩ ـ ٦٠ وفي صبح الأعشى (المنارات) بدلاً من كلمة (المؤذان).

(٢) انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٧.

القاضي يوم العيد، وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن، ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجله قيد ثقيل، فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا، أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن[1].

كما وصف ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ما عليه السلطان موسى من الدين والاستقامة هو ومن معه من السودانيين أثناء مروره بمصر إلى الحج سنة ٧٢٤ هـ ودهش ابن أمير حاجب من تدينه وكثرة عبادته وصلاحه. وإجادته للغة العربية مما يدل على ازدهار الثقافة الإسلامية وسائر العلوم الإسلامية في امبراطورية مالي الإسلامية مع شدة تمسك السودانيين بالدين وفهمهم لحقيقة الإسلام. قال ابن فضل الله: قال ابن أمير حاجب - وهو يصف تدين السلطان موسى ومن معه: (ولقد كان هذا السلطان مدة مقامه بمصر قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده، على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر...) قال ابن فضل الله: قلت: (وقد كان بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حديث وصول هذا السلطان موسى حاجّاً ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم، فسألت الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكي... فذكر ما كان عليه هذا السلطان من سعة الحال والمروءة والديانة...) وذكر الأمير أنه في أثناء مقابلته: كان لا يحدثه إلا بترجمان مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي...[2]. وقال في العبر: (كان منسي موسى رجلاً صالحاً وملكاً

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص ٤٥٠ المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٧٠ - ٧١. وانظر صبح الأعشى جـ ٥ ص٢٩٥.

عظيماً له أخبار في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية[1]).

ويتضح لنا مما تقدم عرضه: أن عصر السلطان منسي موسى وعصر أخيه السلطان منسى سليمان كان عصراً ذهبياً، وفتحاً مبيناً، في ميدان العلم والتعليم وانتشار الثقافة الإسلامية في مملكة مالي المترامية الأطراف، فقد عمل موسى على إرسال بعثات ثقافية إلى مدن المغرب لمتابعة دراساتهم. واشتهر في عهده الفقيه المشهور كاتبه الذي أرسله إلى المغرب وتابع تحصيله العلمي في مدينة فاس. كما تقدم، كما أن هذا السلطان قد اشترى أثناء حجه كثيراً من الكتب العلمية من الحجاز (مكة والمدينة) والقاهرة. وأنشأ في عاصمته عند عودته من الحج عام ١٣٢٥ م مدرسة كبيرة لتعليم القرآن واللغة العربية والعلوم الأخرى. وذكر ابن بطوطة أن التعليم في عهد منسي سليمان في تلك المدرسة كان إجبارياً إذ كان الطالب يقيد بالحديد أو الحبال حتى يحفظ القرآن وذكر العمري والقلقشندي أن السلطان العادل منسي موسى سلطان مالي كان يتقن العربية قراءة وكتابة وحديثاً، وكان أخوه السلطان منسي سليمان مثله. وقد عمل هذان على جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة في التعليم والدواوين والمكاتبات.

وقد أشار ابن بطوطة إلى ارتفاع مستوى الثقافة الإسلامية في عهد السلطان منسي سليمان عند السودانيين، فقد ذكر أنه وجد كتاب المدهش لابن الجوزي عند أحد أمراء بلدة واقعة بين تمبكت ومدينة غاو أثناء سفره من تمبكت إلى غاو، وجعل يقرأ فيه وذكر أن هذا الأمير كان مثقفاً بثقافة إسلامية وأنه كان يعرف اللغة العربية[2]. وكان الخط السائد في مملكة مالي الإسلامية في ذلك العصر هو الخط

---

(١) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٤.

(٢) الرحلة ص ٤٥٢.

الفاسي المغربي[1]. والخلاصة أن القرن الرابع عشر الميلادي هو عصر الازدهار العلمي والثقافي في مالي، وقد سجل نهضة علمية راقية وثقافة إسلامية مزدهرة بالنسبة لعصر ملوك مالي الذين كانوا قبل عصر منسي موسى ومنسي سليمان.

هذا فيما يتعلق بوضع الثقافة الإسلامية في امبراطورية مالي الإسلامية وحرص ملوكها على رعاية العلم والعلماء وطلاب العلم وتدعيم المراكز الثقافية والعلمية باستقدام العلماء والفقهاء من العالم الإسلامي.

ازدهار الثقافة الإسلامية وانتشارها في عهد امبراطورية سنغاي التي خلفت امبراطورية مالي

يعتبر عهد حكم آل أسكيا امبراطورية سنغاي الإسلامية الإسلامية الذي استمر قرناً من الزمن أزهى عصور انتشار الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي كله (أفريقيا الغربية) وفي هذا العصر اشتهرت المراكز العلمية والثقافية في السودان الغربي وظهرت قوية وتوافد عليها العلماء وطلاب العلم من كل فج عميق. كما ظهرت مؤلفات كبار العلماء في العالم الإسلامي وأتت الثقافة الإسلامية أكلها ناضجة[2].

كما كان عهدهم يمثل المرحلة التي بلغ فيها انتشار الإسلام واستقراره في أفريقيا الغربية كلها عصره الذهبي بصفة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنطقة قبلهم ولا بعدهم، كما بلغ ازدهار التبادل العلمي والثقافي والتجاري في هذا العهد بين سكان السودان الغربي والعالم الإسلامي أوجه[3]. ولكن الثقافة الإسلامية وسائر العلوم

---

(١) مسالك الأبصار ص ٧٤ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٨.

(٢) انظر الفتاش ص ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ٩ ـ ١٢، وص ٤٠ ووصف أفريقيا ص ٥٣٩.

(٣) مملكة سنغاي ص ١٢ ـ ٤٠.

ازدهرت أكثر في عهد الملك العادل الحاج أسكيا محمد ابن أبي بكر، وابنه داود أسكيا. وكان أسكيا محمد الذي حكم سنغاي من عام ١٤٩٣ إلى عام ١٥٢٨ م سهل الجانب رقيق القلب خافض الجناح شديد التعظيم لأئمة الدين والعلم مكرماً لهم غاية الإكرام، فقد أحب العلماء وطلاب العلم ورعاهم وأغدق عليهم، وجدد الدين، وأقام القضاء والأئمة... ونصب في (تمبكت) قاضياً، وفي بلدة (جنى) قاضياً، وفي كل بلد يستحق القضاء من بلاده قاضياً، من كنت إلى سبردك[١]؛ وقال القاضي محمود كعت: وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل، وكان من عقلاء الناس ودهاتهم...[٢]

وكان العلماء في عهده في حركة دائبة بين المغرب والمراكز الثقافية في السودان الغربية كله بتشجيع منه وعمل على استقدام عدد كبير من العلماء من المغرب ومصر والحجاز، وفي أثناء حجه عام ٨٨٩ هـ استقدم بعض العلماء منهم الشريف أحمد الصقلي ومن معه، وكاتبه علي بن عبد الله. كما اشترى في مكة والمدينة جناناً وبيوتاً وحبسها أوقافاً يصرف ريعها على الفقراء والمساكين والعلماء وطلبة العلم الذين انقطعوا للدراسة والعبادة من الوافدين من السودان الغربي[٣] (غرب أفريقيا).

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٥٩، وتاريخ السودان ص ٧٢ ـ ٧٣، ونزهة الحادي بأخبار القرن الحادي ص ٨٩ ـ ٩٠ لمحمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي، ط مكتبة الطالب رباط مؤسسة الملك ـ الدار البيضاء.

(٢) الفتاش ص ٥٩.

(٣) انظر تاريخ الفتاس ص ١٦ للقاضي محمود الذي كان مع السلطان محمد أسكيا أثناء حجه في العام المذكور وانظر تاريخ السودان للسعدي ص ٧٣ وقال السعدي: أنه اشترى جناناً في المدينة وحبسها على أهل التكرور، وهي معروفة هنالك.

ولا توجد دولة إسلامية في تاريخ السودان كله وصلت إلى قمة الازدهار الثقافي والعلمي ونمو الحركة الفكرية وتوسيع حركة المد الإسلامي مثلما بلغت سنغاي في عهد محمد أسكيا وأسكيا داود، وخلفائهما من ملوك سنغاي.

وكان أسكيا داود الذي حكم سنغاي ثلاثة وثلاثين عاماً من ١٥٤٩ إلى ١٥٨٣م[١]، فقيهاً عالماً حافظاً كتاب الله وسلطاناً مهيباً، وهو أول من اتخذ خزائن للكتب. - أي المكتبات العامة - وله كُتَّابٌ ينسخون له كتباً. وقد وصفه القاضي محمود في تاريخ الفتاش بذلك حيث قال: (وكان أسكيا داود سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرئاسة كريماً جواداً)... وهو أول من اتخذ خزائن المال حتى خزائن الكتب وله نساخ ينسخون له كتباً، وربما يهادي به العلماء... إنه حافظ للقرآن، قرأ الرسالة فأتمها وله شيخ يعلمها له، ويأتي الشيخ بعد الزوال...[٢].

ولم يحصل تقصير من سلاطين مملكة سنغاي الذين أتوا بعد أسكيا داود في الاهتمام باستقدام العلماء ونشر العلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله. وعندما زار الرحالة المغربي الحسن الوازن مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان وجدها كعبة الثقافة الإسلامية والعلوم، ووصف النهضة العلمية والثقافية التي كانت تزخر بها واهتمام ملوك سنغاي بنشر العلوم والثقافة في كل مكان، وذكر أن تمبكت كانت حافلة بالعلماء والفقهاء والأئمة وأنهم جميعاً يأخذون مرتبات طيبة من الملك ويعاملون باحترام وتقدير عظيمين من قبل الحكومة والشعب. وأن تجارة الكتب تفوق كل تجارة في ربحها، ولا توجد سلعاً تضاهيها في الربح، وسواء كان الكتاب منسوخاً في نفس البلاد أو مستورداً من البلاد الإسلامية[٣].

---

(١) مملكة سنغاي ف عهد الأسقيين ص ٤٥.

(٢) الفتاش ص ٩٤.

(٣) انظر وصف أفريقيا ص ٥٤١ بتصرف.

قلت وهذا يدل على أن بلاد السودان في عهد حكم آل أسكيا قد وصلت إلى مستوىً رفيع وعالٍ جداً في ميدان العلم والثقافة.

وقد عرفت بلاد السودان تحت ظل حكم سنغاي في ذلك العهد كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، سواء عن طريق الكتب التي كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة، أو عن طريق الفقهاء الذين يأتون للدعوة والتعليم، أو عن طريق الفقهاء التجار الذين كانوا يذهبون إلى بلاد السودان للتجارة، وفي الوقت نفسه يقومون بالتدريس والتعليم[1]. أو عن طريق الطلاب السودانيين الذين كانوا يقومون بحركة دائبة باتجاه شمال أفريقيا ومصر والحجاز للدراسة ثم يعودون بعد إنهاء دراستهم فينشرون ما تلقوه من معارف في بلدانهم. كما أنه تم نشر الكثير في هذا الميدان عن طريق العلماء والفقهاء الذين كان ملوك آل أسكيا يعملون على جلبهم من مناطق العالم الإسلامي المختلفة للتدريس، ويبذلون لهم بسخاء الكثير من المساعدات المادية والمعنوية مما حمل الكثير منهم على الإقامة والاستيطان في مراكز العلم والثقافة الإسلامية ببلاد السودان[2]. ولقد توافد في هذا العهد على بلاد السودان جم غفير من العلماء من المغرب كما استقبلت جامعة القرويين بفاس العشرات من الطلبة والعلماء من السودان، وازدهرت تجارة الكتب وحفلت خزائن مدن السودان بكل ما كان معروفاً من كتب العلم في مختلف الفنون، وقد بارك ملوك آل أسكيا الحركة العلمية والثقافية في بلادهم بتشجيع العلماء والفقهاء واحترامهم وأسقطوا عنهم جميع وظائف السلطنة وغراماتها ولا يطالب أحدهم بشيء من ذلك، ومنعوا عنهم الظلم ولا يحق لأي حاكمٍ من حكام الأقاليم والمدن النظر في أي شكوى ضد

---

(١) انظر أمبراطورية غانا الإسلامية ص ١٤٤.

(٢) راجع لهذا الموضوع تاريخ السودان ص ٢١ ـ ٢٧ ـ ٤٣ ومملكة سنغاي ص ١٣٧ ـ ١٤٠.

عالم أو فقيه بل ذلك حق للأسكيا وحده دون سائر حكام المقاطعات في مملكة سنغاي[1].

وقد ساعدت إمكانات البلاد الهائلة وظروف التجارة المربحة مع تضافر جهود ملوك آل أسكيا المباركة في إشاعة المعرفة في بلادهم. وما كان للطلبة السودانيين من همة عالية وتجلد في سبيل العلم وتحصيله من مراكزه الأصلية. كل ذلك ساعد على جلب عدد كبير من ذوي العلم والثقافة إلى بلاد السودان الغربي في هذا العهد. وكان من أبرز العلماء الذين استقدموا من المغرب إلى مملكة سنغاي:

محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي جاب بلاد السودان في عهد الحاج محمد أسكيا سلطان سنغاي واتخذه مستشاراً له ووجه إليه عدة أسئلة[2].

محمد بن عيسى بن علي التلمساني: اشتهر بوضع كتاب حلل فيه شرب الخمر باعتبار أنها تتخلل بالخل وهو حلال، ويقال أنه عرض كتابه ذاك على بعض شيوخه فأعجب بطريقة عرضه وتحليله[3]. قلت: والخمر نجس لا تحل بالإجماع إلا إذا انقلبت الخمرة خلاً بنفسها بدون فعل أحد فتحل حينئذ باعتبارها خلاً وليس خمراً[4].

صالح بن محمد أندي عمر المشهور بالمعمري والمعروف بصالح تكن كان من أهل العلم والفضل قال عنه السعدي: إنه (محترم عند السلاطين يشفع للمساكين عندهم ولا يردون شفاعته على كل حال.

---

(١) تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٧٣.

(٢) انظر نيل الابتهاج ص ٣٣١، وقد أوضحنا الحديث عن أثر دعوته الإصلاحية في السودان الغربي واتصاله بملوك السودان وحياته العلمية في تلك البلاد، فارجع إليه.

(٣) انظر الحكم المغربي للسودان الغربي ص ٥١٥.

(٤) كشاف القناع للبهوتي ج ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

ألف شرحاً على مختصر الشيخ خليل[1]. وقال صاحب فتح الشكور أنه لم يقف على تاريخ وفاته[2].

أبو القاسم التواتي: جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، وسكن بجوار المسجد الجامع وكان يستقبل في داره طلبة العلم وكان السلطان أسكيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وأنشأ مقبرة تمبكت الكبرى التي حبس عليها الأسكيا صندوقاً فيه ستون جزءاً من المصحف وجعله في المسجد الجامع الكبير لطلبة العلم، وعندما توفي أبو القاسم سنة ١٥١٦ م في تمبكت كان يوجد فيها خمسون عالماً من علماء توات[3].

عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري ثم الفاسي السفياني، ولد بمدينة القصر الصغير على البحر المتوسط، وهو شيخ المنجور أشهر علماء المغرب. قال أحمد بابا في النيل: قال المنجور في فهرسته: شيخنا الفقيه الأستاذ المحدث المسند المحقق الرحالة أخذ عن شيخ الجماعة ابن غازي والشيخ زروق، وأدرك أبا الفرج الطلنجي. . . وشرق سنة تسع وتسعمائة فأخذ علم الحديث بمصر عن أصحاب ابن حجر كالقلقشندي وغيره وضبط فحصل له رواية واسعة لم يحصلها من الفاسيين، ثم آب لبلاد السودان ودخل كانو وغيرها فعظموه وأعطوه مالاً جزيلاً ثم رجع إلى فاس سنة ٩٢٤ هـ، فأكب على رواية الحديث وتدريسه وكان يدرس الموطأ والكتب الستة والتفسير. . . حتى توفي سنة ٩٥٦ هـ[4]. وغير هؤلاء من العلماء الذين استقدموا من بلاد المغرب والأندلس كثيرون، وسيأتي ذكر أسماء

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٦.

(٢) فتح الشكور في معرفة أعيان وعلماء التكرور ص ١٥٥.

(٣) تاريخ السودان ص ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ وانظر أيضاً بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥١٥.

(٤) نيل الابتهاج ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

بعضهم عند الحديث عن أشهر العلماء في المراكز الإسلامية بتمبكت وغاو وجنى وغيرها.

ويظهر أن امبراطورية سنغاي في عهد حكم آل أسكيا مرت بطورين في ميدان التطور العلمي والثقافي: الطور الأول:

طور الأخذ في ميدان المعارف المختلفة وذلك باستقدام العلماء وتشجيعهم على بذل العلم وتشجيع الطلاب السودانيين على الرحلة إلى شمال أفريقيا ومصر والحجاز لطلب العلم والوقوف على مراكز العلم وما ألفه العلماء في تلك المراكز. وهذا الطور يبدأ من عهد محمد أسكيا الأول ١٤٩٣م - ١٥٢٨م، وعهد ابنه أسكيا موسى ١٥٢٨م - ١٥٣١م[١].

الطور الثاني: هو طور الإنتاج والعطاء والتبادل الثقافي بين السنغاي والعالم الخارجي، وهذا الطور، يبدأ من سنة ١٥٣٠م وبلغ ذروته خلال الفترة الممتدة بين عهد أسكيا إسماعيل سنة ١٥٣٧م - ١٥٣٩م، حتى نهاية أيام أسكيا داود سنة ١٥٨٣م، واستمر حتى بداية العهد المغربي سنة ١٥٩١ م، ففي خلال هذه الفترة ازدهر العلم واشتهر كثير من علماء السودان الغربي بالعلم، وألف كثير منهم عدة شروح في الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ، كما قام بعض أهل سنغاي من العلماء في هذا العهد بالتدريس في جامعة الأزهر، كان من أشهرهم الفقيه المفسر المعتز بن عبد الرحيم، وصبح بن عبد الله الذي اشتغل بالحديث وتدريسه في دمشق بعد الأزهر[٢]. وقد ظهر دور علماء السوذان الغربي في الإنتاج العلمي أثناء عهد الأخذ والعطاء تحت رعاية ملوك آل أسكيا، وكانت جميع أنواع العلوم تدرس

---

(١) مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٧.

(٢) انظر مملكة سنغي في عهد الأسقيين ص ١٣٨، وبرنود فيلا ص ٥٩؛ ونيل الابتهاج ص ٧ وما بعدها تقدم الحديث على صبح بن عبد الله التكروري أنه من الذين رحلوا لطلب العلم في الأزهر.

وتستوعب وتناقش باللغة العربية، وهي لغة الكتابة الرسمية والثقافة على حد سواء[١]. وهي اللغة التي يدرس بها الطلاب العلوم المختلفة، وهكذا أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب بين سكان سنغاي وهي لغة الإدارة والمراسلات والمعاملات والمراسيم والدواوين وبذلك طبعت البلاد بطابع عربي إسلامي[٢]. وقد تمسك العلماء والفقهاء في هذا العهد بالقيم الأخلاقية الشرعية احتراماً للعلم إلى أبعد الحدود، فعزفوا عن مصاحبة السلاطين، وعن تولي الوظائف الرسمية في الدولة، واكتفوا بالتمتع بالزعامة الدينية على أفراد المجتمع السوداني بأسره، وكان سلاطين الدولة يقدرون العلماء ويجلونهم ويستفتونهم في كل صغيرة وكبيرة، ويأتمرون بأمرهم بل كان للعلماء والفقهاء عندهم مكانة خاصة وشفاعة وحرمة فمن احتمى بدار الخطيب أو القاضي أو أي عالم أمن من عقاب السلطان والحكام ولم يتعرض له أحد بسوء[٣].

واستمرت دولة سنغاي الإسلامية في السودان الغربي في رعاية العلم وأهله العلماء والطلاب، واهتمت بنسخ الكتب العلمية ونشر الثقافة الإسلامية في السودان كله حتى غزاها الاستعمار المراكشي سنة ٩٩٩ هـ - ١٥٩١ م، فاضطهد العلماء والفقهاء وقتل بعضهم واعتقل بعضهم وشردهم وأتلف المكتبات العامة والخاصة في تمبكت وغيرها من مراكز العلم والثقافة في السودان[٤]. وسيأتي الكلام على مساوىء

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ٩٤ ومملكة سنغاي ص ١٠٢ - ١٣٩ ووصف أفريقيا ص ٥٤١ - ٥٤٤.

(٢) انظر المراجع السابقة والحكم المغربي للسودان ص ٥٥٢.

(٣) انظر الفتاش ٥٩ - ٦١ وتاريخ السودان ٣٨ - ٤١ ورحلة ابن بطوطة ص ٤٤٩ - ٤٥٠ والتأثير الإسلامي في السودان ص ٢٧٨.

(٤) انظر الفتاش ص ١٧٤ - ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٦٩ - ١٧٠، ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٨ - ١٣٩، والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ١٧٨.

الحكم المغربي السودان وما أصاب البلاد أثناء حكم المغاربة من التفكك والانحلال والخمول الفكري وتدهور المراكز الثقافية بحضارتها وظهور البدع والخرافات في تلك البلاد.

مراكز الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي

مراكز الازدهار الثقافي والعلمي والحضاري في أفريقيا الغربية في عهد الامبراطوريات الإسلامية الثلاث غانة ومالي وسنغاي. هي مراكز الاستقرار السكاني، وأما المناطق الصحراوية فيندر وجود السكان فيها على وجه الاستقرار الدائم ولا يرتادها إلا الرعاة من الطوارق والسودانيين انتجاعاً للمرعى لحيواناتهم ولا يقيمون فيها إلا لمدة محدودة أو أيام قليلة ثم يرتحلون عنها؛ فكانت المراكز الحضارية هي التي ازدهرت فيها الحياة العلمية وأنشئت فيها المدارس والجامعات حتى أصبحت إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العالم الإسلامي واستقطبت الكثير من علماء العالم الإسلامي في ذلك الوقت وطلاب العلم والمعرفة(١). وقد قامت في السودان الغربي مراكز ثقافية مهمة بعد استقرار الإسلام في تلك المنطقة ومن أشهرها:

مدينة غاو ومساجدها ومدينة تمبكت وجامعاتها العلمية التي حظي التعليم فيها بعناية كبيرة من ملوك السودان، ومكانة مرموقة في المجتمع السوداني؛ ومدينة جنى. ومن المساجد التي قامت بدور تعليمي بارز في نشر الثقافة الإسلامية في أيام ازدهار الامبراطوريات الإسلامية في غربي أفريقيا: مساجد دولة غانة البالغة اثني عشر في المدينة الإسلامية التي ذكرها البكري(٢)، يرتادها العلماء والفقهاء وطلبة العلم. ومساجد مدينة أودغست الإسلامية التي كانت مركزاً ثقافياً منذ وقت مبكر فقد كانت أقرب مدن السودان إلى المغرب حيث توجد

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٦ ـ ٢٠ وما بعدها ونيل الابتهاج لأحمد بابا.

(٢) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ١٧٥.

مدينة أغمات ثم مدينة فاس التي كانت مركزاً للإشعاع الثقافي في المغرب والسودان.

وتحدث البكري عن مدينة أوغست وقال: (وهي مدينة كبيرة آهله... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن[١]. وذكر: أن عبد الله بن ياسين إمام المرابطين عندما فتحها سنة ٤٤٦ هـ وجد بها عالماً من القيروان،... وأن علماء هذه المدينة فاقوا في علمهم عبد الله بن ياسين فقيه المرابطين فاعترضوا عليه في فتاويه ومنهجه وطردوه وهدموا داره[٢].

ومن المساجد الشهيرة في مجال التعليم الإسلامي ونشر الثقافة الإسلامية:

مسجد هيب بكشنا وكان قد بنى على طراز مساجد سنغاي وجنى والمساجد الجامعة بكانو ومدن الهوسا الأخرى. والمساجد الجامعة ببرنو. وقد خرجت هذه المساجد علماء أفذاذاً أناروا الطريق أمام مواطني غرب أفريقيا وقاموا بدور كبير وهام في إرساء قواعد الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية في بلادهم[٣].

وسأكتفي بالحديث عن ثلاثة مراكز فقط من هذه المراكز الإسلامية وهي:

---

(١) المغرب ص ١٨٥.

(٢) انظر المرجع السابق ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٧٩ وأودغست مدينة سوننكية في الأصل. انظر أمبراطورية غانة الإسلامية ص ٤٣.

(٣) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ١٥٤. وإبداع النسوخ فيمن أخذت من الشيوخ ص ١٣٥ مكتوب بخط اليد لعبد الله فودي مخطوط بكلية عبد الله بايرو في جامعة أحمد بيلو - رقم ١٣٥، والجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ١ وما بعدها حتى ص ٣٣.

غاو وتمبكت وجنى للدور الذي قامت به هذه المراكز الثقافية الثلاثة في ازدهار العلم ونمو الثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله، ولما لهذه المدن الثلاثة من شهرة عظيمة في ميدان العلم وتوثيق العلاقات الثقافية بين السودان والعالم الإسلامي في المغرب والمشرق.

أولاً: مدينة غاو عاصمة امبراطورية سنغاي وقد سبقت مساجدها تمبكت في دورها التعليمي وإن كانت تمبكت قد فاقتها في هذا المجال كما سيأتي.

الحركة العلمية في مدينة غاو في عهد امبراطورية مالي وسنغاي الإسلاميتين

انتشرت الثقافة الإسلامية في غاو، أو (كوكو) أو (جوجو) عاصمة سنغاي في وقت مبكر جداً لصلتها بمصر قبل الإسلام، فانتشر الإسلام فيها عن طريق القوافل التجارية التي كانت تربطها بمصر وشمال أفريقيا وبلاد المغرب نظراً لموقعها الجغرافي الممتاز بالنسبة للقوافل القادمة من مصر وليبيا وأفريقية[(١)]. وقد وفد عليها بعض العلماء الذين أخذوا ينشرون الإسلام وثقافته فيها في الصدر الأول من الإسلام واستمروا في نشر الإسلام بين الأهالي حتى أسلم على يد بعضهم ملك سنغاي في ذلك الوقت وهو زاكسي سنة ٤٠٠ هـ ـ ١٠٠٩م، ويقال له مسلم دم. معناه أسلم طوعاً بلا إكراه[(٢)]. وتؤكد شواهد القبور التي عثر عليها في مدينة غاو رجال الآثار من شواهد رخامية لقبور ملوك سنغاي كتب على أحدها باللغة العربية الفصحى

---

(١) انظر دوزلة مالي الإسلامية ص ١٦٨ ـ ١٨٦.
وانظر تاريخ السودان ص ٤ وموجز تاريخ أفريقية ص ٤٤ ـ ٤٥ تأليف ولاند أوليفر وجون فيج، ترجمة د/دولت أحمد صادق. ط الدار المصرية للتأليف والترجمة.

(٢) انظر السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر الميلاديين ص ٢٠٠ بقلم سيبكي مودي سيسوكو.

(هنا قبر الملك الذي أيد دين الله وأعزه، أبو عبد الله محمد رحمه الله، وتاريخ وفاته سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠م) وشاهد آخر رقم ١١ مستطيل من حجر الكوارتز لقبر كتب عليه: هذا قبر محمد ابن الجمعة رحمة الله عليه توفي يوم الجمعة السادس من شعبان ٤٩٦ هـ/ ١٥ مايو ١١٠٣م. وشاهد آخر رقم ١٤ من مدينة غاو من الحجر الأخضر والأصفر كتب عليه: كل من عليها فان، وكل نفس مقبوضة إلى بارئها. هذا قبر حواء بنت محمد رحمة الله عليها، توفيت ليلة الخميس الثاني عشر من رمضان ٥٣٤ هـ/ مايو ١١٤٠م)[١].

هذه الشواهد من القبور التي كتبت عليها باللغة العربية الفصحى، تؤكد لنا قوة الثقافة الإسلامية وازدهارها في تلك المدينة وانتشار الإسلام واللغة العربية فيها قبل زمن أصحاب هذه القبور بوقت مبكر جداً. كما أن الأسلوب الذي كتبت به أسئلة محمد أسكيا الكبير الموجهة إلى الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي وما امتازت به تلك الأسئلة من الجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات والجمل المتناسقة يدل على أن الثقافة الإسلامية وصلت قمتها في القوة والازدهار والانتشار وأتت أكلها ناضجة في تلك المدينة. وكان ازدهار الحركة العلمية والثقافية النشطة في مدينة غاو خلال القرون الثلاثة: الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي إبان فترة حكم آل أسكيا مملكة سنغاي الإسلامية، وفي هذه القرون بلغ ازدهار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في السودان الغربي مرحلة النضج[٢]. وقد اتخذ العلماء والفقهاء المساجد التي بنيت

---

(١) كتاب السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر: م ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ وفيه صور القبور المذكورة بالخط العربي الذي كتب به أسماء أصحابها وطول الحجر وارتفاعه وانظر أيضاً العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وأمبراطورية سنغاي بغربي أفريقيا في القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي ص ٦٢٥ للنقيرة.

(٢) انظر مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٣٦ ـ ١٣٧ وما بعدها وانظر الأسئلة والأجوبة ص ١٨ ـ ١٩.

في مدينة غاو مدارس لتدريس القرآن الكريم وحفظه وتدريس سائر العلوم، ويفقهون الناس في دينهم. وعندما كانت مملكة سنغاي خاضعة لامبراطورية مالي اهتم ملوكها بنشر الثقافة الإسلامية في مدينة غاو بصفة خاصة، فقد أمر السلطان منسى موسى المهندس الأندلسي أبا إسحاق الساحلي الذي قدم معه من مكة أثناء حجه عام **٧٢٤** هـ ببناء مسجد جامع بمدينة غاو فبنى له مسجداً جامعاً عام **٧٢٥** هـ صار جامعة إسلامية يؤمها العلماء والطلاب من كل مكان[١].

وكان من أشهر علماء مدينة غاو عاصمة سنغاي الذين قاموا بدور بارز في نمو الحركة العلمية والثقافية وظهر أثرهم جلياً في الدعوة والإصلاح في مدارس غاو وجامعاتها الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي[٢]، وقد تحدثنا عن حركته العلمية في موضع آخر. وأبو المحاسن محمود بن عمر وقد تقدم ترجمته فيمن رحل إلى المشرق من علماء التكرور ممن ذكرهم أحمد بابا في النيل. وسيأتي ذكره أيضاً أنه من علماء تمبكت وقضاتها. وغيرهما من العلماء السودانيين والمغاربة.

وخلاصة الكلام أن مدينة غاو في أيام حكم آل أسكيا لممنكة سنغاي بلغت أقصى درجة من الازدهار في النشاط الثقافي والتجاري والصناعي لموقعها الجغرافي وقد وصفها ليون الأفريقي (الحسن الوزان) بالمدينة الكبيرة في حين وصف تمبكت بالمدينة فقط. وقال عنها أيضاً: (وهذه المدينة مطمئنة بالأمان أكثر من تمبكت)[٣]. قلت: ولكن هناك فرقاً بين غاو وتمبكت من ناحية أن غاو وهي عاصمة مملكة سنغاي المترامية الأطراف يسكنها التجار ورجال الدولة أكثر مما كان يوجد بها طلاب العلم والأساتذة. كما أن النشاط الصناعي فيها لم

---

(١) تاريخ السودان ص ٧.

(٢) نيل الابتهاج ص ٣٣١.

(٣) وصف أفريقيا ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ومملكة سنغاي ص ١٠٨.

يزد على ما كان يوجد بمدينة تمبكت، وكانت القوافل التي تأتي من بلاد الهوسا والتي تأتي من جهة الشرق تقصد مدينة غاو، وأما القوافل التي تأتي تمبكت من جهة الشمال الغربي فإن كثيراً من بضائعها ينقل إلى غاو في ذلك الوقت لكثرة ما بها من السكان والحركة التجارية. وقد قدر سكانها في عهد حكم آل أسكيا بخمسة وسبعين ألفاً بينما سكان تمبكت في ذلك الوقت لم يزد على ثلاثين ألفاً[1]. ومن هنا يبدو أن أهمية غاو في كثرة سكانها وحركتها التجارية وكونها عاصمة الإمبراطورية أكثر من كونها دار علم وثقافة. مع ذلك فإن الثقافة الإسلامية وصلت إلى مستوىً رفيع في مدينة غاو وأصبحت مركزاً من المراكز الإسلامية المهمة التي شعت منها الثقافة الإسلامية واللغة العربية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[2]. وفي هذين القرنين وقبلهما كان العلماء في حركة علمية دائبة بين غاو عاصمة مملكة سنغاي الواسعة ومدينة تمبكت مركز العلم والثقافة ومهجر العلماء والفقهاء. كما أن كثيراً من علماء تلمسان وفاس وفجيج وسوس يقصدون مدن السودان ومن بينها غاو وتمبكت فيستوطنها بعضهم نهائياً ويقيم فيها آخرون سنوات عديدة قبل أن يرجعوا إلى مساقط رؤوسهم. وقد وفد على غرب أفريقيا في ذلك العهد عدد كبير من العلماء والفقهاء من مختلف الأقطار الإسلامية للتدريس في مدارس غاو وتمبكت وجنى ومالي وغيرها من حواضر غرب أفريقيا إحساساً منهم بواجبهم تجاه إخوانهم في هذه البلاد، وأسهم هؤلاء العلماء في نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية فيها[3].

---

(١) مملكة سنغاي ص ١٠٩.

(٢) انظر حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقية الغربية ص ١٥٧ للدكتور نعيم قداح.

(٣) انظر تاريخ السودان، والحركة الفكرية بالمغرب ص ٧٠ وانظر أيضاً الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ص ١٤٨ لشوقي عطا الله الجمل.

مدينة تمبكت، أو تنكبت كما سماها أحمد بابا في النيل وكعت في الفتاش والسعدي في تاريخ السودان:

وقد درجت على كتابة اسمها بالصورتين تمبكت وهي المشهورة الآن وتنبكت الاسم القديم في المراجع السودانية يعني اسم هذه المدينة (بئر بكتو)[1]، ويقول السعدي: إن تنبكت اسم امرأة كانت تحرس للطوارق تلك البئر. وقد جاءت هذه التسمية من ذلك المكان الذي حفر فيه البئر كان قد اتخذه الطوارق مركز للانتجاع بمواشيهم في فصل الجفاف بالسودان. وخزانة لمتاعهم إلى أن صار مسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم، وقد حفروا فيه بئراً وخازنهم المرأة التي تدعى بتمبكت[2]. ثم تكاثرت الآبار بعد ذلك بالتدريج، وصار التجار يتلاقون في ذلك المكان ويقيمون من حوله للراحة أحياناً.

ويسبب التقاءاتهم في ذلك المكان تحول إلى مركز وسوق تجاري ـ للتبادل التجاري بين التجار الذين يأتون من الشمال والذين يأتون من الجنوب. ويقول السعدي: (ثم أخذ الناس يسكنون فيه، ويزداد بقدرة الله تعالى وإرادته في العمارة، ويأته الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقاً للتجارة...)[3] بذلك أصبحت مدينة تمبكت مركزاً علمياً واقتصادياً ذائع الصيت بين مدن السودان برزت فيها دور العلم والعبادة وشيدت المساجد والجوامع التي أصبحت جامعات إسلامية ومعاهد علمية تضم المتشوقين للعلم من الطلبة والعلماء الذين يفدون إليها من كل مكان من العالم الإسلامي. ووقفت هذه المدينة

---

(١) ذكر السعدي أن طوارق مقشر أنشاؤها في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي وهو قوم من البدو الرحل قدموا إلى هذه البلاد لرعي أغنامهم ثم استقروا في موضع هذه المدينة ص ٢٠/٢١.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ٢٠ ـ ٢١ الباب السابع منه ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٠٠.

(٣) تاريخ السودان ص ٢١.

على قدم المساواة مع العواصم الإسلامية في المغرب ومصر والحجاز وبغداد والأندلس في مجال العلم والثقافة الإسلامية، وقامت بدور ثقافي بارز في السودان الغربي كله ولاسيما في عهد مملكة سنغاي العهد الذهبي لتمبكت. كانت زاخرة بالعلوم يؤمها الطلاب والعلماء والفقهاء من كل حدب وصوب من شمال أفريقيا والمغرب، ومن المشرق الإسلامي ومن السودان[١].

وتحدث السعدي عن العلماء الأخيار والصالحين وذوي الأموال الذين وفدوا على تمبكت وسكنوها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مصر والحجاز وفاس والقيروان وبلاد الغرب وبين أن هؤلاء الأخيار من العلماء الذين سكنوا تمبكت اتخذوا مساجدها مدارس يحفظون الناس فيها القرآن الكريم ويفقهونهم في دينهم وينشرون الثقافة الإسلامية...[٢].

وبهذا كانت تمبكت مدينة أصبحت بحق مركز الثقافة الإسلامية في السودان الغربي وقلب الحركة الفكرية النابض اجتمع فيها الفقهاء والعلماء من كل جنس ولون. من السودانيين والمغاربة والأندلسيين والمصريين والحجازيين ووفد إليها طلاب العلم من كافة بقاع غرب أفريقيا وشمال أفريقيا[٣]. وقد أعطى الحسن الوزان صورة علمية رائعة عن تمبكت أثناء مروره بها في عهد محمد أسكيا وبين ما فيها من العلماء والقضاة والأئمة والأدباء وما يحظون به من الإكرام والإجلال

---

(١) انظر لمعرفة ازدهار هذه المدينة ثقافياً وعلمياً واقتصادياً: تاريخ السودان ص ٢١ وما بعدها، وتاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ وذكر القاضي محمود كعت أن تمبكت في عهد مملكة سنغاي قبل غزو المغاربة لها: لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب... ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ٢١ ـ ٢٢.

(٣) انظر المرجع السابق. والإسلام والثقافة العربية في أفريقية ج ١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ للدكتور/ حسن أحمد محمود ج ١ ص ١٧٠ وانظر أيضاً الحضارة الإسلامية العربية في غرب أفريقيا ص ١٥٤ د/ شوقي عطا الله الجمل.

من قبل ملوك سنغاي وما يغدقه الملك محمد أسكيا من الأموال والرواتب الكبيرة على العلماء والأدباء والقضاة والأئمة كما ذكر المخطوطات والكتب التي تباع فيها مكتباتها بأسعار خيالية وأنه يجني من وراء ذلك أرباح تفوق كل سلعة تباع في أسواقها[1].

الحركة العلمية والثقافية في تمبكت في عهد الحكومات التي تعاقبت على حكمها

تعاقبت على حكم تمبكت عدة دول إسلامية، لأنها لم تنشأ إلا بعد دخول الإسلام في المنطقة بمدة طويلة واستقراره فيها، وكانت أولى الحكومات التي حكمتها هي امبراطورية مالي الإسلامية بعد استيلائها على مملكة سنغاي وضمها إلى مالي. وأول من ملك تمبكت من ملوك مالي منسى موسى أو كنكن موسى بعد أن استولى على غاو عاصمة سنغاي بعد عودته من الحج...[2] ويظهر أنها كانت قبل ذلك تابعة لمملكة سنغاي، فلذلك لما ضمت امبراطورية مالي الإسلامية مملكة سنغاي إليها أصبحت مدينة تمبكت تابعة لها. وتحدث السعدي عن تعاقب الدول والسلاطين على حكمها وعن تطور البناء والعمارة فيها وبين أنه ما تكامل البناء فيها في الالتصاق والالتئام إلا في أواسط القرن العاشر في فترة حكم أسكيا داود ابن الأمير أسكيا الحاج محمد، ثم تحدث عن أول من ابتدأ الملك فيها.

فقال: (فأول من ابتدأ فيه[3] الملك كما تقدم أهل ملي ودولتهم فيه مائة عام وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في القرن الثامن، ثم طوارق مغشرن ودولتهم أربعون عاماً وتاريخه من عام سبعة وثلاثين في

---

(١) وصف أفريقيا ص ٥٤١.

(٢) تاريخ السودان ص ٧.

(٣) الضمير في فيه يعود على البلد المتقدم في كلامه وليس إلى المدينة. انظر ص ٢٢ السطر الأول.

القرن التاسع[1] (وذكر السعدي في ص ٩ أن طوارق مغشرن هؤلاء أغاروا على أهل تمبكت واستولوا عليهم في آخر دولة مالي، وأنهم أخذوا يفسدون في الأرض من كل جهة ومكان. . .) ثم سن على وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين في القرن التاسع ومدة ملكه أربع وعشرون سنة.

ثم أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد ودولته مع عقبه مائة عام وواحد. وتاريخه رابع عشر من جمادى الآخرة في العام الثامن والتسعين في القرن التاسع وآخرها سابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. ثم الشريف الهاشمي أحمد الذهبي (ملك مراكش) وتاريخه انقراض دولة أهل سنغاي وهو السابع عشر من جمادى الآخرة في العام التاسع والتسعين في القرن العاشر. وكان ملكه فيه اليوم خمس وستين سنة)[2].

وتتفق جميع المصادر التي تحدثت عن تمبكت في عهد الحكومات التي تعاقبت عليها؛ أن الحركة العلمية والثقافية فيها نشطت نشاطاً بعيد المدى واشتهرت بمساجدها التي تحولت إلى جامعات علمية راقية لا تقل عن مثيلاتها في القاهرة وغيرها في عهد امبراطورية مالي الإسلامية وامبراطورية سنغاي الإسلامية. أما في عهد ملوك مالي فقد شهدت مدينة تمبكت حركة علمية نشطة وازدهرت الثقافة الإسلامية العربية فيها.

---

(١) بين السعدي أن حكم الطوارق لم يكن مباشر للبلد وإنما فوضوا أمر تمبكت إلى كي محمد نض، وبقوا على حالهم القديمة من سكنى البراري وتتبع المراتع. انظر السعدي ص ٢٢، ويلاحظ أن الطوارق إنما استولوا على تمبكت بعد تفكك أمبراطورية مالي وانفصال مملكة سنغاي عنها، وانشغال ملوكها بالاستيلاء على ممتلكات مالي المتداعية. لذلك استعاد سن على ملك سنغاي تمبكت من الطوارق وضمها من جديد إلى مملكة سنغاي. انظر السعدي ص ٩.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٢.

وفي عهد منسى موسى شهدت تمبكت نشاطاً علمياً منقطع النظير وازدهرت فيها الثقافة الإسلامية العربية. وبنى فيها المسجد الجامع الكبير سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م ووسع مسجد سنكري[1] الذي غدا جامعة إسلامية راقية تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في السودان والعالم.

وقد كانت تمبكت تضم ثلاثة مساجد هامة: المسجد الجامع الكبير ومسجد سنكري ومسجد سيدي يحيى، وهذه المساجد الثلاثة أصبحت بمثابة جامعات ومعاهد تعليمية كبرى ومراكز ثقافية وتربوية. وحققت هذه المساجد أهدافها التعليمية والثقافية والتربوية وتخرج منها القضاة والعلماء والأدباء والمؤرخون أمثال أسرة كعت والقاضي العاقب، وعلماء وفقهاء أسرة آل أقيت، والمؤرخ السعدي صاحب تاريخ السودان، وأحمد بابا صاحب نيل الابتهاج وغيره والقاضي محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش. وغيرهم كثيرون. وقد قام السلطان منسي موسى بجهود مباركة في النهوض بالتعليم في تمبكت وجامعاتها ورفع مستوى الثقافة الإسلامية فيها، فاستقدم لها العلماء من كل مكان من الحجاز ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، كما أتبع ذلك بالبعثات العلمية إلى المراكز العلمية في العالم الإسلامي في ذلك الوقت واشترى لمكتباتها المراجع والمصادر والمخطوطات في المذهب المالكي بصفة خاصة وأغدق على علمائها وطلابها ورعاهم حتى غدت المساجد والمدارس جميعها غاصة بطلبة العلم والعلماء الوافدين إليها من كل فج عميق، فازدهرت الثقافة الإسلامية وسائر العلوم فيها، واشتهرت مدينة تمبكت عالمياً وخاصة في مجال بيع المخطوطات، وأصبحت حاضرة ثقافية لها صلة بغيرها من العواصم الثقافية الأخرى

---

(١) تاريخ السوادن ص ٨ و ص ٥٦ ـ ٥٧.

في المغرب والعالم العربي مثل فاس في المغرب والقيروان في تونس، وقرطبة في الأندلس، والقاهرة في مصر[1].

وفي عهد منسي موسى انتشر الإسلام في بلاد هوسا انتشاراً واسعاً وازدهرت الحركة العلمية والثقافية في بلاد كانو وكنشا بسبب الحركة التي قام بها علماء تمبكت وجني. وفي أيامه أيضاً دخل الإسلام في بلاد يوربا وانتشر فيها وصار يعرف الإسلام في بلاد يوربا بدين مالي حتى يومنا هذا[2].

وكان قد وفد على بلاد هوسا (نيجيريا حالياً) في عهد منسى موسى أو الذي كان قبله وفد من علماء مالي يضم أربعين رجلاً من شعب المادنجو من ونغارة لنشر الإسلام في تلك البلاد، وعرضوا الإسلام على أمير كانو فأسلم وحسن إسلامه وأصدر أوامره إلى جميع القرى والمدن التابعة له بأن يعتنقوا الإسلام فاعتنقوه، وابتنى أول مسجد في كانو تحت شجرة كانوا يؤمنون بقداستها وأقيمت فيه الصلوات الخمس، وتولى الوفد المناصب الدينية في بلاد كانو كالقضاء والإمامة في الصلاة والأذان وذبح الماشية على الطريقة الإسلامية[3].

ويذكر صاحب كتاب الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا أن الوفد

---

(١) انظر لما ذكر المراجع التالية: تاريخ السودان ص ٧ ـ ٨ وص ٥٦ وتاريخ الفتاش ص ١٨٠ ومع حركة الإسلام في أفريقية دراسة من خلال خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ص ١٥٧ ـ ١٥٨/ ١٥٩ للدكتور/ عبده بدوي. وانظر التأثير الإسلامي في السودان الغربي لمحمد النقيرة ص ٢٨٠ وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية ص ١٧٧ وما بعدها.

(٢) انظر الإسلام في نيجيريا ص ٢٤ وص ٣٢ ـ ٣٣ظ.

(٣) انظر المصادر التالية: الثقافة العربية في نيجيريا د/ علي أبو بكر ص ٣٨ ـ ٣٩ الطبعة الأولى عام ١٩٧٢م، تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقية ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وما بعدها. وكتاب ملامح من الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣.

الذي قدم من امبراطورية مالي الإسلامية إلى كانو لدعوة أهل تلك البلاد إلى الإسلام يبلغ أفراده ثلاثة آلاف وستمائة وستة وثلاثين شخصاً ما[1] بين عالم وقارىء[2]. وبنى كلامه هذا على المخطوطات التي عثر عليها في نيجيريا المتعلقة بعدد الونغاريين وأصلهم والذين وفدوا على بلاد هوسا لنشر الإسلام. وتذكر إحدى المخطوطات بأن عددهم مائة وستون شخصاً[3]. ومهما يكن الاختلاف حول عدد هؤلاء العلماء فإن المتفق عليه أن بعض علماء مالي في عهد منسى موسى قد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام ودخوله وترسيخه في بلاد هوسا. وأن هذه الحركة العلمية التي قاموا بها هي اللبنات الأولى لتبادل التعليم والثقافة الإسلامية بين جامعة تمبكت ومعاهدها وعلماء مدينة جنى في مالي وبلاد هوسا (نيجيريا حالياً) منذ القرن الخامس عشر الميلادي.

ويبدو لي من هذا العرض أن الإسلام قديم في هذه البلاد ولكن وجوده كان سطحياً لم ينتشر ولم يعتنقه سلطان كانو وأمراء البلاد التابعة له إلا عند وصول هذا الوفد من امبراطورية مالي الإسلامية. وأن هؤلاء العلماء الونغاريين أحدثوا ثورة تصحيحية للمفاهيم الإسلامية في تلك البلاد وقضوا على الأوثان التي كانت تعبد فيها[4].

وبعد وفاة منسى موسى هاجمت قبائل الموشى الوثنية مدينة تمبكت فدمرت كل مظاهر الحضارة فيها وأحرقت المساجد والمدارس

---

(١) الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣.

(٢) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ وما بعدها.

(٣) انظر المراجع السابقة. ويلاحظ أن مملكة برنو أو كانم الإسلامية التي قامت في القرن الخامس الهجري كانت مجاورة لبلاد هوسا قد يكون لها أثر في وصول الإسلام إلى بعض بلاد هوسا، ولكن تأثير الماليين أكثر وأعمق في نفوس أهل البلاد. والله أعلم.

(٤) انظر تاريخ السودان ص ٨ ـ ٩ ومملكة مالي الإسلامية ص ٩٣ ـ ٩٤.

والمكتبات[١]. وعملت فيها مثلما فعل التتار بمدينة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في ذلك الوقت وفي هذا العهد استطاع أمراء سنغاي أن يستقلوا وينفصلوا عن مالي[٢].

ولما تولى عرش مالي منسي سليمان بعد وفاة ابن أخيه عمل على إحياء مجد تمبكت الثقافي والعلمي كما كان عليه في عهد أخيه منسى موسى وبنى المساجد والجوامع وأقام الجمع والجماعات واستقدم العلماء والفقهاء في مذهب الإمام مالك وكان منسى سليمان نفسه متفقهاً في الدين معروفاً بالصلاح والتقوى[٣].

وكان قد حج عام ١٣٥١ م واشترى لمكتبات تمبكت التي دمرتها قبائل الموشى الوثنية كثيراً من الكتب في مذهب الإمام مالك فاستعادت تمبكت مكانتها الثقافية. وفي عهد هذا الملك زار ابن بطوطة تمبكت وتجول في بلاد مالي وسنغاي.

الثقافة الإسلامية في تمكبت في عهد مملكة سنغاي:

كان سنى علي الذي حكم سنغاي من عام ١٤٦٤ ـ ١٤٩٢م، من أعظم ملوك سنغاي قبل أسكيا محمد، وكان قوياً محارباً شديد البطش بخصومه، ويذكر السعدي أن ملوك سنغاي لم يجاوز ملكهم سنغاي إلا في عهد سنى علي فإنه زاد على جميع من مضى قبله في القوة وكثرة الجند فعمل الغزوات وطوع البلاد وبلغ ذكره شرقاً وغرباً...[٤] وكان الطوارق قد استولوا على مدينة تمبكت في أواخر أمبراطورية مالي الإسلامية بعد انفصال مملكة سنغاي عنها، ولكن سنى

---

(١) انظر المرجعين السابقين.

(٢) مسالك الأبصار ص ٥٩ ـ ٦٠ ودونة مالي الإسلامية ص ٩٤/ ٩٥ وصبح الأعشى ص ٢٩٧.

(٣) المراجع السابقة والتأثير الإسلامي في غرب أفريقيا ١٨١.

(٤) انظر تاريخ السودان ص ٦.

علي هاجمها واستولى عليها وضمها إلى امبراطورية سنغاي كما استولى على ما بقي من مملكة مالي.

ويذكر السعدي أن سنى علي هذا عندما استولى على تمبكت خربها وقتل العلماء وشردهم، ورحل كثير منهم مع سلطان الطوارق آكل إلى مدينة (بير) ويظهر مما كتبه السعدي وغيره من السودانيين عنه أن سبب قتله العلماء وتشريده إياهم يرجع إلى سببين هما:

١ ـ انضمام كثير من العلماء في تمبكت إلى جانب الطوارق وإلى سلطانهم عقيل الملاول كما يسميه صاحب كتاب سنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر[١] أو أكل أكملول[٢] الذي كان سنى علي يحاربه آنذاك.

٢ ـ إن العلماء كانوا لا يكفون عن انتقاده حيث كان سني علي مسلماً لم يحسن إسلامه بحكم تربيته في بلد أمه في بلاد هوسا، ولم يهجر يوماً العبادات التقليدية للسنغاي وفوق ذلك كان رمزاً للثقافة السنغاوية التقليدية[٣]، ومما يؤيد هذا أن السعدي نفسه ذكر أنه كان يكرم بعض العلماء ويحترمهم وقال: (وبعد رحيل الفقهاء إلى (بير) قلد القضاء ـ أي في تمبكت ـ الفقيه القاضي حبيب حفيد السيد عبد الرحمن التميمي[٤] وبالغ في تعظيم ابن عمه المأمون والد عمار بن المأمون حتى لا يقول له إلا أبي، وبعد موته، ـ أي سني علي ـ حين شرع الناس في ذكر مساوئه، يقول المأمون: (لا أقول في

---

(١) السنغاي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤، بقلم سيثيكي مودي سيسوكو.

(٢) تاريخ السودان ص ٩ وص ٢٢.

(٣) السنغاي من القرن ١٢ إلى القرن ١٦ م ص ٢٠٤.

(٤) عبد الرحمن التميمي هذا من العلماء الذين استقدمهم سلطان منسي موسى أثناء حجه من الحجاز إلى مالي لتعزيز معاهدها بالفقهاء والعلماء من خارج البلاد، وتقدم ذكره.

سني علي سوءاً إلا أنه أحسن إلي ولم يعمل في سوءاً كما عمله في الناس). لا يذكره بحسن ولا قبيح فعظم قدره عند أبي البركات الفقيه محمود بذلك لأجل عدالته...)[1] وأضاف السعدي قائلاً: (ومع هذه الإساءة كلها التي يفعل بالعلماء يقر بفضلهم، ويقول: لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم...)[2] فلما اعتلى أسكيا محمد عرش سنغاي أعاد العلماء جميعاً إلى تمبكت وأكرمهم ورعاهم وعمر المساجد والمدارس وأعاد بناء ما خربه سني علي[3] واشترى كثيراً من الكتب العلمية والثقافية واهتم بنشر العلوم والثقافة فازدهرت تمبكت في عهده ازدهاراً لم يسبق له مثيل ويعتبر عصره وعصر من بعده من أولاده العصر الذهبي لمدينة تمبكت وللعلم والعلماء. فقد وصفه القاضي محمود كعت بقوله: (ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وحب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل. وكان من عقلاء الناس ودهاتهم، والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته، وأبطل جميع ما عليه شيء من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام... وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة جازاه الله عن الإسلام خيراً، ونصب في تمبكت قاضياً وفي بلدة جنى قاضياً وفي كل بلد يستحق القاضي من بلاده قاضياً من كنت إلى سبرك...)[4] ويذكر صاحب الفتاش أنه كان

---

(١) تاريخ السودان ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ وهذا يؤكد أنه لم يكن يعادي العلماء كلهم في تمبكت وإنما كن عدواً للعلماء الذين وقفوا مع عدوه الذي كان يحاربه.

(٣) يقول السعدي في تاريخ السودان فيما حكاه عن أحمد بابا: أن مدينة تمبكت خربت ثلاث مرات الأولى على يد سلطان موشي، والثانية على يد سني علي، والثالثة على يد محمود بن زرقون. قائد الجيش الذي أرسله منصور الذهبي للاستيلاء على السودان ص ٩.

(٤) تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت أحد قضاة تمبكت ص ٥٩-٦٠ وتاريخ السودان ص ٧٢.

بمدينة تمبكت - في عهد أسكيا - مائة وخمسون أو ثمانون مكتباً لتعليم الصبيان القرآن الكريم. وتارة يسميها مدارس[1]. ويعبر السعدي عن ذلك باسم (محضر) فيقول في معرض حديثه عن الفقيه أبي القاسم التواتي أحد علماء تمبكت وأحد أئمة مسجدها الجامع الكبير: وقد سكن في جوار المسجد الجامع من جهة القبلة ليس (بينه)[2] بين داره إلا الطريق الضيق النافذ بعدما ابتنى محضراً في قبالة المسجد لاصقاً بها وفيها يقرأ الأطفال، وبعدما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الغزالي وبعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرىء عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي)[3]. وواضح من كلام السعدي أنه يعني بكلمة (محضر) مدرسة لتعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن الكريم أو يعني بها مكتب التعليم وتحفيظ القرآن. وكلمة (محضر بمعنى مدرسة تعليم الصبيان وتحفيظهم القرآن، أو بمعنى الكتاب تسمية مشهورة في بلاد المغرب والمشرق الإسلامي[4] في ذلك الوقت. وكانت مدينة تمبكت في عهد آل أسكيا وخصوصاً في عهد أسكيا محمد وابنه أسكيا داود من أبرز مراكز الثقافة الإسلامية في السودان الغربي. وفي هذا العهد تكامل بناؤها في الالتصاق والالتئام بجوامعها ومعاهدها وكتاتيبها ومدارسها، كما يقول السعدي[5]... وتمتع العلماء في تمبكت وغيرها

---

(1) المرجع السابق ص ١٨٠.

(2) في الأصل ليس بينها وبين داره،والضمير في(بينها) يعود إلى المسجد الجامع، وهو مذكر وقد لاحظت أنه أحياناً يعيد الضمير الذي للمؤنث على المذكر.

(3) تاريخ السودان ص ٥٨.

(4) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد أفريقيا ص ١٦١ وذكر نقلاً عن د/ عبد العزيز أمين - بأن هذه التسمية معروفة في المغرب وأن التلميذ في الخلوة يسمى عندهم (المحضري) وأما في المشرق فقد نقل عن ابن جبير عندما تحدث عن مدينة دمشق قوله: (وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد، ولها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم به ويكسوتهم.

(5) انظر تاريخ السودان ص ٢١ - ٢٢ وص ١١٠ وتاريخ الفتاش ص ١٠٦.

بمكانة مرموقة في المجتمع السوداني فقد درج ملوك وسلاطين سنغاي على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لا يمس بسوء طيل حياته[1]، وكان لهذا الجو من الطمأنينة الذي وفره هؤلاء الحكام لعلماء تمبكت أكبر الأثر في تقدم العلوم وازدهار الثقافة الإسلامية في جامعة تمبكت. وظهرت المكتبات العامة التي أنشأها أسكيا داود في مدينة تمبكت، كان السلطان أسكيا داود فقيهاً عالماً مهيباً فصيحاً وهو أول من اتخذ خزائن الكتب وملأ تلك المكتبات بالكتب والمخطوطات. وكان له نساخ ينسخون له كتباً ومخطوطات ويهادي بها العلماء[2].

وانتشرت المكتبات الخاصة التي اقتناها العلماء والأثرياء في تمبكت. وكانوا لا يبخلون على طلاب العلم بشيء منها[3]، وقد ساعد عملهم هذا على ازدهار العلوم والثقافة في تمبكت بوجه خاص وسائر مدن السودان وقراها بشكل عام. كما أن استتباب الأمن في عهد أسكيا داود من جهة والرخاء والرعاية التي أولاها للعلماء وطلاب العلم من جهة أخرى كل ذلك ساعد العلماء على العطاء والإنتاج في مجال العلم وساعد أيضاً الطلاب على الأخذ والقيام برحلات مستمرة في طلب العلم، كما زاد الحركة الفكرية والثقافية توقداً في تلك المدينة، وكانت الدراسة في جامعة سنكري العلمية والجامع الكبير تتركز أساساً على علوم القرآن والحديث وعلومه، والسير، والتاريخ والمنطق، وكان علماء الجامعتين يدرسون: الصحيحين وموطأ مالك في

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٨ - ١٩ وص ٧٣ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ص ٢١٥.

(٢) تاريخ الفتاش ص ٩٤ وذكر أن أسكيا داود كان حافظاً لكتاب الله بالإضافة إلى كونه متفقهاً في الدين.

(٣) انظر ذلك في ترجمة أحمد بن عمر بن محمد أقيت في تاريخ السودان ص ٤٢ وانظر أيضاً نيل الابتهاج ترجمة محمد بن محمود الونكري التنبكتي ص ٣٤١.

الحديث، والمدونة والرسالة ومختصر خليل، والشفا للقاضي عياض والمعيار للونشريسي، وتحفة الحكام لابن عاصم، ورجز المغيلي في المنطق، والألفية، والخزرجية في العروض وشرح الشريف السبتي. فإذا أتم الطالب دراسة هذه الكتب والعلوم المتنوعة حصل على الإجازة العلمية المطلوبة ورحل من المدينة إلى حيث يشتغل بالإقراء أو الخطابة أو الإمامة أو القضاء. وكان الطلاب يفدون إلى مدينة تمبكت للدراسة في جامعة سنكري وغيرها من كل مكان في أفريقيا الغربية والشمالية بعد أن يكونوا قد حفظوا القرآن أو أجزاءً منه في مدارسهم المحلية، فإذا أتموا هذه الدراسة الابتدائية في بلادهم شدوا الرحال إلى تمبكتو وأقاموا بها حتى يتم تعليمهم ودراستهم على الصورة المتقدمة وكانت حياتهم ميسرة، ويستضيفهم سراة الناس في المدينة وتجارها ووجهاؤها، كما أن مسجد سنكري نفسه كانت له أوقاف تنفق على الطلبة المنقطعين للعلم[1].

وأصبحت مدينة تمبكت مركزاً لإشعاع فكري بعيد المدى في بلاد السودان واشتهرت عالمياً ببيع الكتب والمخطوطات، فكانت تحمل إليها الكتب من مختلف جهات العالم الإسلامي ثم تنسخ وتباع في أسواقها، وتلقى إقبالاً منقطع النظير من السلاطين والعلماء والطلبة، وكان العلماء يقبلون في شغف على إنشاء المكتبات الخاصة ومنهم من نيفت كتبه على ألفين[2]. وأصبح لها في بلاد السودان التأثير الثقافي والعلمي.

وكانت جامعة سنكري في هذا العهد قد تمتعت بسمعة كبيرة

---

(١) انظر تاريخ السعدي من صفحات ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٦٠ إلى ٦٣ وانظر أيضاً الإسلام والثقافة العربية في أفريقية ص ٢٧٢ للدكتور حسن أحمد محمود.

(٢) انظر وصف أفريقيا لتجارة الكتب والمخطوطات في تمبكت ص ٥٤١ والمراجع السابقة.

جداً وشهرة أساتذتها تجاوزت حدود السودان لتصل إلى مشارف شمال أفريقيا والمغرب وكذلك كان شيوخ المسجد الجامع الكبير ومسجد سيدي يحيى[1] وكان هناك اتصال وثيق غير منقطع بين علماء جامعات ومعاهد تمبكت وجامعات المغرب الإسلامي بمراكش وتونس والجزائر وغيرها، وكان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تمبكت وغيرها من مدن السودان. كما كان علماء تمبكت كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون أو يتعلمون[2].

يتبع هذا البحث: أشهر العلماء الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرن الثامن والتاسع والعاشر الهجري.

---

(١) مسجد سيدي يحيى قبل بناء محمد نض الذي كان حاكم تمبكت من قبل سلطان الطوارق آنذاك أكل في الفترة التي حكمها الطوارق أواخر مملكة مالي الإسلامية ثم لما بنى محمد نض هذا المسجد عين صاحبه وحبيبه الفقيه العالم/ سيدي يحيى التادلسي المتوفى سنة ٨٦٦ هـ إماماً له. ثم بنى هذا المسجد ووسع في عهد السلطان أسكيا داود سنة ٩٧٦ هـ على يد القاضي العاقب بن محمود أقيت. انظر تاريخ السودان ص ٢٢ - ٢٣ وكثيراً ما عرف هذا المسجد بجامع محمد نض انظر نفس المرجع ص ٢١٥ - ٢٣٩ - ٢٥٦ وانظر لشهرة جامعة سنكري وأساتذتها العلاقات بين الثقافة العربية والثقافة الأفريقية ص ٦٧ المنظمة العربية للتربية والعلوم والفنون.

(٢) السعدي الفصل العاشر من ص ٣٩ إلى ص ٦١ في كل هذه الصفحات تحدث عن العلماء ورحلاتهم وقيامهم بالتدريس في السودان والشمال والمغرب والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص ٧١.

الفصل الثاني

أثر حج ملوك غرب إفريقيا في ازدهار الثقافة الإسلاميةواللغة العربية في أفريقيا الغربية من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الحادي عشر

يضم هذا الفصل العناصر التالية:

١ ـ الحج والبيت الحرام والمقصد الأول من تشريع العبادات.

٢ ـ الحج من أوضح العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً وشعوباً.

٣ ـ الحج: تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام.

٤ ـ في الحج نرى معنى الوحدة جلياً.

٥ ـ الحج: يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي.

٦ ـ أثر الحج في نفوس حجاج السودان الغربي ملوكاً وعلماء ورعايا.

٧ ـ حج ملوك السودان الغربي من أكبر العوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غربي أفريقيا.

٨ ـ أشهر ملوك غرب إفريقيا الذين كان لحجهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية واللغة العربية في غربي أفريقيا.

٩ ـ أول من حج من ملوك السودان الغربي:

جورماندانا كوناتي والمسمى في المراجع العربية «برمندان أو برمندانة» ملك مالي سنة **٤٤٢** هـ.

١٠ ـ حج السلطان منسى ولي بن ماري جاطة.

١١ ـ حج السلطان: منسى موسى سنة **٧٢٤** هـ وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب أفريقيا.

١٢ ـ الطرق التي سلكها السلطان منسى موسى إلى الحج.

١٣ ـ استقبال الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر لمنسى موسى أثناء مروره بمصر.

١٤ ـ الأثر الذي تركه الذهب الذي أنفقه السلطان منسى موسى في مصر والحرمين.

١٥ ـ تدين السلطان منسى موسى وصفته أثناء إقامته بمصر كما وصفه المصريون.

١٦ ـ أثر حج منسى موسى في ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي (غرب أفريقيا).

١٧ ـ حج منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى سنة ٧٥٢ هـ/١٣٥١م وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية في غرب إفريقيا.

١٨ ـ أول من حج من ملوك امبراطورية سنغاي الإسلامية التي خلفت مالي من حكم السودان الغربي.

١٩ ـ حج أسكيا محمد بن أبي بكر ملك سنغاي وما أحدثه حجه في السودان الغربي والمشرق الإسلامي.

٢٠ ـ ما أنفقه من الذهب في الحرمين، وشراؤه العقارات والأراضي في مكة والمدينة وجعلها وقفاً على السودانيين.

٢٠ ـ المقارنة بين ما أنفقه منسى موسى وما أنفقه أسكيا محمد في الحج في الحرمين وأثره في تغيير الأحوال.

٢١ ـ فوائد حج أسكيا محمد وآثاره الديني والثقافي والسياسي والتنظيمي في غرب إفريقيا.

٢٢ ـ آثاره في مجال الدعوة والإصلاح ونشر الإسلام والجهاد في سبيل الله وتحقيق العدالة بين الناس.

٢٣ ـ نهاية حكم الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر وأثر ذلك على الأمبراطورية الإسلامية الواسعة التي تركها.

الفصل الثاني

أثر حج ملوك أفريقيا الغربية في ازدهار الثقافة الإسلاميةواللغة العربية في غرب أفريقيا

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين الذي أقسم الله به في كتابه. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الله رمزاً لتوحيده ووحدة المؤمنين به.

وهذا البيت هو أول بيت أقيم في الأرض لعبادة الله وحده سبحانه وتعالى، وبانيه هو الخليل إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام. وقد جعل الله من ذريتهما هذه الأمة المسلمة، واستجاب دعوتهما الخالصة وهما يقيمان قواعد البيت ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[1].

والمقصد الأول من تشريع العبادات هو الامتثال لله سبحانه

---

(١) سورة البقرة: الآية١٢٧ - ١٢٩.

وتعالى والوفاء بحقه، ومع ذلك فإن وراء العبادات آثاراً طيبة ومنافع جمة في حياة الفرد والجماعة.

والحج من العبادات المشتملة على الأمور التعبدية التي لا تعرف حكمتها معرفة تفصيلية على وجه التأكيد، إلا أنه من أوضح العبادات أثراً في حياة المسلمين أفراداً وشعوباً، وأثره عظيم في حياة المسلمين روحياً وعاطفياً وثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، وكيف لا وقد قال الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله...﴾[1].

وشعائر الحج وما لهم من أثر في النفس وقوة الجماعة، وما لها من إيحاء في الفكر والسلوك كل ذلك يترك أثره واضحاً في أعماق المسلم. فيعود من رحلته أصفى قلباً وأطهر مسلكاً وأقوى عزيمة على الخير وكلما كان حجه مبروراً خالصاً لله كان أثره في حياته المستقبلية أعمق أثراً.

والحج ثقافة وتدريب، فيه توسيع لأفق المسلم الثقافي ووصل له بالعالم من حوله.

كما أن فيه تدريباً عملياً للمسلم على ركوب المشقات ومفارقة الأهل والوطن والتضحية بالراحة والدعة في الحياة الرتيبة بين الأهل والأصحاب.

وحياة الحاج تنقل وارتحال، واعتماد على النفس، وبعد عن الترف والتكلف والتعقيد.

الحج: تدريب عملي للمسلم على المبادىء الإنسانية العليا التي جاء بها الإسلام فقد أراد الله لهذا الدين ألا تكون مبادئه وقيمه

---

(١) سورة الحج: الآية ٢٧ ـ ٢٨.

الاجتماعية مجرد شعارات أو نداءات، بل ربطها بعباداته، وشعائره ربطاً وثيقاً حتى تخط مجراها في عقل المسلم وقلبه فهماً وشعوراً، وفي حياته سلوكاً وتطبيقاً. وفي الحج نرى معنى المساواة في أجلى صورة وأتمها، فجميع الحجاج قد أطرحوا الملابس والأزياء المزخرفة التي تختلف باختلاف الأقطار، واختلاف الطبقات، والقدرات، واختلاف الأذواق، ولبسوا جميعاً لباساً واحداً بسيطاً أشبه ما يكون بأكفان الموتى.

وفي الحج أيضاً نرى معنى الوحدة جلياً: وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول. لا إقليمية، ولا عنصرية، ولا عصبية للون أو جنس أو طبقة، إنما هم جميعاً مسلمون رب واحد، ويطوفون ببيت واحد، ويقرأون كتاباً واحداً بلغة واحدة، ويتبعون رسولاً واحداً.

والحج يتيح للمسلم أن يشهد أعظم مؤتمر سنوي، مؤتمر لم يدع إليه ملك أو رئيس أو حكومة أو هيئة. بل دعا إليه الله العلي الكبير الذي فرض إقامته في كل عام على المسلمين.

فهناك يجد المسلم إخواناً له من قارات الدنيا، اختلفت أقاليمهم، واختلفت ألوانهم، واختلفت لغاتهم، جمعتهم رابطة الإيمان والإسلام.

إن هذا المؤتمر له أكثر من معنى، إنه يحيي في المسلم الأمل ويطرد عنه عوامل اليأس، ويشحذ العزم ويسمو به. وفي هذا المؤتمر يلتقي رجال العلم، ورجال الثقافة، ورجال الأدب، ورجال الدعوة والإصلاح، ورجال السياسة، فما أجدرهم - وقد التقوا على هدف واحد - أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا ويتدارسوا العلم ويلتقي رجال السياسة بالعلماء وطلبة العلم.

أثر الحج في نفوس حجاج غرب أفريقيا

وقد أثر الحج تأثيراً كبيراً في نفوس حجاج غربي أفريقيا ملوكاً وعلماءً فظهر أثره في سلوكهم وفي حياتهم العملية والعلمية والثقافية والسياسية.

وأدى حجهم دوراً كبيراً في توطيد العلاقات الثقافية والسياسية بين الممالك الإسلامية في السودان الغربي من جهة ودول المشرق الإسلامي من جهة أخرى، وغالباً ما تترك قوافل الحجاج بصماتها الثقافية والاجتماعية على البلاد التي تمر بها كمصر، وطرابلس والحرمين الشريفين.

وقد أتاحت رحلات الحج الفرص لحكام وسكان بلاد السودان الغربي التعرف على أوجه النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية في تلك البلاد التي يمرون بها ونتج عن ذلك إقامة علاقات ثقافية وطيدة بين مصر وبلاد السودان الغربي (إفريقيا الغربية) حيث قام بعض ملوك السودان أثناء ذهابه وإيابه من الحج بتأسيس مدرسة عريقة كانت تعرف بمدرسة ابن رشيق تقوم بمهام تعليم الطلاب الوافدين إلى مصر من بلاد السودان الغربي، ويقول المقريزي أثناء سرده المعلومات عن هذه المدرسة التي تم تأسيسها منذ القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي يقول: إن المدرسة تخصصت في تدريس الفقه على المذهب المالكي الذي كان سائداً - ولا يزال - في السودان الغربي. وكان ملوك السودان الذين جاءوا إلى القاهرة في طريقهم إلى الحج قد أعطوا القاضي علم الدين ابن رشيق مبلغاً من المال ليقوم ببناء المدرسة، ثم جلس يعلم فيها فأطلق عليها اسمه.

وتذكر بعض الروايات السودانية أن المدرسة كسبت شهرة عظيمة في بلاد السودان وتوافد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء إفريقيا الغربية، واستمرت المدرسة في تلقي الإعانات من أهالي وأمراء تلك البلاد.

وقد ربط ملوك السودان الغربي ـ أفريقيا الغربية ـ أنفسهم بالبلاد الإسلامية الأخرى، وكانت مواسم الحج ـ بحق ـ تشبه بعثات علمية لهؤلاء الملوك ومن حولهم، فمن خلال رحلاتهم إلى الحج يطلعون على الجديد من أساليب الحكم والحياة العلمية ثم يعودون فيطبقونها بحب وبحماسة.

حج ملوك السودان الغربي من أكبر العوامل التي ساهمت في انتشار اللغة العربية والثقافة الإسلامية في غربي أفريقيا:

كان الحج وما زال من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرصة الالتقاء والتبادل الفكري والثقافي. وقد حرص سلاطين الدول الإسلامية في غرب أفريقيا وشعوبها على أداء هذه الفريضة رغم ما كانوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق ووعورته. وكانت هناك طرق معروفة في تلك الأزمنة تطرقها قوافل الحجاج:

١ ـ منها طريق صوب الشمال ـ عبر الصحراء الكبرى إلى ساحل البحر المتوسط، ثم الاتجاه شرقاً تجاه مصر عبر البحر الأحمر إلى الحجاز.

وبعض القبائل ـ وبخاصة قبائل هوسا ـ كانت تفضل طريق غاو ـ تمبكو ـ غات ـ غدامس ـ طرابلس، لأنه كان آمناً، كما كان يتيح لهم الفرصة للتجارة في أثناء الطريق. على أن الموكب الصحراوي لشعوب غرب أفريقيا الذي كان يفضل الطريق الشمالي للحج ـ عادة يذهب بمعية الوفد المغربي عبر الشمال الإفريقي وليبيا ومصر، وكانت هذه فرصة نادرة للاندماج والتعارف.

٢ ـ منها طريق صوب الشرق ـ إلى سودان وادي النيل، ثم ساحل البحر الأحمر فالحجاز، وهذا الطريق فيه عثرات لم يكن مأموناً، فقد كان المسافر فيه يتعرض للنهب بالإضافة إلى الحروب الداخلية والاضطرابات، إلا أنه بعد ظهور الاستعمار الغربي في أفريقيا أصبح الطريق الوحيد لحجاج غرب أفريقيا ووسطها.

أشهر ملوك غرب أفريقيا الذين كان لحجهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافة الإسلامية واللغة العربية في غرب أفريقيا:

أول من حج من ملوك مالي:

جورماندانا كوناتي، والمسمى في المراجع العربية «برمندان، أو برمندانة» وكان حجه سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠م فاقتفى أثره في الحج من أتى بعده من ملوك مالي وسنغاي.

لم تذكر المصادر التي اطلعت عليها أثراً كبيراً لحج هذا الملك إلا أن أثره الكبير ظهر في اقتفاء سنته في الحج من أتى بعده من ملوك السودان. ولم يكن الملك يحج وحده، بل كان يصحب معه حاشيته وكبار رجال دولته وأعيان علماء مملكته، فضلاً عن خدمه وحشمه وحراسه[(١)]. ولم يكن الحج عند هؤلاء الملوك مجرد مناسك يؤدونها بل كان يتلقون فيها ألواناً من التعليم والثقافة الإسلامية ويصححون عقيدتهم وفهمهم للإسلام[(٢)].

حج السلطان منسى[(٣)] ولي بن ماري جاطة:

وهذا الملك من أعظم ملوك مالي. وقد حج أيام الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر. وكان الظاهر بيبرس قد تلقى في القاهرة رسالة تقول: إن موكب منسا ولي إلى الحج سيصل إلى القاهرة في موسم الحج، وقد احتشدت القاهرة لرؤية الموكب الذي لم يكن لها عهد به من قبل هؤلاء الملوك الإفريقيين الذين كانوا يأخذون طريقهم في جلال عميق إلى حج بيت الله الحرام.

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٧ وما بعدها.

(٢) انظر مسالك الأبصار في ممالك لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩هـ من الجزء الخاص ببلاد مالي الباب العاشر. وانظر أيضاً صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٦ للقلقشندي.

(٣) معنى (منسى) بلغتهم السلطان أو الملك. ومعنى (ولي) علي. انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٣.

وقد رحب الظاهر بيبرس بسلطان مالي منسى ولي أجمل ترحيب واستقبله بما يليق به، وأنزله في قصره معززاً مكرماً[1].

وأما موكب الحج الذي أحدث دوياً في المشرق الإسلامي وأوروبا، من مواكب حج ملوك مالي. وأطنب المؤرخون في ذكره والإشادة به فهو الموكب الذي كان يقوده السلطان منسى موسى الذي مر بالقاهرة في عهد السلطان: الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر[2] كما سيأتي.

حج السلطان منسى موسى سنة ٧٢٤ هـ وأثر حجه في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب أفريقيا:

من أشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين من غرب أفريقيا التي سجلها التاريخ وفد الحجاج الذي كان على رأسه السلطان منسى موسى سلطان مالي، وقد أطنب المؤرخون في ذكر موكب حجه الذي كان في سنة ٧٢٤ هـ وهي السنة السابعة عشرة من حكمه وقد صحبه في حجه ذلك جحافل من أتباعه من أهل وانجارا وولاتا، وتوات وغيرهم من أهل مملكته من العلماء والأعيان، فانتشرت شهرة مالي إلى أوروبا والشرق الأدنى، وذلك بسبب قيامه بالحج إلى مكة والعظمة التي

---

(١) انظر صبح الأعشى للقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٣ والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك للمقريزي ص ١١٠.
ومع حركة الإسلام في أفريقيا. دراسة من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ص ١٥٨.

(٢) كان حج ملوك السودان الغربي يتم مروراً بشمال أفريقيا فالقاهرة ففلسطين لزيارة البيت المقدس. وكان من ملوك مالي الذين حجوا الملك ساكبورة الذي حج ورجع فقتل في إثر عودته، وصف بأنه كان من أعظم ملوك مالي، قوي سلطانه وهابه أمم السودان وفتح بلاداً كثيراً وضمها إلى مملكته. الذهب المسبوك ص ١١١ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٤ وقال إن حجه كان في أيام الملك الناصر «محمد بن قلاوون».

لازمته في رحلته إذا ارتفع اسم هذا السلطان إلى الذروة في القاهرة والمدن الأخرى التي شهدت مرور قافلته الفخمة، حتى أصبح اسمه شهيراً في جزء كبير من العالم المتمدين في ذلك الوقت[1].

الطرق التي سلكها السلطان: منسى موسى إلى الحج:

إن الصورة التي رسمها المؤرخون المسلمون لقافلة حج منسى موسى ملك مالي تعتبر في حد ذاتها وثيقة شرف لدولة مالي في عهد هذا الملك العظيم العادل. وعند تحرك موكبه للحج اتجه صوب الشمال عبر ولاته وتوات. وأخذ معه ستين ألف رجل، وخمسمائة عبد يمسك كل واحد منهم بقضيب من الذهب الخالص[2]. وقيست قافلته بالأميال، وصحب معه أربعين بغلة محملة بالذهب، وأما زوجته (إيناري فكانت مرفقة بخمسمائة وصيفة ووجه السلطان منسى موسى رسالة إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان بن يعقوب يخبره فيها بأن قافلته ستمر من الطريق الأمبراطوري المحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط[3] ثم تتبع شاطىء سرتس الذي كان يمد تجار أجزاء كثيرة

---

(١) اظر الاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصري ص ١٠١. وتاريخ السودان ص ٦ ـ ٧ وتاريخ الفتاش لمحمود كعت ص ٣٣ ورحلة ابن بطوطة ص ٦٩٢، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ص ٥٩ وما بعدها من الباب العاشر الخاص بمملكة مالي، وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٦ وما بعدها.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ٦ و ٧ وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ٣٣.

(٣) المصادر السابقة وابن خلدون ـ كتاب العبر مجلد ٧ ص ٢٣٦، والغربي ص ٤٨. وكان بين دولة مالي والدولة المرينية في المغرب علاقة ود وحسن جوار وكان بين منسى موسى سلطان مالي وأبي الحسن وأبي سعيد من سلاطين الدولة المرينية علاقة وثيقة من المهاداة والمواصلة كما أن سلطان ماري جاطة سلطان مالي التي كان قبل منس موسى بينه وبين الدولة المرينية علاقة وثيقة فقد هادى السلطان أبا سالم المريني وأغدق عليه بالزرافة. انظر دول المغرب الأقصى للناصري ص ١٠١. وكما كان بين دولة الموحدين في المغرب ودولة مالي علاقات تجارية وثيقة. انظر النبوغ المغربي في الأدب العربي ج ٢ ص ١٦. والغربي ص ٤٤.

من أوروبا بتجارة أفريقيا ـ فكان ذلك فرصة ليشهدوا العظمة التي لازمته، حيث كان يمتطي جواداً يتقدمة خمسمائة رقيق كل منهم يحمل كتلة من الذهب تزن خمسمائة مثقال. وكان يمشي محروساً بخمسة رجال يحملون أسلحة من الذهب الخالص[1]. فأصدر السلطان المغربي أوامره بحراسة موكب السلطان المالي أثناء اجتيازه الصحراء. ولبست المملكة المغربية حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب. الذي أحاطت به مظاهر الأبهة والبذخ وحمل السلطان منسى موسى معه أحمالاً من الهدايا قدمت إلى الحضرة (بفاس) تركت آثارها في نفوس المغاربة الذين كانوا ينظرون إلى القادمين نظرة احترام وتقدير. وعندما انطلق الموكب من (فاس) إلى تلمسان صحبته كوكبة من الخيالة المغاربة الذين كانوا يحملون أوامر بمضاعفة مظاهر الحفاوة عند مرور قافلته (ببجاية وتخوم تونس). وحل الموكب بمصر حيث وجد السلطان منسى موسى عاهل الجركس صاحب مصر يفاتحه في موضوع إقامة صلات تجارية وسياسية بين البلدين يجب إخفاء أمرها عن المغرب الصديق الأول لمالي، ولكن الحديث بين الملكين بلغ (فاس). فأكد منسى موسى بعد عودته لملك المغرب بأن الحلف الذي سبق عقده بين المملكتين لن يتأثر بذلك[2].

وذكر ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والقلقشندي في صبح الأعشى أن السلطان منسى موسى نزل أرض مصر في عدد وفير من أهالي مالي يقدرون بالآلاف في موكب عظيم مهيب[3].

---

(١) المصادر السابقة والممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٢) العمري: مسالك الأبصار ص ٩٤٣ وما بعدها والمصادر السابقة أيضاً. وابن الوردي: ذيل المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٢٧٥.

(٣) العمري ص ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ والقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٥. المقريزي ص ١١٢ ـ ١١٣.

استقبال الناصر محمد بن قلاوون لمنسى موسى:

ذكر صاحب مسالك الأبصار أن الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكي (المهمندار)[1] قال: (لما خرجت لملتقاه، أعني من جهة السلطان الأعظم (الكلام للمهمندار) الملك الناصر، أكرمني إكراماً بليغاً، وعاملني بأجمل الآداب ولكنه كان لا يحدثني إلا بترجمان، مع إجادة معرفته للتكلم باللسان العربي. ثم إنه قدم للخزانة السلطانية حُملاً كثيرة من الذهب المعدني الذي لم يصنع وغير ذلك. وحاولته أن يطلع إلى القلعة ويجتمع بالسلطان فأبى علي وامتنع وقال: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر وما أريد أخلط حجي بغيره، وشرع في الاحتجاج بهذا، وأنا أفهم أنه يرى الحضور نقصاً عليه، لما يضطره إليه من تقبيل الأرض أو اليد، وبقيت أحاوله وهو يتعلل ويعتذر والمراسم السطانية تتقاضاني في إحضاره، فما زلت به حتى وافق، فلما حضر إلى حضرة السلطان قلت له قبل الأرض فتوقف وأبا إباءً ظاهراً، وقال: كيف يجوز هذا[2].

وقال الترجمان: «أنا مالكي المذهب، ولا أسجد لغير الله»، فأعفاه السلطان من ذلك، وقربه وأكرمه، وسأله عن سبب مجيئه، فقال: «أردت الحج» فرسم للوزير أن يجهزه بكل ما يحتاج إليه[3].

أثر الذهب الذي أنفقه السلطان منسى موسى في مصر والحرمين:

ذكر ابن فضل الله العمري والقلقشندي وابن كثير في البداية والنهاية وكذلك السعدي في تاريخ السودان أن منسى موسى وأصحابه

---

(١) المهمندار كلمة فارسية معناها ضيف دار. ومهمته تلقي الرسل والوفود الواردين إلى السلطان وإنزالهم بدور الضيافة.

(٢) انظر مسالك الأبصار ص ٧١ ـ ٧٢ . ٧٣ من الجزء الخاص بأفريقيا. والقلقشندي ج ٥ ص ٢٩٥ وما بعدهالا والذهب المسبوك ص ١١٢.

(٣) الذهب المسبوك مع المصادر السابقة وتاريخ السودان للسعدي ص ٧ ـ ٨.

أنفقوا في كل من مصر والحرمين من الذهب ما جعل سعر الذهب ينزل بمقدار درهمين في كل مثقال[1].

وإليك ما ذكره العمري في مسالك الأبصار:

قال: قال المهمندار: (ولقد أفاض هذا الرجل، بمصر فيض الإحسان، ولم يدع أميراً مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجميله من الذهب، ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والأخذ والعطاء مالا يحصى وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره وأرخصوا سعره. قلت: (والكلام للعمري): ولقد صدق المهمندار فإنه حكى مثل هذا غير واحد، ولما مات المهمندار وجد الديوان فيما خلفه آلافاً من الذهب المعدني مما أعطاه له باقياً على حاله في ترابه لم يصنع.

وحدثني خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم[2] فإن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الثوب أو الإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً، وكانوا في غاية سلامة الصدور والطمأنينة تجوز عليهم مهما جوز عليهم. ويأخذون كل قول يقال لهم بالقبول والصدق، ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الإساءة لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول وفي تراجحهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين، وقال لهم إنه

---

(١) في البداية والنهاية: أن سعر الذهب نزل بمقدار درهمين في كل مثقال). وجاء في الذهب المسبوك للمقريزي: (فأقبل أصحابه على شراء الجواري من الترك والحبوش والمغنيات والثياب، فانحط سعر الدينار الذهب ستة دراهم).

(٢) وصل العمري إلى القاهرة بعد زيارة ملك مالي منسى موسى باثنتي عشرة سنة فوجد أن الناس لا يزالون يشيدون بمدحه وكرمه. فصغار الموظفين الذين كثيراً ما يتكالبون على الأغنياء، يذكرون هداياه من الذهب الذي حمله معه، إذ كان ٨٠ ـ ١٠٠ جملاً يحمل كل منها ثلاثة قناطير (٣٠٠) رطلاً.

مصري امتهنوه وأساءوا به الظن لما رأوا من سوء معاملتهم لهم[1].

وحدثني (الكلام للعمري) مهنا بن عبد الباقي العجرمي الدليل، أنه كان في صحبة السلطان موسى لما حج، وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الإحسان، وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومن معه وتصدق بمال كثير، قال: ونابني منه نحو مئتي مثقال من الذهب، وأعطى رفاقي حملاً أخرى، وبالغ مهنا في وصف ما رآه منه من الكرم وسعة النفس ورفاهية الحال)[2]. قلت: (القائل العمري): (ولقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاءوا إليها في تلك السنة[3]، كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهماً، وما زاد عليها، فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره واستمر على الرخص إلى الآن[4] لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهماً وما دونها، هذا من مدة تقارب اثنتي عشرة سنة إلى الآن لكثرة ما جلبوه من الذهب إلى مصر وأنفقوه بها. وقد كان بلغني أول قدومي مصر وإقامتي بها حديث وصول هذا السلطان (موسى) حاجاً، ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم، فسألت الأمير أبا العباس أحمد بن الجاكي المهمندار رحمة الله عليه عنه فذكر ما كان عليه هذا

---

(١) وكانت ملابس النساء الرقيقة والجواري من التركيات والحبوش هي أشد ما أعجبهم، وحدث ولا حرج عن تبذير السودانيين وكرم ملكهم الهائل. فكان أن طرح ذهب كثير في السوق إلى حد أن هبطت قيمته هبوطاً شديداً. ولم يستعد الذهب سعره الأول إلى وقت قدوم العمري إلى القاهرة. ولم يقتصر توزيع منسا موسى لذهبه وثروته على القاهرة بل كان ينثر أينما ذهب وفي الحرمين استفاضت هداياه التي دلت على الكرم.،

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص ٧٣.

(٣) سنة ٧٢٤ هـ.

(٤) أي سنة ٧٣٦ هـ إذ كان حج السلطان منسى موسى سنة ٧٢٤ هـ وقدوم العمري إلى مصر كان في سنة ٧٣٦هـ بعد مضي اثنتي عشرة سنة من حج منسى موسى ومروره بمصر أثناء ذهابه إلى الحج وعودته منه.

السلطان من سعة الحال والمروءة والديانة)[1].

ما ذكر عن تدين السلطان منسى موسى ومرافقيه أثناء إقامتهم بمصر:

حكى العمري في مسالك الأبصار عن ابن أمير حاجب أنه قال: (ولقد كان هذا السلطان مدة مقامه بمصر قبل توجهه إلى الحجاز الشريف وبعده على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، وكان هو ومن معه على مثل هذا مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار، وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر.

خرج من بلده بمائة وسق حمل من الذهب، أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر ثم بمصر ثم من مصر إلى الحجاز الشريف في التوجه والعود حتى احتاج إلى القرض فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم بحيث جعل لهم في ثلاثمائة دينار سبعمائة دينار ربحاً، ثم بعثها إليهم بالراجح. قال ابن أمير حاجب: (وبعث لي خمسمائة مثقال ذهباً على سبيل الإنتقاد).
قال ابن أمير حاجب: (ورأيت هذا السلطان (موسى) محباً للخير وأهله، وترك مملكته واستناب بها ولده محمداً، وهاجر إلى الله ورسوله فأدى فريضة الحج فزار النبي ﷺ، وعاد إلى بلاده على أنه يقرر لابنه الملك ويتركه له بالكلية ويعود إلى مكة المعظمة ويقيم مجاوراً بها فأتاه أجله رحمه الله تعالى)[2].

---

(١) العمري - مسالك الأبصار ص ٧١ - ٧٣ - ٧٤.

(٢) توفي منسى موسى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م وترك وراءه أمبراطورية عظيمة اشتهرت باتساع رقعتها وثروتها وقوتها وأمنها ورخائها واستقرارها وازدهارها الاقتصادي والثقافي ما يعطي مثلاً قوياً لقدرة الأفارقة على التنظيم السياسي والاقتصادي.

وهناك الكثير من الأدلة على ما اكتسبته مالي في تلك الأيام وحاكمها العظيم -

انتهى ما حكاه العمري في المسالك عن أبي أمير الحاجب ص ٦٩ ـ ٧٠.

أثر حج منسي موسى في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا:

ومن آثار حجه أن ازدهرت الحركة العلمية والثقافية حيث استقدم السلطان منسى موسى إلى مملكته المترامية الأطراف كثيراً من العلماء والفقهاء والأدباء من جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة من الحجاز ومصر وشمال إفريقيا.

فأحضر معه من الحجاز شاعر الأندلس المهندس المعماري أبا إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف في بلاد الأندلس الطونجن وقد اتصل به موسى بمكة، وظل يتابعه حتى دخل خدمته، وكان أول عمل أوكله إليه بناء مسجد غاو والمسجد الجامع بتمبكتو كما شيد له قصراً في مدينة تمبكتو. وهو أول من أدخل الفن المعماري الأندلسي إلى مالي. وقد توفي بمدينة تمبكتو[١].

= (موسى) من الشهرة والعز والمجد أثناء حكمه، توجد (في خريطة العالم) التي رسمها راسموا الخرائط الأوروبيون حين كانوا للمرة الأولى يحاولون أولى محاولاتهم ليصوروا داخل إفريقيا. فمن أوائل المصادر التي أشارت إلى مالي وملكها موسى (خريطة العالم) التي رسمها أنجيلينود ولسرت الميورقي، وهي مؤرخة في سنة ١٣٣٩ م أي بعد سبع سنوات فقط من موت منسى موسى. فقد وضع في وسط الصحراء الغربية عرشاً عليه تمثال كساه بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج من ذهب وذكر أنه ملك مالي. وبدأ راسموا الخرائط يثيرون التساؤلات عن منسى موسى. وفي الأطلس الذي رسم أيام شارب الخامس سنة ١٣٧٥ م أظهر في وسط الصحراء رجلاً ملثماً راكباً جملاً متجهاً إلى ملك جالس على عرش لابساً ملابس ملكية وتاجاً ممسكاً بالصولجان في إحدى يديه والصاجات الذهبية في اليد الأخرى، وهو يناولها إلى الراكب. وقد كتب تحت هذا الملك (منسى موسى) ملك الزنوج في غانة والذهب كثير في مملكته إلى حد أنه أصبح أغنى وأنبل ملك في العالم.

(١) العبر ج ٦ ص ٢٠٠ ورحلة ابن بطوطة ٦٩٢ ـ ٢٩٤.

ومن العلماء الذين استقدمهم معه من الحجاز: القاضي أبا العباس الكالي، والقاضي عبدالرحمن التميمي الذي سكن في مدينة تمبكتو فوجدها حافلة بالفقهاء السودانيين تفوقوا عليه في الفقه مما اضطره إلى السفر إلى فاس ليتتلمذ على فقهاء المالكية فيها ثم عاد إلى مدينة تمبكتو وأقام بها قاضياً ومعلماً حتى توفي فيها[1]. كما قدم معه إلى مالي عدد من تجار مصر، واستقدم من المغرب عدداً كبيراً من العلماء وبعضهم تولى إمامة المسجد الجامع الكبير في تمبكتو الذي بناه موسى.

واشترى كثيراً من الكتب في التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والثقافة وفي بعض العلوم التي ظهرت في مصر اشتراها من مصر والحجاز والمغرب أثناء حجه كما جلب عدداً كبيراً من الكتب من الأندلس[2]. وأصبحت في امبراطوريته الواسعة مدن ازدهرت واشتهرت بالعلم والثقافة الإسلامية وأصبحت مراكز علم وثقافة في أفريقيا الغربية بالإضافة إلى الثروة التجارية الهائلة التي اشتهرت بها تلك المدن. وأصبحت اللغة العربية هي لغة الثقافة والتعامل التجاري في أفريقيا الغربية كلها كما ذكر ذلك السعدي والقاضي محمود كعت والعمري والقلقشندي وغيرهم.

حج منسى سليمان بن أبي بكر شقيق منسى موسى سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١م وأثره في ازدهار العلم في غرب أفريقيا:

من أشهر ملوك مالي الذي حج بعد منسى موسى: منسى سلمان وقد زاره ابن بطوطة بعد حجه سنة ٧٥٣هـ أثناء طوافه ببلاد السودان، وقد قام بعد حجه ـ كما ذكره العمري وغيره ـ بجلب العلماء والفقهاء

(١) تاريخ السودان ص ٥١.

(٢) تاريخ السودان ص ٥٧.

من مذهب الإمام مالك إلى بلاده وتفقه هو نفسه في الدين وكان يبني المساجد والجوامع في كل مكان نزل فيه. وذكر العمري في المسالك والسعدي في تاريخ السودان، أنه بنى المساجد والجوامع والمنارات، وأقام به الجمع والجماعات والأذان، وجلب العلماء والفقهاء من مذهب الإمام مالك إلى بلاده، وتفقه في الدين[١].

وقد بلغ من كثرة العلماء الذين استقدموا أن كونوا أحياء خاصة بهم في مدن مملكته مالي الواسعة وقراها، فقد قال ابن بطوطة الذي زار مالي سنة **٧٥٣ ـ ٧٥٤**هـ: «وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجزولي من قبيلة جزولة وشمس الدين بن النقويش المصري. . . فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك مالي. . . ووصلت إلى محلة البيضان».

وذكر أن البيض كان لهم حي خاص لسكناهم ومسجد خاص بهم في مدينة كوكو (غاو حالياً)، وأن إمامه ـ خلال رحلته ـ كان اسمه الفقيه محمد الفيلالي. وقال أيضاً: «قرية زاغري، وهي قرية يسكنها تجار السودان، ويسمون ونجراته، ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج. ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم (توري)».

وهذا كله يظهر الأثر الذي أحدثه حج هؤلاء الملوك في السودان الغربي من ازدهار ثقافي عظيم لقيامهم أثناء رحلتهم تلك باستقدام العلماء والفقهاء وإنشاء مراكز علمية وثقافية في مدن السودان الغربي، وما زال دور تلك المراكز الحضاري الحقيقي لم يكشف النقاب عنه كاملاً حتى الآن.

وقد كانت شهرة الملك منسى موسى وموكب حجه العظيم الذي

---

(١) العمري ص **٥٩ ـ ٦٠** والقلقشندي ج **٥** ص **٢٩٧** وتاريخ السودان ص **٥٧**.

بهر أوروبا حافزاً قوياً لدفع أوروبا على التفكير الجدي في معرفة قلب أفريقيا والوصول إليه حيث الذهب والغنى والثروات الهائلة وقد وضح هذا في خرائط العالم التي صدرت في أوروبا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، وكان هذا التفكير وهذه المحاولة بجوانب عوامل أوروبية أخرى، هي التي انتهت بحركة الكشف الجغرافي وما أعقبها من حركة استعمارية كبرى في أفريقيا.

أول من حج من ملوك امبراطورية سنغاي الإسلامية:

كان أول ملك من ملوك سنغاي قام برحلة إلى الحج هو الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر الذي اعتلى عرش امبراطورية سنغاي سنة **٨٩٨**هـ الموافق **١٤٩٢**م بعد موت سني على ملك سنغاي وقتل ابنه سني بارو الذي تولى العرش بعد موت أبيه، ولكن أسكيا محمد الذي كان ضابطاً بارزاً من ضباط جيش سنغاي في أيام سنى على ثار بمجرد موت سني علي وتولى ابنه فاعتلى عرش سنغاي.

وبما أنه اعتلى عرش سنغاي بقوة السلاح ولم يكن من أبناء سلاطين سنغاي أسرع إلى الحج سنة **٩٠٢**[١] **١٤٩٧** م ليؤدي فريضة الحج. ولعله أراد أيضاً إضفاء صفة الشرعية على حكمه، وأخذ تفويض بحكم السودان الغربي من الخليفة العباس بالقاهرة. بعد أن ورثت القاهرة بغداد في مركزها الديني والسياسي والثقافي. وأضحت حامية بلاد الخلافة الإسلامية منذ تم إحياء الخلافة العباسية فيها سنة **٦٥٩ هـ/١٢٦١**م.

وقد حرص أسكيا محمد على أن يأخذ معه إلى الحج جمعاً

---

(١) انظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعتب ص ١٦ وهو من العلماء الذين حجوا معه ومن القضاة المقربين إلى أسكيا. وانظر أيضاً تاريخ السودان للسعدي ص ١٥ - ١٦.

كبيراً من العلماء وأعيان مملكته وبعض رجال حكومته ليظهر بذلك أمام العامة في سنغاي في مظهر الملك الصالح القوي.

وكان أسكيا فعلاً يتحلى بصفات طيبة جعلته جديراً بالمركز الذي اغتصبه. إذ كان ذا كفاءة في التنظيم السياسي تفوق كفاءة سني علي. ميالاً إلى الدين والعلم ومحباً للعلماء ومحسناً إلى الفقراء تلك صفات لم تعرف يوماً في الحكام الذين كانوا قبله.

أما جملة من كان معه في رحلته تلك إلى الحج من الجنود والعبيد والدواب التي كانت تحمل الأمتعة والذهب، فقد كانت على غاية كبيرة من الضخامة التي وصل صداها جميع بلاد سنغاي. وفي كل بلد يمر به كان يستأذن في الدخول من أميرها، ثم ينفق بسخاء لم تعرف تلك البلدان مثله.

فقد ضم موكبه ألف وخمسمائة جندي: خمسمائة فارس وألف راجل. وحمل معه ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب الخالص، أخذها من الكنوز التي تركها سني علي.

وقد أنفق أسكيا محمد في حجه كل هذا المبلغ وقسمه أثلاثاً فخصص ثلثه ـ مائة ألف ـ للمنشئات الخيرية في الأماكن المقدسة فاشترى منها عقارات وأراضي زراعية في المدينة وبيوتاً في مكة وأوقفها على الحجاج القادمين من السودان الغربي من مملكته سنغاي والمقيمين منهم في الحرمين[1]. وما زالت أوقاف المدينة قائمة إلى

---

(١) إذا أردت تفصيلاً دقيقاً لأوقاف أسكيا محمد في المدينة ومكة ونفقاته فيهما فانظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت الذي رافقه في حجه وشاهد كل ما عمله أسكيا في حجه، وأيضاً انظر تاريخ السودان للسعدي التنبكتي فإنه تكلم عن ذلك بالتفصيل ولا تزال أوقافه في المدينة قائمة إلى يومنا هذا وقد خصصت أخيراً لبعض الماليين بالمدينة القادمين من مناطق معينة من مالي ومن قبيلة معينة وأما أوقافه في مكة فقد دخلت في توسعات الحرم عبر العهود.

هذا اليوم. وكان أسكيا محمد قد أوقف هذه الأوقاف من بيوت وأراض ليأوي إليها حجيج بلاد السودان الغربي ولينفق من ريعها على المقيمين منهم لطلب العلم.

كما أنفق من هذا الثلث مبلغاً كبيراً كصدقات على فقراء مكة والمدينة.

وخصص الثلث الثاني - مائة ألف - لتكاليف سفره مع حاشيته وأما الثلث الثالث - مائة ألف - فقد أنفقها في شراء حاجات وهدايا من أسواق مكة والمدينة والقاهرة[١].

إذا أجرينا مقارنة بين ما أنفقه منسى موسى في حجه وما أنفقه أسكيا محمد نجد فرقاً كبيراً بينهما. فقد أنفق منسى موسى الذي حج قبل أسكيا بثمان وسبعين ومائة سنة ثلاثين ألف قطعة ذهب فقط، أي أن نفقات أسكيا محمد في حجه زادت عن نفقات منسى موسى بمقدار تسعين بالمائة، ومع ذلك ذكر المؤرخون - كما تقدم - في ذلك العهد أن سعر الذهب كان قد نزل بأسواق القاهرة والحرمين لكثرة ما أنفق منه فيها موسى بمقدار ستة بالمائة.

ومع أن ما أنفقه أسكيا محمد ملك سنغاي أكثر مما أنفقه منسى موسى ملك مالي بتسعين بالمائة، ورحلته أيضاً قد نظمت على نطاق يمكن مقارنته برحلة منسى موسى أو تفوقه مع ذلك كله لم يثر نفسه الانتباه في الشرق الأوسط وأوروبا. ولم تجذب انتباه أحد كثيراً كما حصل في موكب موسى ويرجع ذلك إلى الأسباب الآتية:

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ وما بعدها وتاريخ السودان ص ٧٢ وللاطلاع على مدى الأثر الذي أحدثته كثرة النفقات التي كان ينفقها ملوك السودان الغربي - أفريقيا الغربية - في المشرق الإسلامي أثناء حجهم؛ وخاصة منسى موسى وأسكيا محمد منهم يراجع المصدران السابقان. وابن فضل الله العمري، وابن إياس والمقريزي بشكل خاص.

١ ـ أن أسكيا محمد أكثر من منسى موسى استقامة في الدين وأفقه منه لأحكام الشريعة الإسلامية لذلك كان إنفاقه معتدلاً خالياً من التبذير وكانت نفقاته في وجوه البر فقط.

٢ ـ إن أسكيا محمد أقل من منسى موسى اندفاعاً لفقهه بأحكام الدين.

٣ ـ قد يكون أهل المشرق الإسلامي قد اعتادوا ذلك من ملوك السودان الغربي فلم يعد ذلك يثيرهم لكثرة اعتيادهم له. وقد بلغ أسكيا محمد بنفقاته هذه ومن الأبهة التي أراد أن يظهر بها في المشرق كل أهدافه فاستقبل في القاهرة استقبالاً رسمياً حافلاً.

أما في مكة فقد قلده شريفها بردة وعمامة وسيفاً، ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم خلالها من آخر الأمراء العباسيين ـ الخليفة العباسي ـ لقب الخليفة الأول على بلاد السودان. وكان أسكيا محمد سأله هذا اللقب أثناء مقابلة له في الحجاز. وبذلك تم تتويجه من قبل الخليفة العباسي المتوكل خليفة له على السودان الغربي كله. فكان بذلك خليفة صحيحاً في الإسلام. وهكذا عاد أسكيا إلى عاصمة دولته (غاو) وقد حصل على جميع الاعتبارات الأدبية لاستمراره في الحكم ملكاً على سنغاي عن جدارة واستحقاق. وقد اكتملت له تلك الاعتبارات في أعين رعاياه.

فوائد حج أسكيا محمد بن أبي بكر وآثاره الديني والثقافي والسياسي في غرب أفريقيا:

استفاد أسكيا من رحلة حجه بفوائد دينية وعلمية كثيرة غيرت حياته السياسية.

من تلك الفوائد:

أولاً: أنه قد التقى بكبار العلماء في مصر والحجاز وأخذ عنهم السياسة الشرعية في الحكم.

ففي مصر التقى بالإمام جلال الدين السيوطي فأخذ عنه وقدم له نصائح وتعليمات وإرشادات دينية وسياسية أدت دوراً كبيراً في تطوير التعليم وازدهار الثقافة الإسلامية في السودان الغربي وتنظيم القضاء فيه وكان أسكيا لا يخرج عن تعليمات السيوطي وتوجيهاته[1].

وفي مكة والمدينة التقى بكثير من العلماء وأخذ عنهم توجيهات وإرشادات في الحكم ووجوب تطبيق الشريعة الإسلامية في كل كبيرة وصغيرة. كما أنه اطلع على سير الخلفاء والملوك والممالك وأنظمتها في المشرق الإسلامي.

ثانياً: أن حجه هذا نفع كثيراً الحجاج السودانيين من غرب أفريقيا ومن أقام منهم في الحرمين لطلب العلم أو بصفة دائمة حيث اشترى لهم أراضي وبيوتاً وأوقفها عليهم يأوون إليها وينفقون عليهم من ريعها وهذه الأوقاف قد بارك الله فيها وانتفع بها كثير منهم ولا تزال تلك الأوقاف قائمة في المدينة إلى هذا اليوم يستفيد منها كثير من الماليين المقيمين في المدينة.

ثالثاً: أنه بعد عودته من الحج سنة **٩٠٣** هـ **١٤٩٨** م بدأ بإصلاحات هامة قام بتطبيق الشريعة الإسلامية في جميع الأمور فأقام ملة الإسلام وأصلح أمور الناس، ولازم العلماء واستفتاهم فيما يلزمه من أمر الحل والعقد، وأمر بإطلاق سراح الذين سجنهم من قبله وحرر كل من ادعى الحرية ممن استرقهم (الملك سنى علي) ورد كل مال غصبه إلى أصحابه. ونصب في كل مدينة وفي كل بلدة تستحق قاضٍ قاضياً من كنت إلى شبردك[2].

---

(١) لمعرفة قوة تأثير الإمام السيوطي في أسكيا محمد يراجع تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت الذي كان حاضراً لقاء أسكيا بالسيوطي وإرشاداته له. وتاريخ السودان للسعدي عما من أهم المصادر في حياة أسكيا ودولته.

(٢) انظر لما تقدم تاريخ الفتاش ص **٥٩** وما بعدها. وتاريخ السودان ص **٧٢** وما بعدها.

وعين الشيخ القاضي أبا البركات محمود بن عمر شيخاً للإسلام وقاضي القضاة في مدينة تنبكتو وجعل له السلطة العليا في أمور الدين.

بنى كثيراً من المراكز الإسلامية والمساجد ومعاهد العلم كمعهد سنكوري الديني وغيره في تنبكتو وغاو وجني وغيرها من مدن الأمبراطورية الواسعة، واشترى كثيراً من كتب العلم في مصر والحجاز وشمال أفريقيا وعزز بها المعاهد العلمية ومراكز الثقافة الإسلامية. واهتم اهتماماً شديداً بنشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية والعلوم والآداب. وأغدق على العلماء وطلبة العلم وشجعهم على العلم، وحرم على النساء الاختلاط والعرى، واهتم بالآداب العامة[(١)].

رابعاً: أفاد الحاج أسكيا محمد بن أبي بكر ما شاهده أثناء حجه وإقامته في المشرق - من أنظمة متقدمة في الحكم والإدارة، فنظم الجهاز الإداري لأمبراطوريته المترامية الأطراف. فأنشأ لأول مرة ما نسميه الهيئة التشريعية والتنفيذية والقضائية، لتحقيق الأمن والعدل والمساواة بين رعاياه[(٢)].

خامساً: في مجال الدعوة ونشر الإسلام والجهاد في سبيل الله. اهتم أسكيا بعد عودته من الحج بالجيش فأنشأ جيشاً نظامياً مدرباً أحسن تدريب على أحدث أسلحة زمانه ومكانه أعاد به إخضاع الممالك والأقاليم التي تمردت على أمبراطورية سنغاي الإسلامية قبل حكمه، ولما أنس في جيشه القوة وفي مملكته الاستقرار بدأ بالدعوة إلى الإسلام والجهاد. فأرسل الشيخ العالم (مور صالح) إلى سلطان قبائل الموسى الوثنية، ليدعوه إلى الإسلام، فأبى سلطان الموسى[(٣)]

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ٥٩ وما بعدها وتاريخ السودان ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) انظر المصدرين السابقين.

(٣) ذكر السعدي أن الشيخ مور صالح لما بلغ ملك الموشي دعوة أسكيا له إلى الإسلام قال له: حتى أشاور أبائي في القبور فذهب إلى قبورهم فسجد للشيطان فظهر له شيخ فقال له لا تقبل هذا الدين أبداً وابق على دين أبائك وأجدادك حتى تفنوهم أو يفنوكم. ص ٧٤.

فزحف إليه الحاج أسكيا محمد على رأس جيش كبير وحاربهم فانتصر عليهم وقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم الوثنية في معركة ضارية تسمى معركة (نعسر) وذلك في سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٧ ـ ١٤٩٨م فأدخل الكثير منهم في الإسلام، وعاد إلى عاصمته (غاو) بكثير من السبي الذين خصص لهم شارعاً خاصاً لسكناهم في غاو بات يعرف بهم(١).

وفي سنة ١٤٩٨ ـ ١٤٩٩ م أرسل جيشاً إلى إقليم باغن بقيادة فاري عثمان فأخضعه لسيادة سنغاي سنة ٩٠٥ هـ وضم مقاطعة باجانو إلى مملكة سنغاي فاتسعت ناحية الغرب إلى المحيط وفي سنة ١٤٩٩ ـ ١٥٠٠م/٩٠٦هـ اتجه أسكيا محمد بجيشه القوي نحو الشرق إلى منطقة أيورو حيث كان لا يزال يعتصم بها سنى بارو مع أنصاره الذين يدعون (زابرما) فانتصر عليهم، وثبت حكم أسكيا على تلك المنطقة التي كانت في أيام سنى على تابعه لمملكة سنغاي، ولكن أيام اعتلاء أسكيا عرش سنغاي اعتصم بها سني بارو مع أنصاره وانقطع حكم أسكيا عنها. ولم يجد أسكيا مقاومة تذكر في استردادها، وفي أثناء استيلائه عليها كان معظم جيش سنغاي مشتبكاً في الغرب مع بقايا مملكة مالي وقد تمكن بين سنتي ١٥٠٦ ـ ١٥١٢ م من ضم كل بلاد مالي القديمة إلى مملكة سنغاي، فبلغت حدودها مشارف المحيط.

وفي سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م هاجم (تلظ) في إقليم (أير) موطن قبائل الطوارق، وضم إلى امبراطوريته منطقة ككك التي لم تكن خضعت لها من قبل. وأخضع بذلك قبائل الطوارق التي كانت قد تمردت على سنغاي قبيل حكم أسكيا محمد وكانت تلك المناطق تابعة لأمبراطورية سنغاي في عهد سني علي(٢).

---

(١) السبايا من غزو أسكيا لبلاد الموشي أسكنوا في شارع خاص بهم، كما أسكن القينيين والقينيات الكثيرات من غزوة أرض باغن في حارة خاصة بهم في غاو سميت حارة (مايي) ص ١٠٢ السعدي.

(٢) انظر تاريخ الفتاش وتاريخ السودان كما كانت بلاد الهوسا تابعة لسنغاي في عهده مثل كانو، وكاشينا، وجوبر، وزنفرة وزاريا وغيرها من إمارات هوسا.

كان سني علي قبل أسكيا محمد قد أخضع أقاليم مالي لسلطانه واستولى على عاصمة مالي وفرض على سلطانها إتاوة وأقره حاكماً عليها من قبله حوالي سنة ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١ م وأصبح سلطان مالي يدعى حاكم مالي من قبل ملك السنغاي[١] ولكن حاكم مالي تمرد على سنغاي ولجأ إلى مدينة (زلن) بأعالي سنغال وكان أسكيا قد استفتى الإمام المغيلي في حكم حرب الأمراء الذين يدعون الإسلام ولكنهم لا يطبقونه بل ويؤمنون بالطواغيت ويتحاكمون إليها. فأفتاه بوجوب جهادهم حتى يعود إلى تطبيق أحكام الشريعة ويتحاكمون إليها.

أرسل أسكيا محمد أخاه عمر كمزاغ على رأس جيش إلى مدينة (زلن) بأعالي نهر السنغال، والتي اتخذها (منسي مالي) حاكم إقليم مالي عاصمة له - بعد أن خرب (سن علي) عاصمته القديمة (مالي أو بنبى) وكان على حراستها قائده (قام فتى قلي)، وكان شجاعاً باسلاً، فرد جيش سنغاي سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١ م[٢] فلما بلغ أسكيا الحاج محمد نبأ هزيمة جيش أخيه سار على رأس جيش ضخم، ونزل به في بلدة (تنفرن) بالقرب من مدينة (زلن) جهة المشرق، ثم التقى بقائد سلطان مالي (قام فتى قلي) ودارت بين الجيشين معركة رهيبة، انتصر على أثرها (أسكيا محمد)، وفر سلطان مالي وقائده من المدينة واستولى أسكيا على المدينة ووقع أهلها في الأسر، وتزوج فيها بامرأة تدعى داب الونكرية، التي أنجبت له ابنه إسماعيل، وبقي أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر بعض الوقت بمدينة (زلن) يصلح من أمرها ويدير شئون أهلها، بما يحقق لهم العدل والمساواة، ويحقق أيضاً سيادة امبراطورية سنغاي عليها، ثم عاد إلى عاصمة امبراطوريته الواسعة (غاو)[٣].

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٤٦ - ٤٧.

(٢) تاريخ السودان ص ٧٥.

(٣) تاريخ الفتاس ص ٧٠ وتاريخ السودان ص ٧٥.

ولكن سلطان مالي خلع طاعته للمرة الثانية فاضطر أسكيا إلى غزو مالي مرة أخرى في مكان يسمى (كلنبموت)[1] وأرسل أسكيا محمد أخاه (كرمن فاري عمر) على رأس جيش إلى قائد سلطان مالي (قام فتى فلي) فحاربه وانتصر عليه وقتله سنة ٩٢٤هـ[2] وبقتله استقر حكم سنغاي على مالي وانتهت المقاومة، وخضع جميع ممتلكات مالي لأمبراطورية سنغاي وبسطت نفوذها عليها.

وفي سنة ٩١٨ هـ/ ١٥١٢م ادعى النبوة (سلتى تينض) سلطان قبائل (جلف) التي كانت تقطن أقاليم فوتا من أرض مالي. وهاجم إقليم (كياك أو قياك) من ممتلكات سنغاي فسار إليه (أسكيا) على رأس جيش التقى به في (زار) وحاربه وانتصر عليه وقتله.

اتجه أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر ملك سنغاي وسلطانها إلى الشرق من مملكته، فأخضع إمارات الهوسا وهي: جوبر وكانو وكاتسينا وزنفرة وزاريا، واستولى على إمارة (كاشنة) سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣م وأضحت بلاد هوسا كلها من ممتلكات امبراطورية سنغاي[3].

وأصبحت أمبراطورية أسكيا محمد بن أبي بكر مترامية الأطراف، تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب إلى نهاية بلاد هوسا في الشرق. ومن إقليم فولتا العليا (بلاد قبائل الموسى) (بركينا فاسو) حالياً في الجنوب إلى مناطق الطوارق في أير وككك وتغازة في الصحراء الكبرى شمالاً. وفاقت مساحتها مساحة امبراطورية مالي الإسلامية في أوج ازدهارها، حيث سيطرت على السودان الغربي كله (إفريقيا الغربية حالياً) بدولها القائمة فطوعت الجميع بالسيف ولكن أسكيا الحاج

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) تاريخ السودان ص ٧٧ وذكر صاحب تاريخ الفتاش ص ٧٦ أن كنفار عمر كمزاغ هو الذي حارب تبيض وقتله دون علم أخيه أسكيا محمد.

(٣) تاريخ الفتاش ص ٧٧ وتاريخ السودان ص ٧٨.

محمد حقق لرعاياه جميعاً الأمن والاستقرار والرخاء والعدل والمساواة، ودأب على مصالح رعاياه[1].

نهاية حكم الحاج أسكيا محمد الملك العادل

ظل أسكيا الحاج محمد يحكم أمبراطورية سنغاي الإسلامية من سنة ٨٩٨ هـ/١٤٩٢م[2] حتى عزله ابنه موسى يوم عيد الأضحى سنة ١٥٢٨م وذكر صاحب الفتاش أنه عزل سنة ٩٣٥هـ.

بلغت سنغاي في أيامه الذروة في القوة والعلم والرخاء لم تزد عليها بعده وأصبحت أكبر أمبراطورية إسلامية في غربي أفريقيا على الإطلاق، سواء في المساحة والسكان أو في التنظيم والحضارة والازدهار العلمي والثقافي والاقتصادي. وانتشر الأمن والرخاء في ربوعها بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ غربي أفريقيا. ومنذ سنة ١٥١٧ كان الحاج محمد أسكيا قد بلغ من الكبر عتياً فتوقفت فتوحاته. ولكنه بقي يراقب مملكته الواسعة في صبر وتأن. وفي ١٥١٨ م أصيب بمرض في عينيه أدى إلى ضعف بصره، وكان له مستشار مخلص ناصح أمين يعوضه فقد البصر حتى إنه لم يفطن لذلك معظم رجاله، وهو (علي فولن).

وفي تلك الفترة كان مساعدوه الأولون ورفقاؤه منذ البداية قد شاخوا أيضاً، فتوقف الجميع عند ذلك الحد عن الإنجازات. وكان الجيل الجديد في هذا الوقت ومعظمهم من أولاده الذين ذكر المؤرخون بأنهم يزيدون على مائة ولد، قد بلغ أكثرهم سن الرشد

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) كان عمره سنة ١٤٩٣ م خمسين سنة، وعمره سنة ١٥١٧ م أربع وسبعون سنة أما في سنة ١٥٢٨ م وهي سنة تنازله كان عمره اثنين وثمانين سنة. وتوفي في سنة ١٥٣٨ م في أيام أسكيا محمد الثاني ابنه وبداية عهد أسكيا إسماعيل ابنه أيضاً عن عمر يناهز ٩٧ سنة.

الواحد تلو الآخر.

وكانت تحدوهم جميعاً روح الوصول إلى الحكم بكل الطرق الممكنة وكانت تلتف حول كل واحد منهم جماعة من الأنصار والطامحين لفرص المستقبل في الوظيف السامي والحكم.

وهكذا بدأ داء التنافس بين أولاد الحاج أسكيا محمد وهو حي. وربما كان لذلك محتاراً في كيفية الوصول إلى التمكين للاستقرار بعده في سنغاي، ولذا فقد ظل لا يعهد بالسلطة في أي منصب لأحد من أبنائه إلا بعد أن يختبره ويأنس فيه الحنكة، دون النظر للسن أو لأي اعتبار آخر.

وبهذا الاعتبار فإنه عندما توفي أخوه ونائبه في غورما (عمر كمزاغ) في سنة **١٥١٩** م عهد بتلك الولاية لأخيه الصغير (يحيى) وقد أثار ذلك حفيظة ابنه (موسى) الذي كان قد رافقه قبل ذلك إلى الحج. وكان يطمح إلى الحكم بعده[١]. وقد بدأ موسى منذ ذلك الحين يسعى للوصول إلى الحكم. ويعمل لاحتلال مكانة أبيه بالقوة. ولما وجد من يتآمر معه ويساعده، فقد توصل سنة **١٥٢٧** م إلى إجبار (علي فلن) المستشار الأول لوالده أسكيا محمد والمخلص الأمين له منذ أيام الصبا. على مغادرة القصر[٢]. وفي سنة **١٥٢٨**م أي السنة التالية لمغادرة علي فلن قصر الحكم، دخل موسى القصر بالقوة مع جماعة من أنصاره وأجبر أباه على التنازل عن الحكم له، فما كان من والده إلا تنفيذ رغبة ابنه[٣].

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ وما بعدها لمعرفة من كان معه في حجه.
وانظر أيضاً تاريخ السودان ومملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ص ٤١/٤٠ لعبد القادر زبادية.

(٢) كان علي فلن عبداً لأسكيا محمد، ولكنه لإخلاصه له أصبح من أمناء سره الأقربين ومستشار أمين له. وقد رافقه في جميع ما قام به أسكيا من أعمال وحروب. انظر الفتاش وتاريخ السودان.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ٧٨.

وتوفي أسكيا محمد سنة ١٥٣٧ م أو في سنة ١٥٣٨م. وانتهى بذلك حياة وحكم أكبر وأعظم ملك حكم السودان الغربي. ويدين له شعبه بتعليمه إياه الحكومة المنظمة التي بها ضمن النجاح الذي حققه أكبر مما يدين له بهذه الأمبراطورية الكبيرة التي أعطاها إياهم.

وشهد ليو الإفريقي (حسن الوزان) لأسكيا محمد بحسن السياسة والنظام الراقي حين زار السودان الغربي تحت حكم أسكيا العظيم (كما وصفه) سنة ١٥١٠ م في بعثة يرأسها عمه أرسله إلى أمبراطورية سنغاي شريف فاس محمد القائم مؤسس دولة السعديين.

وقد كانت كتابات ليو الإفريقي عن سنغاي ثمينة وهامة إلى حد كبير لأنها أظهرت السودان الغربي عقب وصول دولة سنغاي إلى قمة مجدها الاقتصادي والحضاري والثقافي عن طريق فتوحات أسكيا وحكمه العادل، فكان بذلك قادراً على أن يضيف إلى كتاباته ذات القيمة الجغرافية الكبيرة والعلمية صورة لأعظم النظم السياسية التي حققها سنغاي تحت حكم آل أسكيا، ويصف ليو أسكيا بكثرة الإنفاق على العلم والعلماء فيقول: إن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين، ويحملون إلى هناك مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة في بلاد بربر.

وهي تباع بثمن أغلى من أي نوع آخر من التجارة، ويصف مدينة تمبكتو وهي في مجدها العلمي والثقافي في وقت كان أسكيا وحاشيته فيها. كما وصف مدينة غاو وعاصمة سنغاي بالحضارة والعظمة وكثرة الخيرات وبين أنها أكثر مدن السودان سكاناً وحضارة وكثرة الخيرات.

هذا كله في عهد أسكيا محمد رحمه الله تعالى وهكذا كان أثر حجه في السودان الغربي بعد عودته من مكة ومصر. وأسكيا محمد

هو أعظم من حج من ملوك السودان الغربي من حيث إنفاقه في الحرمين ومن حيث قيامه بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في السودان الغربي ونشر عقيدة السلف فيه وإنشاء المعاهد والمراكز الإسلامية وتشجيع العلم والعلماء. وقد حج بعده من ملوك السنغاي محمد الثالث بن أسكيا داود الذي تولى عرش سنغاي من ١٥٨٢ ـ ١٥٨٦م ولكن حجه لم يحدث أي أثر يذكر.



الفصل الثالث

دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية في السودان

يضم هذا البحث العناصر التالية:

١ - من هو المغيلي.

٢ - أشهر شيوخ المغيلي وأبرز تلاميذه.

٣ - موقف المغيلي من تصرفات اليهود في توات وغيرها من مدن الصحراء والسودان الغربي.

٤ - وجود اليهود في مدن الصحراء الكبرى ومدن السودان الغربي يرجع إلى عهدين مختلفين وبيان موقف المغيلي من هذا الوجود.

٥ - رسالة المغيلي عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار وبيان ما عليه أكثر يهود زمانه من التعدي والطغيان، وما يجب أن يكون عليه أهل الذمة في المجتمع الإسلامي.

٦ - رأي المغيلي في وجوب هدم كنائس اليهود في مدينة توات وغيرها من مدن الصحراء وبلاد السودان وبيان اختلاف ردود علماء فاس وتونس وتلمسان وتوات عليه، ما بين معارض ومؤيد.

٧ - أقسام كنائس أهل الذمة بالنظر إلى إبقائها أو هدمها في بلاد المسلمين.

٨ ـ محاولات المغيلي إقناع علماء فاس المعارضين له.

٩ ـ رحلة المغيلي العلمية إلى بلاد السودان ودعوته الإصلاحية فيها.

١٠ ـ المغيلي في كانوا واتصاله بحاكمها ورسائله التي كتبها له: رسالة في شئون الإمارة وشروطها ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوب العدل بين الرعية، ورسالة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.

١١ ـ رحلة المغيلي إلى أمبراطورية سنغاي الإسلامية والتقائه بحاكمها أمير المؤمنين أسكيا محمد.

١٢ ـ أسئلة أسكيا محمد إلى المغيلي وأجوبته عليها.

١٣ ـ أهمية الأسئلة من الناحية الدينية والعلمية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، أهمية الأجوبة.

١٤ ـ المقارنة بين أجوبة المغيلي على أسئلة أمير كانو وأجوبته على أسئلة أمير أسكيا محمد وما يستنتج من ذلك من العلم والحضارة والثقافة والدين في المجتمعين في كل من كانو وسنغاي.

١٥ ـ نتائج وآثار دعوة الغيلي وحركته العلمية في السودان الغربي.

١٦ ـ مؤلفات إمام المغيلي.

١٧ ـ مراسلات المغيلي مع السيوطي ومجادلته له في علم المنطق.

١٨ ـ آخر أيام المغيلي في بلاد السودان.

دعوة الإمام المغيلي الإصلاحية وحركته العلمية في السودان الغربي في القرن التاسع والعاشر الهجريين وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية

المغيلي هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني من أعلام القرن التاسع والعاشر الهجري، ولد في تلمسان[1]، شمال غرب الجزائر من أسرة بربرية من قبيلة مغيلة، ولم تذكر المصادر التي بين أيدينا تاريخ ولادته. غير أن وفاته رحمه الله كانت سنة ٩٠٩ هـ، وقد انتقل بعد إتمام دراسته بالشمال إلى الصحراء فسكن مدينة توات الشهيرة في ذلك العهد. ولا يعرف سبب انتقاله من موطنه بالشمال إلى الصحراء، غير أن ما عرف عنه من غيرته على الإسلام وبغض أعداء الدين وحرصه الشديد على تطبيق أحكام الشريعة، وحملته على اليهود القاطنين بتوات كل هذا يحمل على غالب الظن أنه كان قد وجد ضيقاً في العيش بالشمال حيث يسيطر اليهود في أهم المدن بالشمال على مصادر التجارة والمال وسائر المرافق الهامة. والذي يهمنا من جوانب حياة الشيخ محمد المغيلي الجهادية، هو الجانب الخاص بحركته الإصلاحية ورحلاته العلمية في السودان الغربي.

وقبل الدخول في الحديث عن دعوته الإصلاحية في السودان

---

(١) تلمسان مدينة تقع حالياً في الجزائر بينها وبين مدينة وهران المشهورة حوالي ١٥٠ كم وقيل إنه ولد في مدينة فاس المغربية والمغيليون من الأسر العلمية القديمة بسلا. انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي ص ٣٣٠، دار الكتب العلمية ببيروت، وانظر أيضاً الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج١ ص ٢٦٨ لمحمد، حجي مطبعة فضالة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧م.

علينا أن نعطي نبذة عن حياته في الشمال والصحراء ومحاولاته إصلاح ما أفسده الناس من أمور الدين وموقفه من اليهود في بلاده وخلافه مع علماء بلاده في مشكلة اليهود في توات وغيرها. . .

كان المغيلي عالماً بارعاً في العلم متفنناً في العلوم مع الصلاح والدين، وقد وصفه أحمد بابا في تطريز الديباج بقوله: (خاتمة المحققين الإمام العالم العلامة الفهامة القدوة الصالح السني أحد الأذكياء، ممن له بسطة في الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة، وبغض أعداء الدين، وقع له بسبب ذلك أمور مع فقهاء وقته حين قام على يهود توات وألزمهم الذل بل قتلهم وهدم كنائسهم)[١].

أشهر شيوخ المغيلي:

أخذ العلم عن علماء زمانه ومن أشهرهم: الإمام العلامة أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفى سنة ٨٧٥ هـ[٢] وأبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ وقد وصف بالعلم والتقوى والزهد، واعتبر ممن جدد لهذه الأمة أمر دينها[٣].

يحيى بن بدير بن عتيق التدلسي أبو زكريا الفقيه العلامة قاضي توات، توفي بتمنطيطة سنة ٨٧٧هـ[٤].

وأما تلاميذه فكثيرون.

ومن أشهرهم: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي صاحب المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى علماء أفريقية والمغرب والأندلس، ولد الونشريسي

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٣٣٠ طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣.

(٣) المرجع السابق ص ٣٢٥.

(٤) المرجع السابق ص ٣٥٩.

بجبال ونشريس التي تعد أكثر الكتل الجبلية ارتفاعاً في غرب الجزائر حوالي عام ٨٣٤هـ، ونشأ بمدينة تلمسان وتعلم على علمائها، وتوفي سنة ٩١٤هـ بمدينة فاس[١].

ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي كان فقيهاً عارفاً أديباً شاعراً توفي سنة ٩٥٦ ذكره صاحب الدوحة من مشايخ القرن العاشر.

والعاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي من أهل أكدس ذكره أحمد بابا في النيل. وغيرهم من شمال أفريقية والمغرب وبلاد السودان[٢].

موقف المغيلي من تصرفات اليهود في توات:

قدم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مدينة توات واستوطنها سنة ٨٤٠هـ في حياة شيخه يحيى بن بدير قاضي توات[٣]. وقبل الدخول في الحديث عن المواجهة التي حصلت بين المغيلي وعلماء توات ولاسيما قاضيها العصنوني في نازلة اليهود بتوات يحسن إلقاء الضوء على حياة اليهود في تلك المنطقة وتاريخ تواجدهم بالجنوب والشمال للصحراء الكبرى. والأسباب التي أدت بالمغيلي إلى جهادهم وهدم كنائسهم مع أنهم من أهل الذمة. هاجر كثير من اليهود إلى بلاد المغرب وبلاد السودان فيما وراء الصحراء الكبرى. وتكاثروا في المدن والقرى منذ عهد بعيد وزادت هجراتهم في القرنين التاسع والعاشر الهجريين على أثر سقوط مملكة غرناطة.

---

(١) راجع ترجمته في مقدمة المعيار. وانظر ترجمة الفجيجي في دوحة الناشر ص ١٣٢ والعاقب في النيل ص ٢١٧.

(٢) انظر ترجمة الفجيجي في دوحة الناشر ص ١٣٢، والعاقب في النيل ص ٢١٧.

(٣) من بحث مخطوط لمحمد باي بن سالم يتناول التعريف بمدينة توات بمناسبة مرور ٤٩٦ سنة على وفاة المجاهد الكبير والداعية المصلح الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي. والبحث صورته من مركز المخطاطات والتراث الإسلامي بنيامي عاصمة جمهورية النيجر.

ويرجع تاريخ وجودهم إلى عهدين مختلفين:

الأول يرجع إلى ما قبل الميلاد حسبما يذكره بعض المصادر التاريخية، فقد ذكر عبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان: أن سحرة فرعون الذين حشرهم فرعون اللعين لمناظرة موسى عليه الصلاة والسلام حشر بعضهم من بلدة كوكيا[1].

ويؤكد ما أشار إليه السعدي ما ذكره حسن الوزان (ليون الإفريقي) في كتابه وصف أفريقيا: (من أن بعض الأفارقة السود كانوا قد اعتنقوا الديانة اليهودية وظلوا متمسكين بها سنين عديدة إلى ظهور النصرانية[2]. ويقول دلافوس وسبيتز: إن حكام غانة الأوائل بيض من اليهود السوريين الذين كانوا يقيمون في برقة وأنهم هم الذين أسسوا حكومة غانة الأولى[3]. ويقال إن أوكار هوذ المؤسس الأول لدولة غانة: اسم فرع إسرائيلي من اليهود[4]. وذكر القاضي محمود كعت في كتابه تاريخ الفتاش: أن مدينة تندرم، التي أعاد بناءها شقيق الأمير محمد أسكيا، عمر بأمر من أسكيا سنة ٩٠٢ هـ، كانت قبل ذلك مسكناً لقوم من بني إسرائيل، وأن قبورهم وآبارهم قائمة في ذلك

---

(١) تاريخ السودان للسعدي ص ٤ طبعة هوداس. وبلدة كوكيا بلدة قديمة جداً على ضفة نهر النيجر، وقريبة من مدينة غاو الواقعة في جمهورية مالي. وكانت كوكيا عاصمة سلطنة سنغاي في عهد حكم آل ضيا، وآل ذا قبل نقل العاصمة إلى مدينة غاو وتبعد كوكيا عن غاو ١٢٠ كم تقريباً. ويذكر السعدي أنها كانت العاصمة الأولى لمملكة سنغاي في عهد فرعون موسى ولها علاقات مع مصر الفرعونية.

(٢) وصف أفريقيا للحسن بن محمد الوزان ص ٧٧ طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٣) أمبراطورية غانة الإسلامية لإبراهيم علي طرخان ص ٢٢ طبعة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩٠هـ.

(٤) المرجع السابق.

الوقت، وقال: إنهم حفروا في تلك المدينة الأثرية وحولها ثلاثمائة وثلاثاً وثلاثين بئراً، وأنهم كانوا أغنياء ولهم مزارع وتجارة..[1] وهذه الأخبار فيها نظر، والله أعلم.

قلت: ولم يذكر السعدي وغيره المصادر التي استقى منه ما ذكره، وإذا كان ما ذكره صحيحاً فيحتمل أن يكون سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى عليه السلام الذين أتوا من كوكيا قد عادوا، أو عادت سلالاتهم إلى موطن آبائهم الأصلي وبخاصة أن العلاقات بين كوكيا ووادي النيل قائمة في ذلك الزمن. وتشير الروايات التي يتناقلها أهالي المنطقة عن سلفهم إلى وجود طائفة من اليهود في المنطقة منذ أقدم العصور. والله سبحانه وتعالى أعلم بالحقيقة.

العهد الثاني لوجود اليهود في المنطقة:

عند استيلاء الملكين الكاثوليكيين: فرديناند الخامس وإيرزابيلا على مملكة غرناطة في كانون الثاني/يناير عام ١٤٩٢م، الأمر الذي أعقب طرد كثير من المسلمين واليهود من الأندلس حيث كانت محاكم التفتيش الإسبانية تضطهد اليهود كما تضطهد المسلمين باعتبارهم جميعاً مارقين من الديانة الكاثوليكية، وتحملهم على التنصر بل اعتبرت تلك المحاكم اليهود المتنصرين منافقين انتهازيين أشد شراً على البلاد من اليهود الباقين على يهوديتهم، فلاحقوهم بأنواع التعذيب والتضييق وأحرقوا الآلاف منهم. لذلك كانت موجات الهجرات من الأندلس تقذف خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين والخامس عشر والسادس عشر الميلاديين بمجموعات من المسلمين واليهود إلى الضفة الجنوبية من حوض البحر المتوسط، فاستقر عدد غير قليل من اليهود ببلاد

---

(١) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس للقاضي محمود كعت التنبكتي ص ٦٢ وكون مدينة تندرم أول من سكنها اليهود أمر متواتر عند سكان مالي منذ عهد بعيد جداً.

المغرب. ونزح آخرون منهم إلى دول أوربية بروتستانتية... فانتشر اليهود في مدن المغرب وقراه على عهد السعديين، من أقصى الشمال إلى تخوم الصحراء، واستوطنوا بالخصوص المراكز التجارية التي تمر منها أو تنتهي إليها قوافل الذهب الرابطة بين شمال أفريقيا والسودان، واشتغل اليهود بالتجارة وصياغة الحلي وضرب النقود، ولعبوا أدواراً مهمة كوسطاء في تجارة السكر، إذ كانوا على اتصال بكبار التجار وأرباب السفن والشركات الأوربية التي تتعامل مع المغرب آنذاك وبخاصة أبناء ملتهم المقيمين في أوربا[1]. كما تولوا الإشراف على شئون أملاك الأمراء ووجهاء الناس، وأصبحوا من الأثرياء يشار إليهم بالبنان وكانوا منتشرين في القرى الريفية في مواطن الخصب والرفاهية. وقد حذر عبد الله الهبطي الريفيين في الألفية السنية[2] من اختلاط نسائهم بتجار اليهود المتكاثرين في الريف، وذكر الحسن اليوسي أن بعض جند المنصور الذهبي قدموا من السودان وقاسوا شدائد الفيافي والقفار، فلما لحقوا بإحدى القرى السوسية خرج منها نفر من اليهود، فحين بصر بهم جندي صاح قائلاً: (مرحبا بوجوه الخير) اعتباراً للنعمة التي لا تفارقهم بإقامتهم في الحاضرة موطن الخصب والرفاهية[3]. وقد عاصر المغيلي هذه الفترة وشاهد سيطرة اليهود على سائر مرافق الحياة وعلى أهم مصادر التجارة والمال.

---

(١) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص ٢٦٧ - ٢٦٨ مطبعة فضالة عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢) نظم عبد الله الهبطي رجزاً في ألف بيت ينتقد حال مجتمعه بجبال غمار الريفية. وفي تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية من شرب الخمر واختلاط النساء بالرجال في المناسبات وغيرها. انظر الحركة الفكرية في عهد السعديين ج١ ص ٣١ وانظر الألفية نفسها في المرجع المذكور ص ٢١٨ - ٢١٩ وما بعدها.

(٣) الحركة الفكرية في عهد السعديين ج ١ ص ٢٦٧.

ولما انتقل المغيلي من الشمال إلى توات بالصحراء وجد اليهود أيضاً يشاركون بنشاط كبير في حركة القوافل التجارية مع السودان ويتصرفون بحرية تامة أكثر مما في الشمال، وأحدثوا كنائس لهم في ديار الإسلام وتطاولوا على الإسلام والمسلمين، وتمتعوا - إلى جانب الحرية الاقتصادية والتجارية - بحرية دينية جعلتهم يقيمون شعائرهم وطقوسهم بأمان داخل البلاد، ويتصلون بأبناء ملتهم المقيمين بالخارج، وقد حملت إليهم مرة باخرة إنجليزية في جملة ما حملت من بضائع ستة وعشرين صندوقاً مملوءة بنسخ التوراة[1]. وقد أنكر المغيلي سيطرة اليهود على الاقتصاد، وما خولهم ذلك من شفوف ودالة على رجال السلطة، واستخفاف بالأحكام الشرعية واحتقار لفقراء المسلمين.

ورأى المغيلي أن اليهود نقضوا بذلك عهد الذمة المبني أساساً على الخضوع المطلق لسلطة المسلمين مقابل حمايتهم والسماح لهم بالعيش بين أظهرهم بأمان وسلام.

وألف في ذلك رسالة جواباً عن سؤال من سأله عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، وما يلزم أهل الذمة والصغار، وعما عليه أكثر يهود هذا الزمان من التعدي والطغيان... وسماها: مصباح الأرواح في أصول الفلاح.

شرح في الفصل الأول ما يجب على كل مسلم ومسلمة من مجافاة اليهود قائلاً: (والحاصل أنه لا يقرب كافراً - يهودياً - من نفسه أو عياله أو يستعمله في أعماله، أو يجعل بيده شيئاً من ماله، إلا من لا دين له، ولا عقل ولا مروءة...) ثم وضح وجه انتفاء هذه الأمور

---

(١) المرجع السابق ج١ ص ٢٧٠ وممن اشتهر من الأسر اليهودية الثرية في عهد الدولة السعدية بالمغرب: آل بار يانط في الشمال، وبالاش في الجنوب، فكان منهم سفراء السعديين إلى أوربا وممثلوهم في الصفقات التجارية الكبرى... انظر المرجع السابق.

التي ذكرها عن المتعاملين مع اليهود في أيامه.

وفي الفصل الثاني بين ما يجب على أهل الذمة من الجزية والصغار منبهاً إلى ضرورة منعهم من إحداث الكنائس، وهي مسألة كانت مثار نزاع كبير في الصحراء يومئذ بقوله: (لا يمكنون من إحداث كنيسة في شيء من بلاد المسلمين وإن أعطوا على ذلك ملء الأرض ذهباً... ولا يستدل في هذا الزمن الكثير الشر بعمل الأمصار، سكوت العلماء الأخيار، لأن الأمر اليوم ومن قبله بكثير بيد أرباب الهوى، لا بيد أرباب التقوى).

وتعرض في الفصل الثالث إلى (ما عليه يهود هذا الزمان في أكثر الأوطان، من الجور والطغيان، والتمرد على الأحكام الشرعية بتولية أرباب الشوكة وخدمة السلطان، كيهود توات وتيكورارين وتفيلالت، وكثير من الأوطان بأفريقية وتلمسان. وقد حلت دماؤهم وأموالهم وأولادهم ونساؤهم ولا ذمة لهم... وقد اختلف العلماء في نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم إذا أخلوا بواحد - مما يجب عليهم - فكيف بيهود لم يأتوا ولو بواحدة، بل وتمردوا على الأحكام الشرعية بالبلاد السائبة، والتعلق بأرباب الشوكة والتعصب بأموالهم على من يتسبب من العلماء في إذلالهم فهؤلاء ونحوهم لا خلاف في نقض عهدهم وقتلهم وسبيهم)[١].

وقد استدل المغيلي على ما ذهب إليه بالأدلة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة رضي الله عنهم فيقول في رسالته تلك مستدلاً على آرائه:

---

(١) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. وتاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري ج١ ص ٤٣ - ٤٤ لأبي القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر ١٩٨١ م الجزائر.

قال تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات والطيبات﴾ للطيبين والطيبون للطيبات[1] والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم...﴾ وقال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوداون من حاد الله ورسوله﴾[2] وهؤلاء أصحاب النبي ﷺ، قد قتلوا أحبابهم وقتلوا أبناءهم وآباءهم في مرضاة رسول الله... فما أكذب قوماً يزعمون أنهم يؤمنون بالنبي ﷺ ويحبونه وهم مع ذلك يقربون من أنفسهم وأهليهم أعداءه، بل ويتولون أشد الناس عداوة له. حتى أنهم ما يأوون إلا اليهود إليهم، ويحاربون العلماء عليهم. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾[3] وقال تعالى: ﴿وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله...﴾... إلى ﴿وهم صاغرون﴾[4] أمر وجود من الله تعالى لقتال اليهود والنصارى، ولم يرفع السيف عن رقابهم إلا بشرط إعطاء الجزية وصغارهم... وكل ما يأخذه الخلائق من يهودهم بأيديهم ليس بجزية، إنما هو رشوة على توليتهم، وتصرف الجزية مصرف الفيء... يشترط الله تعالى في أخذ الجزية منهم إلا أن تكون عن يد وهم صاغرون، أما الصغار فحاصله أن يلزموا الذلة والمسكنة في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم... ولأجل ذلك لا يمكنون من إحداث كنيسة في شيء من بلاد المسلمين... فلا خلاف بين

---

(١) سورة النور: الآية ٢٦.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩ وهي بكاملها: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾.

علماء الأمة أجمعين أنه لا يحل إحداث الكنيسة)[1] هذا بعض ما جاء في مصباح الأرواح.

وخلاصة رأي المغيلي في يهود توات وسائر الأوطان في الشمال والصحراء والجنوب أن هؤلاء اليهود ليسوا بأهل الذمة ولا تنطبق عليهم أحكام أهل الذمة. لأن الذمة الشرعية إنما تكون بإعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون. بل هم قد نقضوا عهد الذمة بأعمالهم وتصرفاتهم الفعلية والقولية في ديار الإسلام المنافية لأحكام الشريعة الإسلامية التي تلزم المسلمين بالوفاء لهم بعقد الذمة فلذلك وجب جهادهم وقتلهم وهدم كنائسهم وبيعهم التي أحدثوها في بلاد المسلمين وإلزامهم الذل والصغار...

وقد عارض معظم الفقهاء في أقطار المغرب الثلاثة رأي المغيلي في وجوب هدم كنائس اليهود وردوا على كتابه بردود مختلفة اتسم بعضها بالعنف والتجريح واتسم بعضها بالاعتدال.

وكان أشد المعارضين له في هدم الكنائس: قاضي توات الفقيه عبد الله بن أبي بكر العصنوني، فقام كل من المغيلي والعصنوني بمراسلة علماء فاس وتونس وتلمسان[2] للفتيا وأخذ رأيهم في المسألة.

كان مما كتبه العصنوني لفقهاء تلمسان وفاس قوله:

(سيدي رضي الله تعالى عنكم، وأدام بمنه عافيتكم ومتع

---

(١) مصباح الأرواح في أصول الفلاح بالخزانة المغربية العامة بالرباط دار الأرشيف تحت رقم ١٩٠٢ بخط رديء يصعب قراءتها على من لم يكن عنده خبرة بالخط المغربي وفي بعض الكلمات والأسطر غموض وبياض...

(٢) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لمراسلات العصنوني والمغيلي علماء البلدان المذكورة وردودهم عليهما. وانظر أيضاً المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى أفريقية والمغرب والأندلس للونشريسي ج٢، ص ٢٢٦، ٢١٤ وما بعدها طبعة دار الغرب الإسلامي - بيروت تحقيق محمد حجي.

المسلمين بطول حياتكم. جوابكم الكريم في مسألة وقع فيها النزاع بين طلبة الصحراء، وهي كنائس اليهود الكائنين بتوات وغيرها من قصور الصحراء، فقد شغب علينا المغيلي وولده تشغيباً كاد أن يوقع في فتنة، وذلك أني أفتيت بتقريرها..)[1] ثم واصل حديثه، وذكر أنه اطلع على الأقوال التي ذكرها ابن عرفة في بلد العنوة، والذي اختطه المسلمون، وما ذكره ابن يونس وغيرهما، ثم قال: والصواب عندي تقريرها اتباعاً لقول الغير لجرى العمل به في كثير من مدن المغرب وهي مما اختطه المسلمون في صدر الإسلام وبعده، وفيها العلماء متوافرون في كل وقت، وفيهم من لا يسكت على باطل. وكذلك قواعد هذه الصحراء قد حل بها علماء فضلاء، وقد شاهدوا الكنائس فيها وهم ممن يمتثل قولهم في الأحيان، وقد أنكروا أشياء على أهل الذمة وعلى غلائفهم، ولم ينكروا الكنائس في جملة ما أنكروه...[2]. ثم واصل العصنوني كلامه موضحاً خلافه مع المغيلي وكلام المغيلي في إسلام من لا يرى هدم كنائس اليهود في توات وحكمه على من منع هدمها بالنار...إلى أن قال: (واعلم سيدي أن الفجيجي[3] وصف في سؤاله أهل الذمة بأوصاف توجب أن يكونوا ناقضين للعهد، ونحن يا سيدي لا نعرفها، لاسيما يهود مدينة توات. وغاية ما وقع منهم عند إهمال الغلائف لهم ما يوجب الزجر أو الأدب بل هم عند تفطنهم وزجرهم في غاية الذل والصغار)[4]. وواصل العصنوني حديثه عن يهود توات في رسالته إلى

---

(١) المعيار المعرب ج٢ ص ٢١٤.

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) (٤) هو محمد بن عبد الجبار الفجيجي من تلاميذ المغيلي كان فقيهاً أديباً توفي سنة ٩٥٦ هـ وقيل سنة ٩٥٨ هـ انظر ترجمة حياته في كتاب دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر لمحمد بن علي بن مصباح المعروف بابن عسكر ص ١٣٢. وتحقيق محمد حجي، دار الغرب بيروت، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي، دار الغرب ـ بيروت.

علماء تلمسان وفاس إلى أن قال: (واعلم يا سيدي أن يهود توات لهم درب اختصوا به وليس في خارجه إلا قليل منهم، وكنيستهم بين دور لا تلاصق دار مسلم. جوابكم ولكم الأجر والسلام عليكم والرحمة والبركة)[1].

وقد اختلفت ردود العلماء في تلك البلدان على المغيلي والعصنوني قاضي توات في مسألة هدم كنائس اليهود في توات. فمنهم من وافقه على هدم الكنائس[2] كأبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي وأبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي ومنهم من جاء رده موافقاً لرأي العصنوني بعدم جواز هدمها كأبي العباس أحمد بن محمد بن زكري فقيه تلمسان ومفتيها. والقاضي أبو زكريا يحيى بن أبي البركات الغماري من فقهاء تلمسان وغيرهما من فقهاء تلمسان[3].

وأما فقيه تلمسان ومفتيها أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري فقد أجاب بعدم هدم الكنائس المسئول عنها في جواب طويل فقال بعد كلام طويل: (قلت: وأنا لا أرى لهدم الكنائس المسئول عنها وجهاً. أما أولاً فلأن الذميين المذكورين لو أرادوا إحداث كنيسة في موضع استقرارهم حين نزلوا فيه لساغ لهم ذلك، ولا يسوغ منعهم على أي وجه فرضت من اختطاط أو إحياء، إذ هم أهل ذمة على ما علم من حال اليهود في بلد المسلمين...) وواصل كلامه إلى أن قال: (فكيف

---

(١) المعيار المعرب ج ٢ ص ٢١٧ رسالة العصنوني إلى فقهاء المدن المذكورة طويلة تقع في أربع صفحات من كتاب المعيار من ص ٢١٤ إلى ٢١٧.

(٢) وقد ذكر الونشريسي في المعيار جميع ردود العلماء وآراءهم في مسألة هدم كنائس اليهود في توات وغيرها في صفحات طويلة من ص ٢١٤ حتى ص ٢٥٣ ج ٢.

(٣) انظر تطريز الديباج ص ٣٣١ والمعيار ج ٢ ص ٢١٧ ـ ٢٢٩ ذكر الونشريسي ردود هؤلاء جميعاً وفيها طول. وانظر أيضاً دوحة الناشر ص ١٣٠ وذكر أن أكثر الفقهاء خالف المغيلي في رأيه.

يستقيم هدم ما وجد مبنياً محوزاً بيد الذميين المذكورين من الكنائس، لها بأيديهم أمد طويل لا يعلم تاريخه...)[1].

وأما القاضي أبو زكريا فقد أجاب بما نصه:

(الحمد لله، لا خفاء إن من معه أدنى مسكة من العقل فضلاً عمن اتصف بالعلم إن تدبر الأوصاف المسطرة فوقه التي أحدها يقوم مقام جميعها لا يقول بهدم الكنائس المذكورة ولا يفوه به، لما تقرر من أن درء المفاسد أولى من جلب المصالح؛ ولاسيما إذا بدت لذلك إمارات وقامت عليه دلالات تقتضي تحريم الخوض في ذلك، كما هو المقرر في تغيير المنكر إذا كان مؤدياً إلى منكر أعظم منه...) واستمر إلى أن قال: (والحاصل الذي عليه الاعتماد وإليه الاستناد في هذه القضية أن لا سبيل إلى هدم الكنائس بحال حيث كانت...)[2].

وأما كبير علماء تلمسان أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي فقد أثنى على المغيلي وكتب له كتاباً مطولاً قال فيه ما نصه: (من عبيد الله محمد بن يوسف السنوسي إلى الأخ الحبيب القائم بما اندرس في فاسد الزمان من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي القيام بها لاسيما في هذا الوقت علم على الاتسام بالذكورة العلمية والغيرة الإسلامية وعمارة القلب بالإيمان، السيد أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي؛ حفظه الله تعالى حياته وبارك في دينه ودنياه، وختم لنا وله ولسائر المسلمين بالسعادة والمغفرة بلا محنة يوم نلقاه.

بعد السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، فقد بلغني أيها السيد، ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغيير أحداث اليهود أذلهم الله كنيسة في بلاد الإسلام، وحرصكم على

---

(١) راجع جواب أبي العباس في المعيار ج ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩ وما بعدها.

(٢) المعيار ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣١.

هدمها، وتوقف أهل تمنطيطة فيه من جهة من عارضكم فيه من أهل الأهواء فبعثتم إلينا مستنهضين همم العلماء فيه، فلم أر من وفق لإجابة المقصد، وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفاء الغلة ولم يلتفت لقوة إيمانه ونصوع إيقانه، لما يشير إليه الوهم الشيطاني من مداهنة من يتقي شوكته، سوى الشيخ الإمام القدوة الحافظ المحقق علم الأعلام أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي أمتع الله به وجزاه خيراً انتهى ملخصاً...)[1].

وممن كتب للمغيلي جواباً شافياً منصفاً: فقيه تونسي ومفتيها الرصاع[2]، وشيخ الجماعة أبو عبد الله بن غازي الذي لخص رده في جمل مسجوعة على ظهر كتاب المغيلي:

(هذا كتاب جليل، صدر عن نص عليل، وعلم بالصواب كفيل، وصاحبه غريب في هذا الجيل، بيد أنه أطلق الكفر على التضليل) ويعني ابن غازي بالتضليل ما استنتجه المغيلي من الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ فقال: إن من يتعامل مع اليهود والنصارى فهو كافر مثلهم[3].

كما أجاب كل من أبي مهدي الماواسي مفتي فاس وعبد الرحمن بن سبع التلمساني[4] وذكر أحمد بابا أنه ما أن وصل إلى المغيلي جواب التنسي ومعه جواب السنوسي حتى أمر جماعته، فلبسوا آلات الحروب وقصدوا كنائسهم، وأمرهم بقتل من عارضهم

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٣٣١.

(٢) انظر المعيار المعرب ج ٢ ص ٢٢٩.

(٣) دوحة الناشر ص ١٣٠ ـ ١٣١، والحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج ١ ص ٢٦٩.

(٤) تطريز الديباج ص ٣٣١.

دونها فهدموها، ولم يتناطح فيه عنزان، ثم قال لهم: من قتل يهودياً فله علي سبع مثاقيل وجرى في ذلك أمور...)[1].

هذا ما حصل بين المغيلي وعلماء توات وتلمسان وفاس وتونس والمغرب في مشكلة كنائس اليهود وبيعهم في توات وغيرها. قلت: والمتتبع لما جرت عليه سنة رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومذاهب أئمة المسلمين يجد أن الحق في هذه المسألة هو ما ذهب إليه المغيلي من وجوب هدم الكنائس المذكورة، لاسيما أن تلك الكنائس محدثة في بلاد المسلمين.

وكنائس أهل الذمة ثلاثة أقسام بالنظر إلى إبقائها أو هدمها في بلاد المسلمين:

أولاً: البلاد التي مصرها المسلمون كالبصرة والكوفة والقاهرة والتي أسلم أهلها كالمدينة واليمن فلا يجوز لأهل الذمة إحداث كنيسة فيها بإجماع السلف.

ثانياً: البلاد التي فتحت عنوة فهذه أيضاً لا يجوز إحداث كنيسة فيها والقديمة يجب هدمها على القول الصحيح من مذاهب الأئمة وقيل القديمة يجوز هدمها ويجوز إقرارها في أيديهم على ما يراه الإمام من المصلحة.

ثالثاً: البلاد التي صالحهم المسلمون عليها على أن الأرض لهم، وللمسلمين الخراج عليها أو صالحهم المسلمون على مال يبذلونه، فلهم أحداث ما يريدونه فيها لأن الدار لهم، كما صالح رسول الله ﷺ أهل نجران ولم يشترط عليهم أن لا يحدثوا كنيسة ولا دير. وملخص هذا أن الكنائس على ثلاثة أقسام: القسم الأول يجب هدمه، والقسم الثاني لا يجوز هدمه والقسم الثالث يفعل الإمام فيه الأصلح من إعزاز

(١) تطريز الديباج ص ٣٣١.

دين الله وقمع أعدائه[١].

قال بدر الدين بن جماعة: (وليس لهم إحداث كنيسة أو دير أو صومعة في بلاد أحدثها المسلمون كالقاهرة، والبصرة، والكوفة. ولا في بلد أسلم أهلها: كالمدينة النبوية واليمن، ولا في بلد فتحها المسلمون عنوة كمصر وبر الشام وبعض بلاده حرسها الله. فكل ما أحدث من الكنائس في هذا النوع من البلاد وجب هدمه. وأما الكنائس القديمة قبل الإسلام، فإن كانت في بلد فتح عنوة كمصر وبر الشام وبعض بلاده وجب هدمها، وإن كانت في بلاد فتحت صلحاً، وشرطوا في صلحهم بقاء الكنائس بقيت...)[٢].

قال ابن قيم الجوزية: (إن كل كنيسة في مصر والقاهرة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد ونحوها من الأمصار التي مصرها المسلمون بأرض العنوة فإنه يجب إزالتها إما بالهدم أو غيره بحيث لا يبقى لهم معبد في مصر مصره المسلمون بأرض العنوة، وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة، لأن القديم منها يجوز أخذه ويجب عند المفسدة، وقد نهى النبي ﷺ أن تجتمع قبلتان بأرض. فلا يجوز للمسلمين أن يمكنوا أن يكون بمدائن الإسلام قبلتان إلا لضرورة كالعهد القديم، لاسيما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار محدثة يظهر حدوثها بدلائل متعددة والمحدث يهدم باتفاق الأئمة.

وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة

---

(١) راجع في هذا تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لبدر الدين بن جماعة ص ٢٥٦ توفي ابن جماعة سنة ٧٣٣ وهو من شيوخ الذهبي وابن القيم وابن كثير والسبكي وغيرهم، وأحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٦٨٦ وما بعدها. والمعيار المعرب للونشريسي ج٢ ص ٢٣٤ ـ ٢٤٠.

(٢) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لبدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣ هـ دار الثقافة، الطبعة الثالثة عام ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، ص ٢٥٦.

فما كان منها محدثاً وجب هدمه، وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعاً، لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وما كان منها قديماً فإنه يجوز هدمه ويجوز إقراره بأيديهم، فينظر الإمام في المصلحة...) ثم قال: (وأما ما كان لهم بصلح قبل الفتح مثل ما في داخل مدينة دمشق ونحوها، فلا يجوز أخذه ما داموا موفين بالعهد إلا بمعاوضة أو طيب أنفسهم كما فعل المسلمون بجامع دمشق لما بنوه). فإذا عرف أن الكنائس ثلاثة أقسام: منها مالا يجوز هدمه، ومنها ما يجب هدمه، كالتي في القاهرة ومصر والمحدثات كلها ـ ومنها ما يفعل المسلمون فيه الأصلح كالتي في الصعيد وأرض الشام، فما كان قديماً على ما بيناه...)[1].

وذكر الونشريسي إجماع الأئمة المالكية على وجوب هدم الكنائس المحدثة في ديار الإسلام سواء كانت مما مصره المسلمون أو فتحوه عنوة، وعدم جواز هدم ما صولحوا عليه من البلدان[2] على نحو ما تقدم تفصيله في كلام ابن جماعة وكلام ابن قيم الجوزية.

محاولات المغيلي إقناع علماء فاس المعارضين له برأيه:

رأى المغيلي أن يناظر علماء فاس المعارضين له في مسألة اليهود ليقنعهم برأيه مشافهة بعد أن لم يقنعهم كتابه، وجاء أكثر ردودهم معارضاً لرأيه، فأصر على مناظرتهم وجهاً لوجه، فجاءهم من توات، ومعه مماليكه الخمسة الذين يقال أنهم كانوا يحفظون المدونة، وتلقاه العلماء خارج مدينة فاس بمظاهر الإكرام والإجلال، غير أنه بادرهم بفتح المناظرة طالباً من أحد مماليكه: الفقيه ميمون أن يكلمهم في

---

(1) أحكام أهل الذمة ج ٢ ص ٦٨٦ ـ ٦٨٧ الطبعة الثانية، دار العلم للملايين ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.

(2) انظر ما ذكره الونشريسي في المعيار ج ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ـ ٢٤٠ وما بعدها.

نازلة اليهود، فأنف العلماء من الكلام مع المملوك، ورجعوا إلى ديارهم مغاضبين.

ولم تنتج بعد ذلك ملاقاة المغيلي بسلطان فاس محمد الشيخ الوطاس بسبب وشاية العلماء به وتحذيرهم إياه منه ـ حين دخل عليه وتكلم معه على نصرة الدين، وفي مسألة اليهود. فأجابه السلطان بأنه يتعدى على هذه الديار، وعليه قصد غيرها، فخرج المغيلي من عنده غضبان أسفاً[١].

رحلة المغيلي العلمية إلى بلاد السودان ودعوته الإصلاحية فيها

لما دب اليأس في نفس المغيلي من إصلاح الأوضاع في بلاده فضل أن يهاجر إلى بلاد السودان بعد أن سبر غور طبائع أمراء وسلاطين السودان فوجد أن فطرهم أسلم من فطر أمراء المغرب، وأن استعدادهم لتقبل الدعوة ونصائحه في الإصلاح أقوى من استعداد أمراء بلاده، فتوجه إليهم ينشر مبادئه وأفكاره الإصلاحية ويفتي الأمراء هناك بما يتمشى مع منهج الإسلام الصحيح وتصوره لنظم الدولة الإسلامية.

فغادر توات بعد إيقاعه باليهود فيها قاصداً بلاد السودان معلماً مرشداً مصلحاً داعياً إلى الله. فدخل بلاد أهر أو أير، ثم دخل بلدة تكدة واجتمع بحاكمها ومكث بين ظهراني أهلها مدة من الزمن ونشر العلم بين أهلها، وأقرأ أهلها وانتفعوا به. وكان يمارس فيها التدريس والوعظ، وأفاد أهل تلك البلاد كثيراً[٢]. ويذكر أنه امتحن على يد حاكم تكدة فأثبت جدارة فائقة. وبنى مسجداً في قرية إياتول شمال

---

(١) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج ١ ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، وانظر دوحة الناشر ص ١٣١.

(٢) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٣٣١.

شرق أجاديس، حيث أخذ يدرس أهالي المنطقة[١] ومن الذين حضروا دروسه في تكدة الفقيه: محمد بن أحمد ابن أبي محمد التازختي[٢] المعروف بأيد أحمد[٣] والعاقب الأنصمني[٤].

المغيلي في كانو

اتجه المغيلي من تكدة إلى كشنا وكانو داعياً إلى الله ومدافعاً عن الإسلام وموجهاً الحكام إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية والعمل بسنة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

وصل المغيلي إلى كانو والتقى بحاكم كانو الذي لم يذكر أحمد بابا اسمه واكتفى بقوله: (واجتمع بصاحب كنو واستفاد عليه وكتب له رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده)[٥]. ولكن الراجح أنه التقى بسلطانها حينذاك: محمد بن يعقوب رمفا الذي كان يتربع على عرش كانو في الفترة الزمنية ٨٦٧ ـ ٩٠٤هـ الموافق ١٤٦٣م ـ ١٤٩٩م أو ابنه الذي حكم كانو من ٩٠٤ ـ ٩١٤هـ/١٤٩٩ م ـ ١٥٠٩م لأن المغيلي رجع إلى بلاده بعد أن طوف ببلاد أخرى بعد كنو مثل كشنا وغاو[٦] بعد أن نشر العلم فيها ووضح لحكامها الطريقة الإسلامية الصحيحة في الحكم ووضع لهم القواعد التي يجب السير عليها في نظام الحكم وقرر لهم كثيراً من الأحكام.

---

(١) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا منذ القرن الثامن الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري. ص ٤٥٣ مخطوط تأليف مهدي زرق الله.

(٢) تاريخ السودان ص ٣٩ لعبد الرحمن بن عبد الله السعدي، طبعة هوداس والتازختي: بلدة بالقرب من والاتا المشهورة.

(٣) كلمة أيد معناها (ابن) لغتهم، كما ذكره السعدي في تاريخ السودان ص ٣٩.

(٤) نيل الابتهاج ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٥) النيل ص ٣٣١.

(٦) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٤٥٤.

لقد استفاد حاكم كانو من المغيلي حيث اتخذه مستشاراً له وولاء القضاء والإفتاء بكانو في الفترة التي قضاها ببلاده، وكتب له رسائل رسالة في الإمارة وشروطها ويحضه فيها على اتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ورسالة أخرى فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام.

فمسئولية الحاكم عند المغيلي مسئولية خطيرة ليست كما يتوهم أمراء بلاده، ميلاً إلى الهوى وتهاوناً بالواجبات الشرعية وانحرافاً عن تعاليم الدين والصلاح، فقد أعطى المغيلي - في رسائله إلى أمراء السودان - بياناً شافياً وتصوراً واضحاً للمفاهيم الإسلامية التي يجب أن يلتزم بها الحاكم والمحكومون من وجوب استشعار أن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله ﷺ ووجوب إحسان النية فيها، وما يجب على الأمير في خاصة نفسه ومجلسه وبطانته، وترتيب مملكته وحسن اختيار أعوانه وعماله، ووجوب التزام الحذر في الحضر والسفر وشدة مراقبة العمال ومدى التزامهم بالعدل، وما يجب عليه وعليهم من جبي الأموال من وجوه الحلال وتوجيهها في مصارفها الشرعية، وردع الناس عن الحرام وجميع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية، وأن لا يفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه إلا إذا رؤي أنه لا يرجع لغيره، وأن يمنع جميع أهل البلاد عن جميع أنواع الشرك وكشف العورات وشرب الخمر وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات، ومنع كفار البلاد من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل، وغيرها من المحلات لأنهم لو تركوا وذلك لكان ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول. وأن الناس في حكم الله ورسوله سواء، فلا تخرج من ذلك عالماً ولا عابداً ولا شريفاً ولا أميراً.

هذا خلاصة ما جاء في رسائل المغيلي إلى أمير كنو في شئون الإمارة والحكم والسياسة الشرعية. وهذا يدل على أن موقف المغيلي

من سلاطين عصره هو موقف الناقد والناصح المرشد المصلح. وليس موقف الطامع في مال، أو الباحث عن لقمة عيش أو جاه[1] لكي يظهر لنا جلياً مدى تأثير تلك الرسائل على حكام بلاد الهوسا وعلى المجتمع السوداني كله. ومدى غيرة المغيلي مصلحاً على الإسلام والمسلمين ومدى علمه فقيهاً وإماماً وداعية ظهر أثره في توجيه المجتمع السوداني وامتد أثره بعده في إصلاح المجتمعات السودانية بالإسلام.

ولأهمية رسائله إلى حاكم كانو وظهور تأثيرها عليه وعلى مجتمعه نذكرها هنا لإعطاء القارىء الكريم قناعة تامة بأثر هذا العالم الجليل في الإصلاح والتوجيه.

أولاً: رسالة المغيلي لسلطان كانو في شئون الإمارة وشروطها. وقد رتبها على ثمانية أبواب مختصرة حسب الموضوعات التي طرقها. ونصها[2]:

أما بعد: وفقك الله للتقوى، وعصمك من نزغان الهوى! فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذبحته التقوى بقطع أوداج الهوى، وإن جار ذبحه الهوى، بقطع أوداج التقوى. فعليك بتقوى الله: ﴿كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[3].

---

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) انظر نص رسالة المغيلي في كتاب (الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني) ص ٧٥ وما بعدها تأليف آدم عبد الله الألوري. الطبعة الثانية عام ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ورسالة المغيلي موجودة في جامعة سكتو قسم الدراسات الإسلامية مخطوطة.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

الباب الأول: يجب على الأمير حسن النية في الإمارة، ويجب على كل ذي عقل وديانة أن يبتعد عنها إلا إذا لم يكن له بد منها، فيتوكل على الله فيها ويستعين به في أمره كله، وينوي أن ينال بها رضى الله في إصلاح أمور عباد الله الدينية والدنيوية، ويعلم أن الله ما ولاه عليهم ليكون سيدهم بل ليضلح لهم دينهم ودنياهم، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثاني: فيما يجب على الأمير من تحسين الهيئة في مجلسه بإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله، وفي لباسه أن يلبس المباح للرجال غير متشبه بالنساء، ولا مفسد لبيت المال، ولا يتزين بذهب، ولا فضة، ولا حرير، وفي جلوسه يجب أن يجلس بالوقار والسكينة من غير عبث ولا قهقهة، مع غض البصر، والإقبال على الرعية بالحق، وأقبح القبائح كذب السلطان وإخلاف الوعد، والغفلة في أمره ونهيه. وفي دائرته بأن يقرب منه الأخيار والعلماء والأتقياء والصلحاء والزهاد، ويبعد عنه الأشرار والجهلة والفجار. وفي قسم بيت المال بأن يؤثر رعيته على نفسه وأهله، فلا يكن عبد ثوب، ولا حصان ولا بساط، ولا مكان، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثالث:

فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها، لأنه راع على جميعهم، وهو مسئول عنهم، ولا يتمكن على ذلك بنفسه، بل بالنواب.

فمنهم وزراء: أي الأعوان في سياسة جميع الرعية لا يخشون إلا الله.

وأئمة: يوالون على البلاد البعيدة عنه يجمعون له الناس حين يحتاج إليهم.

وقضاة: أي الذين هم تقاة يفصلون الخصومات.

ومحتسبون: أي أهل الحسبة الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، ويكشفون أمور القرية وغيرها من المجامع، ويصلحون ما فسد.

وشرط: أي أعوانه في تنفيذ الأحكام.

وخدام الحضرة: يتصرفون في حوائجه لئلا يحتاج إلى غيرهم.

وعقلاء: يشيرون له في الأمور قبل عامة الناس.

وأمناء: يقبضون الأموال ويصرفونها إلى الرعية في مصارفها.

وكتاب: حساب يحفظون جميع الأشياء.

ورسل: يكونون سفراء في بلاد الإسلام.

وجساس: يكونون عيوناً في بلاد الأعداء.

وحفظة: يحفظون الأمير في بلده نهاراً.

وعساس: يحفظونه ليلاً.

وعلماء: ثقاة في العلم والتقوى يرشدونه في جميع أموره.

وشفعاء: يشفعون من اقتضى الحال بشفاعته من ذوي المروءات إذا عثروا في التعزيرات لا في الحد والحقوق.

ومنظمون: أي الصلحاء لوجه الله تعالى.

وعمال: يجبون حق الله كالزكاة وبيت المال.

وحصن: حرز حصين مكفى بالخزائن من طعامه وشرابه وسوقه.

وخيل: أفراس حديدة تعد من بيت المال في كل قرية يحبسها للجهاد.

وظهور: زاد يعد من بيت المال لحمل الفقراء إلى الجهاد ونحوه.

ورجال: شجعان حاضرة في كل أوان عند الأمير لأمور تعرض.

وعدد: من آلات الحرب ونحوها متينة قوية.

وأطباء: أمناء يطببون الناس لئلا يحتاجون إلى الخروج إلى غير بلاده.

وأمراء الجيوش: الذين ينوبون عنه في سد الثغور وترتيب الجيوش وحفظ بيضة الإسلام، واستعداد البلغاء الذين ينشطون القلوب ويقبحون الهروب.

وعرفاء الحروب: الذين برأيهم تتكشف الكروب، فإن الحروب خدعة ليس بكثرة ولا سرعة، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الرابع: في التزام الحذر في الحضر والسفر، بإظهار القوة والجلد عند تغيير الأحوال بالخوف، وإظهار الزهد في الصاحبة والولد لئلا يمنعه ذلك عن العدل. قال تعالى: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾[1] وإظهار الرغبة في الأبطال والعدد وحب الخروج إلى الجهاد، وبغض المقام في الديار بلا نهوض إلى الأعداء، ومقام السلطان في داره عن رعيته هو رأس كل فتنة وضرر، فالملك بالسيف لا بالتسويف، أي لا يحصل بقوله: سوف نخرج إليهم، سوف أفعل، وهل يدفع الخوف إلا بالتخويف؟ إن كل من خوفك لا تسلم منه إلا بتخويفك إياه لا بالهروب منه، وطلب الصلح معه: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾[2].

ويجب عليه الحذر في طعامه وشرابه وفراشه: أن لا يوليها إلا أقرب أحبائه إليه، وفي مجلسه ألا يفارق السلاح وأهل الأمانة والصلاح من الشجعان الرماة والفرسان، وليس وقت الخوف كوقت الأمان.

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٤.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٥.

وفي سره أن يكتمه حتى يتمكن، وفي النمامين بعدم قبول قولهم ولو كانوا أكثر من سبعين. وفي المتهمين ألا يغتر بظواهر رسل الهداية آمنهم عيوناً، وأصدقهم كيساً: ﴿وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون﴾[1].

وفي الحصون القريبة من الأعداء أن يزيل كل حصن لم يتمكن من أن يسكن أمناء فيه، لئلا يستند أعداؤه إليه، وليخف من الحبل لئلا تلسعه الحية، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الخامس: فيما يجب كشفه من الأمور التي يجهل في رعيته بالعدول والأمناء: كأمور المحبوسين والأوصياء على الأيتام، وحجر المهمل من يتيم وسفيه يأمر برفع أمره إليه، وكأمور الغياب وإرث الأموات وأمور بيت المال وأرزاق العمال على الاستبصار والورع لا على الإضرار والطمع، وكأعمال العمال وما يزيد لهم فيها من الأموال، فمن ظهر منه تقصير زجره أو ظلم عزله، أو شكوى منه أبدله إن وجد بدله وإلا انتقد من الأمناء، ومن زاد له مال على ما يعطى أخذه وجعله في مصالح المسلمين، وإن شك فيه قاسمه، وليكن عليهم كراع الماشية بين الأسود الضارية، فمن عمال السوء جميع الفساد.

إذا كنت في أمر فقم فيه ناصحاً	وإن تستنب فاختر خياراً لأهله
ومن يأت بالكلب العقور ببابه	فعقر جميع الناس من سوء فعله

عمل عاملك عملك، إن أحسن، فالثواب لكما، وإن أساء فالعقاب عليكما وكأمور المتهمين بالفساد فإن قريب التهمة بوجود علامتها، فلا بد من كشفه، فإن ثبت عليه وإلا توعده وزجره بحسب قربه وبعده، وكأمور الأعداء فلا بد من كشفها بالجساس الأمناء، فإن

(١) سورة النمل: الآية ٣٥.

الجهل عمي، وبصير واحد يغلب ألف عمى، وأعظم البلية الغفلة عن الرعية، وكذم الذامين ومدح المادحين فلا بد من كشفه من الأمناء.

الباب السادس: فيما يجب عليه من العدل والإحسان. فالعدل أن يوفي كل ذي حق حقه من نفسه وغيره، سواء كان الحق عليه أو على غيره من رعيته، فمن لا يأخذ للرعية حقوقهم من بعضهم ليس بعدل.

وأما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه، أي يزيد لكل من أراد أن يحسن عليه زيادة على حقه مما كان من نصيبه، لا ما كان من نصيب غيره، فمن كان يحسن إلى الناس بإعطائهم أكثر ما يستحقون مما لجميع الناس شركة فيه بغير إذنهم فليس بمحسن بل ظالم، لأن ما يحسن به ليس ما اختص به شرعاً، فافهم هذا الأمر ولا تهمله.

ومن العدل أن يسوي بين الخصمين في جميع أمورهما، وأن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلاً رضي فيما لا تهمة له فيه، فإن تعذرت العدالة فعليه أن يراعي أمثلهم في الصدق مع كشف واستكثار، لا يكتفي باثنين مع السياسة والاستبصار، ثم لا بد أن يطلع المطلوب على أسباب الطالب، ويعذر إليه إذا أراد أن يحكم على المطلوب فلا بد أن يطلعه على الأسباب التي سببت الحكم عليه، ثم يعذر إليه بقوله: أبقيت لك حجة، فإن قال: نعم تلوم له، وإن قال: لا حكم عليه، ثم بعد مشاورة العلماء ولا يجوز له الحكم في شيء إلا بمشهور مذهب إمامه، فإن الحكم بغير المعتمد جور وضلال يجب نقضه على كل حال، وتختص دعاوى الجنايات بأنواع السياسات.

فالجنايات كالسرقة وقتل النفس، فمن ادعى عليه بالسرقة من غير بينة فلا يخلو من ثلاثة: قسم بعيد عما نسب إليه فلا يلتفت لدعوى المدعي بل يؤدب لأجل المدعى عليه، إن كان من أهل الصلاح.

وقسم قريب من الدعوى، فلا بد من حبسه وتهديده وجلده بحسب الجريمة وبعده من التقوى، وربما يغرم بمجرد الدعوى واليمين حيث علم بمثل الدعوى واشتهر وتكرر منه، لأن شهرته بما نسب إليه

صارت شاهداً للمدعي عرفاً، ومن تكرر منه الإذاية واشتهر حبس حتى تظهر توبته أو يقبر، وقسم مجهول الحال فلا بد من اعتقاله، أي حبسه، وكشف الحاكم عن حاله ثم يحكم له بحكمه، وإلا أرسله بعد سياسة وتهديد، وكشف ووعيد، بحسب ما يقتضيه النظر من التشديد. كل ذلك بالتقوى، لا بالهوى، وليس كل الناس سواء. ومن ادعى عليه بقتل نفس فلا بد فيه أولاً من حبس بالحديد وكشف وتهديد، ثم إن ظهر الأمر عمل عليه وإلا نظر في قربه وبعده مما نسب إليه، فإن قرب طول في اعتقاله، وإن بعد عجل بإرساله. ولا بد للأمير الأعظم أن يجلس في كل يوم للناس بحيث يصل إليه جميع الناس، ولا يكفيه القضاة والعمال، لأن شكوى الرعية قد تكون منهم، ويجب عليه أن يزجرهم وإلا فهو كمسلم الدار لأربابها وكماسك قرون البقر لحلابها. وقد عزل الخلفاء العمال الصالحين بسبب الشكوى وهو أقرب للتقوى. ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب السابع:

فيما يجب عليه من جبي الأموال من وجوه الحلال، ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾[1] وملاك السلطنة هو الكف عن أموال الناس بأن لا يطلب منهم شيئاً لم يكلفهم الله به، والطمع في أموالهم خراب المملكة، فمن الأموال التي حلل الله للأمراء قبضها وصرفها: زكاة العين والحرث والماشية والفطر والمعدن وخمس الغنيمة والركاز، وأموال الجزية والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب. فإذا كان الأمير عادلاً في صرف مال الله وجب على من بيده شيء من زكاة وغيرها أن يدفعه له ليصرفه، وإن لم يكن عادلاً فلا يعطيه فتأمله.

---

(١) سورة الطلاق: الآية ١.

ومن الأموال التي حرم على الأمراء وغيرهم كل ظلم. ومن الظلم ما يأخذه الأمير على تولية القضاة أو غيره، وهو حرام بإجماع المسلمين وذريعة لإفساد الدين، وفتح لأبواب الرشى وقهر المساكين، لأن الولاة يرون حين أخذ منهم المال على الولاية لا بد أن يأخذوا المال من الرعية فيقهرون عصمة الله من ذلك.

ومن الظلم الرشى لسلطان وقاض وعامل، وهو أن يأخذ من أخذ الخصمين أو من كليهما شيئاً قبل الحكم أو بعده. وكذا قبول الهدية من الرعية فإنه باب كل بلية.

إذا دخلت الهدية على ذي سلطان خرج عنه العدل والأمان وصار صاحبه بالخيانة.

ومن الظلم العقوبة بالمال كأخذ مال السارق والزاني وهي حرام على كل حال، إلا إذا كانت جناية الجاني متعلقة بذلك كلبن خلط بالماء، فالصدقة به حلال. ومن الظلم المكس وهو حرام بإجماع المسلمين ومن الظلم أخذ العشر أو غيره كالنصف والثلث من أرباب الحقوق والتركات، وهو حرام بإجماع المسلمين ونصوص الآيات.

الباب الثامن:

في مصارف أموال الله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[1] ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[2]. فيجب على الأمير صرف أموال الله في مصارفها بالكرم، لا بالبخل، والتبذير، فالكرم هو بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم ولاحظ له من الكرم، وهو: إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال. وفي كل منهما

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

خراب المملكة على كل حال. فيجب على من كان جبلته أن يستنيب من عطايا مملكته ثقاة خاصة أهله فمال الله قسمان:

قسم زكاة مصارفه الأصناف الثمانية التي في القرآن، ويجب صرفها في محل الوجوب ناجزاً إن وجد به مستحق، وإلا نقلت لأقرب مكان فيه. وإن كان في محل وجوبها بعضها، ونقل للأحوج بعضها بحسب الاجتهاد، وأجرة نقلها من الفيء لا منها، ولا يجب تعميم الأصناف كلها، بل إن أخرجت لبعضها أجزأت، إلا أن تعطى للعامل فقط فلا تجزى، ويقدم الأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج، ويفضل بعضهم على بعض بقدر الحاجة. ومصرف زكاة الفطر صنفان الأولان فقط أي الفقراء والمساكين ولا يعطى حارسها منها.

والقسم الثاني: الفيء كخمس الركاز والمعادن والغنيمة وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح، وما يؤخذ من تجارتها وخراج الأرضين وتركة لا وارث لها، وما أفاء الله من أموال الحرب بلا حرب، فصرف ذلك حكمه إلى الإمام يصرفه في المصالح بالتقوى، لا بالهوى، وأحق الناس بالتوسعة عليه من مال الفيء حماة الدين من قضاة المسلمين والعلماء الأتقياء المرشدين، وأهل كل بلد أحق بفيئه من غيرهم، إلا أن تنزل بغيرهم حاجة فينقل إليهم شيء منه بعد إعطاء أهلها ما يغنيهم على أرجح النظر، فإن كان غير أهل بلد المال أحوج من أهل بلده نقل لهم الأكثر بحسب النظر. وسيرة أئمة العدل في قسم الفيء أن يبدأ الإمام بسد مالا غنى من سده من حصن وسلاح وغيره، ثم بأرزاق العلماء والمقاتلين، ثم بالفقراء الأحوج فالأحوج، حتى يعمهم بأجمعهم من ذكر أو أنثى وصغير وكبير، فإن اتسع المال أبقى منه في بيت المال شيء لما يحدث من النوائب وبناء المساجد وفك الأسارى وقضاء الديون ومؤنة تزويج العزاب، وإعانة الحجاج، وغير ذلك من وجوه الاحتياج فهذه سنة صرف أموال الله للمسلمين. ولكن الظالمين اليوم في ضلال مبين، قطعوا العدل والإحسان، ووصلوا الظلم

والبهتان، فقلت أرزاقهم وساءت أخلاقهم، وجاءهم الموج من كل مكان.

ثانياً: وصية المغيلي لسلطان كانو المذكور:

وموضوعها: (فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام).

كتبها له بسؤال السلطان عما يجوز للحاكم شرعاً فعله لردع الناس عن المعاصي وهذه الرسالة كسابقتها تظهر لنا الحركة الإصلاحية النشطة التي قام بها المصلح الكبير الإمام المغيلي في السودان ودوره في نشر وتدعيم المفاهيم الإسلامية الصحيحة، والعمل على تثبيتها في نفوس الأهالي. وتوجيه الحكم للعمل بها في طبع المجتمع بطابع إسلامي صرف وقمع الفساد والشر بالمقامع الشرعية.

ونصها:

من عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى أبي عبد الله محمد بن يعقوب، سلطان كنو وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه من أمور دينه ودنياه... سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، فاعلم أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، إنه لا بد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده، مع إمكان ردعه عنه أو لعنه، أو حبسه، أو ضربه، أو صلبه، أو قتله، أو نفيه، أو نهب ماله، أو حرق بيته أو غير ذلك من العقوبات الشرعية. لكل داء دواء، ولكل مقام مقال وفعال، بحسب ما يظهر من الأحوال، فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال، ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم ينته، لأن ردع ذلك ومثله حق الله تعالى ورسوله.

وأمنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة

وشرب الخمر وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات، وأمنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل، وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في شهر رمضان، أو زنا، أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم، لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول من العامة والنسوان والصبيان، لاسيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى والأصل كان ذلك. وقد قال العلماء: الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب.

فانههم عن ذلك، وأشهر إنكاره وتوعد بالعقوبة لمن فعله، ثم بعد ذلك عاقبه بأقرب شيء يردعه ويردع مثله، وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع يده أو رجله أو صلبه أو قتله، أو غير ذلك من الروادع الشرعية فافعله لأنه ظالم، والظالم أحق أن يحمل عليه.

ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه، إلا إذا رأيت أنه لا يرجع لغيره، مثال ذلك: من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم، أو إجلائهم، أو بيع الكفار منهم، أو غير ذلك فافعله ولا تبال. من لم يستر أمته أو عبده ولم ينته إلا ببيعه عليه أو بأخذه منه فافعل ولا تبال، وكذلك من يغش بمسحات ناقصات وأبى أن ينتهي عن المعاملة بها فخذها منه واجعلها في مصالح المسلمين. وأما من لم يغش بها ولا أبى أن ينتهي فمره بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يلتقي ما يأتي للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله، وبيعه على يده، وإن لم ينتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذلك منهم فافعل لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان، وليس الخبر كالعيان، ولذلك قال الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور) فلا بد من

إزالة الفساد على كل حال. وإن تعارضت مفسدتان إحداهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى. وهذا الذي بينا لك يكفيك إن شاء الله في تلك المناكر وغيرها.

وإن الناس في حكم الله ورسوله سواء فلا تخرج من ذلك عالماً ولا عابداً ولا شريفاً ولا أميراً، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى، لا بالهوى. ومن عارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله، وإن لم يكن إلا بقطع يده أو رجله أو أنفه أو صلبه فافعله ولا تبال، ولكن بعد ثبوت وتثبيت في ذلك كله، ومقابلة كل واحد بما يليق به، بحسب حاله من الخير والشر والتواضع والطغيان، فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان، وليس الخبر كالعيان، والله المستعان، وعليه التكلان.

وفي هذا القدر كفاية لمن سبقت له العناية. وكلما نوصيك به من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك، وإذا نسيت شيئاً منه فلا تنسى أن من غير حكم الله فقد كفر، ومن تغير حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضياً، لأنه يحكم بالظلم وهو يقول: هذا هو الشرع، ومن فعل ذلك فهو كافر، لأنه صير الباطل حقاً، والحق باطلاً، فإن كان لا بد أن تجعل بعض الظالمين حاكماً فلا تجعله باسم القاضي، فإن القضاء من صفات رسول الله ﷺ لا يوصف به إلا عالم تقي لا يأخذ الرشا، ولا يحكم بالهوى.

الله، الله، الله. وهذه الوصية هي أوكد جميع الوصايا أما يكفيك أن تظلموا باسم السلطنة فتكونوا مذبذبين ترجون رحمة الله ثم تظلمون باسم الشرع، حتى تكونوا كفاراً، والكافر لا نصيب له من رحمة الله، فطهر مقام الشريعة من خبث لأنه مقام رسول الله، لعل الله أن يغفر لك ذنوبك جميعاً، والسلام على من اتبع الهدى. وكتبه ٨٩٧[١].

---

(١) الإسلام في نيجيريا ص ٨٥.

بعد أن أنهى المغيلي دوره العظيم في بلاد كانو واطمأن باستقرار وتوطيد إمارة كانو على أسس الشريعة الإسلامية الصحيحة وتصحيح المفاهيم المغلوطة. وبعد أن أرسى قواعد الدعوة الإسلامية وتوجيه الحكام إلى العمل بها وطبع المجتمع الإسلامي عليها، وبعد أن ترك تلاميذه من أهل كانو الذين يؤمنون بمنهجه في الدعوة ومنهج الإسلام الصحيح في الحياة العملية. بعد ذلك كله غادر كانو إلى كشنا. وقال بالدور نفسه الذي قام به في البلاد التي مر بها وجرى سلاطين وأمراء تلك البلاد على استشارته وبعد ذلك كله رحل إلى أمبراطورية سنغاي الإسلامية فوصل عاصمتها غاو سنة ١٤٩٨م والتقى بحاكمها أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد. ـ كما يسميه السعدي في تاريخ السودان[1] ـ ورحب به. وجرى على طريقته من الأمر بالمعروف، واتخذه أسكيا مستشاراً له.

ووجه أسكيا بأسئلة عديدة هامة إلى الإمام المغيلي إمام المسلمين في عهده في السودان كلها وأثار الأمير محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا المشاكل الاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت تواجهه في بلاد السودان.

فأجابه المغيلي بأجوبة هامة في رسالة أوضح له فيها الفتاوى الإسلامية وحكم الله ورسوله في الموضوعات التي أثارها الأمير في أسئلته. وكان المغيلي على علم تام بأحوال السودان الغربي ومطلع عليها في ذلك الوقت، لذلك كانت أجوبته شاملة تناول فيها الجوانب العقائدية والدينية والأحوال الاجتماعية والسياسية في بلاد السودان. ولم يترك شيئاً يعرفه إلا تطرق له بالتوضيح والتفصيل.

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١١، ونيل الابتهاج ص ٣٣١ وتاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٠ ـ ١٢ للقاضي محمود كعت طبعة باريس ـ هوداس. ويرى عبد القادر زبادية أن المغيلي كتب الجواب عن أسئلة أسقيا سنة ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣م. انظر ص ٦ من التحقيق ويذكر مهدي رزق الله أنه زار غاو عاصمة سنغاي سنة ١٤٩٨ م انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقيا ص ٤٥٥.

أهمية أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي

مقدمة:

كان الأمير محمد أسكيا سني المذهب سلفي العقيدة يهتم كل الاهتمام بإصلاح حال رعيته وتقويم السلوك فيها. بما يتلاءم والعقيدة السلفية وسنة النبي ﷺ التي اختارتها البلاد ويؤمن هو شخصاً بها وكان أسكيا فاهماً حقيقة الإسلام ومنهجه السليم في نظام الحكم، وكان قد حج في موكب عظيم واتصل بالعلماء في مصر وفلسطين ومكة والمدينة وسألهم واستفاد منهم وقدموا له نصائح. وقد وصفه القاضي محمود كعت الذي كان من مرافقيه في حجه، بقوله: (ومن الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب المنصور...)[1].

ثم قال: (فلما ثبتت له السلطنة واستقامت المملكة خرج من ذلك كله وجعل يسأل العلماء العاملين عن سنة رسول الله ﷺ ويمشي على أقوالهم رحمه الله حتى اتفق جميع علماء عصره على أنه خليفة: وممن صرح له بذلك الشيخ عبد الرحمن السيوطي[2]، والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي؛ والشريف العباس أمير مكة رحم الله الجميع[3]. وكان الأمير أسكيا محمد يدرك الأوضاع الدينية والسياسية

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٠ وانظر لعدل الأمير أسكيا تاريخ السودان ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق ص ١١ - ١٢ وكان اجتماع السيوطي بحاكم سنغاي الأمير محمد أسكيا في أثناء مروره بمصر إلى الحج عام ٩٠٢ هـ، كما اجتمع بغيره من العلماء البارزين في القاهرة وغيرها وقدموا له نصائح وإرشادات مفيدة أسهمت بدور كبير في تطوير وتنظيم نظام حكمه وفق تعاليم الشريعة الإسلامية كما ساهمت تلك النصائح والإرشادات بشكل فعال في تطوير التعليم الإسلامي في السودان الغربي كله. انظر تاريخ السودان ص ١٦. والثقافة العربية في نيجيريا ص ٤٥ لعلي أبو بكر، الطبعة الأولى.

(٣) تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ص ١٢.

والاقتصادية والاجتماعية التي سيطرت على المجتمع منذ عهد سني على الذي كان قبله من مفاهيم دينية مضطربة وخاطئة في أكثرها وتقاليد تعمقت جذورها في النفوس. لا تمت إلى الإسلام بصلة، لذلك كان يرى أنه لا بد من تغيير ذلك كله، ولا بد لهذا التغيير من التصدي لجميع جوانبه بمنهج إسلامي سليم واضح، لهذا كانت أسئلة الموجهة للمغيلي تدور حول دور العلماء في نصح الحكام، وانحراف المجتمع وحكامه. وحكم إسلام الحاكم الذي كان قبله ـ سنى على. وغير ذلك من الأسئلة السياسية والاجتماعية.

أهمية الأسئلة:

تتجلى فيما يلي:

١ ـ تعتبر أسئلة الأمير محمد أسكيا الوثيقة الإسلامية المباشرة الوحيدة التي وصلت إلينا من سلاطين سنغاي أنفسهم التي توضح لنا مدى قوة ارتباط أولئك الحكام بالإسلام في نظام حكمهم كما تبين لنا سلفية عقيدة ملوك السنغاي في ذلك العهد. فقول أسكيا في معرض عرض أسئلته على المغيلي بعد كلامه على عدم أمانة فيمن ينسب إليه العلم من علماء بلاده... وأنا أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل، الذي أبت السماوات والأرض عن حمله، ثم أطلب من الله ثم منك أن يفتي لي بما علمك الله في هؤلاء القراء، هل يجوز لي أن نعمل على قولهم في دين الله ويخلصني تقليدهم عند الله أو لا يحل لي ذلك...؟[1].

هذا الأسلوب الذي انتهجه أسكيا في صياغة السؤال يدل على صفاء عقيدته وبعده عن الشرك وفهمه لعقيدة السلف الصالح واجتنابه العبارات الي تؤدي إلى الشرك.

---

(١) أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ص ٢٢ تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية نشر الشركة الوطنية بالجزائر سنة ١٩٧٤ م (وأسقيا) تكتب بالكاف والقاف.

٢ ـ أنها تلقي الضوء الكاشف عن حقيقة الوضع الديني، والاجتماعي والسياسي بأمبراطورية سنغاي أثناء حكم آل أسكيا[١] وهذا أمر مهم بالنسبة للباحث المسلم الذي يريد أن يطلع على تاريخ أمته الإسلامية والدور الذي أداه سلفه لخدمة هذا الدين. كما أن هذه الأسئلة تكشف أيضاً عن الأوضاع الدينية والاجتماعية في عهد حكم سني علي.

فالأسئلة منصبة على تبيان الأحوال الدينية والاجتماعية التي تشغل بال السلطان وكيفية تعامله كحاكم مسلم مؤمن مع العادات والتقاليد والأعراف السائدة في بلاده المتأصله في النفوس والتي تخالف في معظمها العقيدة الإسلامية ومنهج الإسلام السليم في المعاملات.

٣ ـ تبرز أهمية الأسئلة في الكشف عما كان عليه السلطان محمد أسكيا من الحرص الشديد على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في جميع الجوانب الاجتماعية والسياسية في بلاده، والاسترشاد بهدي القرآن والسنة النبوية في كل خطوة يخطوها. لذا بسط عدداً من المواضيع الدينية والاجتماعية والسياسية التي تشغل باله كرئيس دولة إسلامية كبيرة يريد إصلاح رعيته وفق أحكام الشريعة لذلك بسط تلك المواضيع في أسئلته ليعرفها المغيلي ويجيب عليها حسب مفاهيم الإسلام.

كما أن طرح الأسئلة من قبل السلطان محمد أسكيا على عالم كبير ذائع الصيت في مجال الدعوة والإصلاح ومحاربة أهل الفساد

---

(١) أسكيا أو أسقيا لقب لمحمد أسكيا الأول الذي قام بثورة على سن علي. وانتزع الحكم من آل سني علي يقال لما سمعت بنات سن علي خبر استيلاء محمد أبو بكر على الحكم قلنا: (أسكيا) ومعناه في كلامهم في لغة سنغاي: لا يكون إياه. فلما سمع محمد ذلك أمر أن لا يلقب إلا به. فقالوا: أسكيا محمد. انظر تاريخ السودان ص ٧٢.

والزيغ بهذه الصراحة والوضوح يعطينا صورة واضحة عن نظرة أسقيا إلى العلماء في وقته. فقد وصفهم بعدم الأمانة وعدم الفهم لمقاصد العلماء. كما توضح الأسئلة منحاه السياسي بشكل عام وجانباً كبيراً من تقاليد البلاد أثناء حكم الأسقيين لأمبراطورية سنغاي الواسعة، وفي عهد سني علي أيضاً.

٤ ـ إن هذه الأسئلة تدل بصورة واضحة على ما وصلت إليه الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية من الازدهار في السودان الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. أي التاسع والعاشر الهجريين. ويعتبر عهد حكم الأسكيين سنغاي من أزهى عصور انتشار الثقافة الإسلامية وحضارتها في السودان. كما يمثل الفترة الزمنية التي بلغ فيها ازدهار التبادل التجاري والثقافي بين سكان السودان الغربي والعالم الخارجي ذروته.

فإن الأسلوب الإنشائي الذي كتب به الأسئلة يدل على قوة الثقافة الإسلامية في مملكة سنغاي وكذلك الموضوعات التي تناولتها الأسئلة كل ذلك يكشف لنا عما وصلت إليه مملكة سنغاي الإسلامية أيام حكم الملك العادل محمد أسقيا من الازدهار الثقافي وفهم صحيح للإسلام. وقد كان عهد الإسقيين في أمبراطورية سنغاي الواسعة تتمثل فيه المرحلة التي بلغ فيها انتشار الإسلام واستقراره بالسودان الغربي عصره الذهبي، لم يبلغه في عهد من قبلهم ولا في عهد من أتى بعدهم.

أما أهمية الأجوبة فتتمثل في إبراز صورة واضحة للدور الذي قام به علماء شمال أفريقيا والمغرب من الإصلاح وخدمة الدين في السودان الغربي ومساهمتهم الفعالة في إرساء قواعد الحكم على أسس الشريعة الإسلامية. ولاسيما ما قام به الإمام المغيلي صاحب الأجوبة من جهود مباركة في توجيه الحكام في السودان إلى أحكام الشريعة

وطبع المجتمع بطابع إسلامي صحيح. إن جهود علماء المغاربة في إقامة قواعد سليمة للتبادل الفكري والثقافي بينهم وبين جيرانهم السودانيين قد بدأ منذ وصول الإسلام إلى أفريقية الغربية في القرن الأول الهجري عندما قام عقبة بن نافع الفهري بإرسال فرقة من جيشه إلى مشارف السودان(١).

ومنذ ذلك الوقت أخذ الإسلام بالتدريج بواسطة العلماء والقوافل التجارية وظلت الصلات الثقافية بين الشمال وبلاد السودان تزداد اتساعاً وتعمقاً حتى أصبح السودان جزءاً هاماً من البلاد الإسلامية الواسعة(٢).

وتكمن أهمية الأجوبة أيضاً في أنها تكشف لنا عما كان عليه المغيلي في دعوته الإصلاحية من الاهتمام الشديد بإصلاح أوضاع المسلمين الدينية والسياسية والاجتماعية. وهو من قلائل العلماء الذين حاولوا إصلاح أوضاع المسلمين ما أمكنهم.

كما أن أجوبة المغيلي على أسئلة أسقيا تدل على اطلاعه العميق بأوضاع السودانيين، لذا تضمنت إجاباته أشياء جديدة لم يتطرق إليها أسقيا في أسئلته. ومن هنا تظهر أهمية الأجوبة فهي لا تقتصر على المواضيع التي حوتها الأسئلة من أحوال البلاد الداخلية فقط بل يتعلق قسم منها بعلاقة سنغاي بالإمارات والقبائل المجاورة لها ونظرة تلك القبائل والإمارات لسنغاي في ذلك الوقت. إلا أن قسماً كبيراً منها ينصرف إلى شرح المعاني الدينية أكثر من الأوضاع الاجتماعية.

---

(١) انظر المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٧٩. ورياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية للمالكي أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥١م، وأسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي ص ١٨ تحقيق د/ الزبادية.

(٢) انظر الأسئلة والأجوبة ص ١٨ وانظر أيضاً رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص ٤٤٤ وما بعدها من الصفحات حتى نهاية الكتاب. دار الكتاب اللبناني . مكتبة المدرسة.

فكل من الأسئلة والأجوبة هام جداً للباحث المسلم لانصبابهما على إلقاء الضوء على الأحوال الدينية والاجتماعية والسياسية في بلاد السودان في أمبراطورية سنغاي الإسلامية في عهد الأسقيين.

ولأهمية الأسئلة والأجوبة ولحاجة الباحثين إلى الوقوف على الدور العظيم الذي قام به علماء المسلمين من شمال أفريقية والمغرب في السودان أعرض كامل الأسئلة وأجوبتها على أنظار الباحثين والقراء ليكون الباحث على إلمام تام بأحوال السودان الغربي الدينية والاجتماعية والسياسية في عهد ازدهار الإسلام في تلك المنطقة وليقف على الأثر الفكري العظيم الذي تركه المفكر الإسلامي الكبير والمصلح والمجاهد الإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي في السودان، وإليك نص الأسئلة والأجوبة:

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، إلى الأمير الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الملقب بأسكيا، وفقه الله تعالى ونصره نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً مبيناً (بجاه سيدنا محمد ﷺ).

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني عن مسائل، أولها أنك قلت مذ منّ الله علينا بالإسلام أصابتنا مصيبة في هذا البلد، لعدم الأمانة فيمن ينسب إليه العلم من قراء بلادنا، ومن صفتهم أنهم عجم لا يفقهون من كلام العربية إلا قليلاً من كلام عرب بلادهم على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة، بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء، ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار، ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون في دين الله، ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم من ورثة الأنبياء، وأنه يجب علينا الاقتداء بهم، وأنا أطلب من الله تعالى أن يعينني على حمل هذا الثقل، الذي أبت السماوات والأرض عن حمله، ثم أطلب من الله ثم

منك أن يفتي لي بما علمك الله في هؤلاء القراء، هل يجوز لي أن نعمل على قولهم في دين الله ويخلصني تقليدهم عند الله أو لا يحل لي ذلك، ويجب على البحث عمن نوليه الحكم ونقلده في أمور الدين، وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعاً، ثم أطلب منك أن تشفي غليلي بترتيب الأجوبة على هذه الأسئلة بزيادة ما تيسر لكم من النصيحة أيضاً.

فاعلم أعاننا الله وإياك أن الملك كله لله وما النصر إلا من الله، فكن لله عبداً بطاعته، يكن لك رباً بحفظه وإعانته، إنما أنت مملوك لا تملك شيئاً وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك، وكل راع مسؤول عن رعيته، فانظر لنفسك قبل الفوت، فإنه لا بد لك من الموت قال رسول الله ﷺ «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به مغلولاً يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور»[1] وقال رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي شيئاً من أمر أمتي، فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[2]. وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي، فقام عوف بن مالك، فنادى بأعلى صوته ثلاثاً: وما هي يا رسول الله؟ قال أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة، إلا من عدل وكيف يعمل مع أقاربه»؟[3] قال رسول الله ﷺ: «ما من وال إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه إلا

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده والطبراني من حديث أبي هريرة بسند صحيح. انظر مجمع الزوائد للهيثمي ج ٥ ص ٢٠٨.

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه وذكره النووي في رياض الصالحين ص ٣٥١.

(٣) الحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال الكبير رجال الصحيح ج ٥ ص ٢٠٣.

خبالاً فمن وقى شرهما فقد وقى وهو من التي تغلب عليه منهما»[1]، فإذا علمت ذلك أيها الأمير فعليك بأمرين:

الأول: أن تبعد عنك أهل الشر، وأن تقرب منك أهل الخير، لأن من الغالب على الإنسان التأنس بقرينة والميل إلى طبعه وتزيينه، فمن قربته من نفسك فقد مكنته من أذنك، ومن مكنته من أذنك فقد مكنته من قلبك، لأن الأذن زمام القلب، ولذلك قال مالك بن أنس: لا تمكن زائغ القلب من أذنك، وقال بعض الحكماء:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

وفي ذلك قلت:

إذا قرب السلطان أشرار قومه وأعرض عن أخيارهم فهو طالح
وإن قرب السلطان أخيار قومه وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرء ينبئك عن قرينه وذلك أمر في البرية واضح

وقد بين رسول الله ﷺ ذلك كله بقوله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره وإن ذكر لم يعنه»[2].

الأمر الثاني: أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله في كل ما حملك منها، قال الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزلا لله، فأولئك هم الكافرون﴾[3] ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[4]، ﴿ومن لم يحكم بما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، وفيه اختلاف عما ذكره المغيلي انظر رياض الصالحين ص ٣٦١.
(٢) قال النووي: رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم انظر رياض الصالحين ص ٣٦١.
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٤.
(٤) سورة المائدة: الآية ٤٧.

أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[2]، والذكر هو القرآن، وأهله من اجتمع فيه وصفان: العلم والتقوى، لأن بالعلم يعرف الرشد من الغي، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهي عن الغي، فلا تقيد في دينك إلا من ثبت أنه عالم تقي، لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه، ومن لم يثبت أنه تقي يخاف منه أن يضل بهواه، ألم تر إلى قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾[3]. وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن فتن بذلك»[4].

إن كثيراً من علماء هذه الأمة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد في جميع البلاد، فالجهاد فيهم وفي أنصارهم أفضل من كل جهاد، قال رسول الله ﷺ: «إنه من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال، فقيل من يا رسول الله؟ قال: من علماء السوء»[5]. وعن أبي حذيفة اليماني رضي الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها في كفه، ثم قال: إن الدين قد استضاء إضاءة هذه الحصاة، ثم أخذ كفاً من

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٤.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في الاعتصام باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من كان قبلكم وفي الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ومسلم في العلم باب اتباع سنن اليهود والنصارى، وفي جامع الأصول ج ١٠ ص ٣٥.

(٥) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد بأسانيد مختلفة وفي بعضها (أئمة المضلين) بدلاً (من علماء السوء) والمعنى واحد. انظر ج ٥ ص ٢٤٢.

تراب فجعل يدور على الحصاة حتى وارها، ثم قال: والذين نفسي بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا، كما دفنت هذه الحصاة، ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القذة بالقذة والنعال بالنعال. . .

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بأن لا يتركوا أحداً يتكلم في دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى، حتى يكون من أهل العلم والتقوى، ولذلك لما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه البصرة، دخل جامعها فوجد القصاص يقصون، فأقامهم، حتى جاء إلى الحسن البصري رضي الله عنه، فقال: يا فتى إني سائلك عن شيء، فإن أنت أجبتني عنه أبقيتك، وإلا أقمتك كما أقمت أصحابك، وكان قد رأى عليه سمتاً وهدياً، قال الحسن: سل عما شئت، فقال: ما ملاك الدين؟ قال: الورع، فقال: وما فساد الدين؟ قال: الطمع، قال: اجلس، مثلك يتكلم على الناس.

أليس من أعظم الواجبات على كل أمير أن يطرد عن طرق الدنيا جميع المفسدين؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين؟

وقد تبين بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة أن كثيراً من قراء هذه الأمة إنما هم من علماء السوء، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله فهم لصوص الدين وأضر على المسلمين من جميع المفسدين، ولذلك قال ابن المبارك رضي الله عنه وعنا به:

(وهل أفسد الدين إلا الملوك، وأحبار سوء ورهبانها).

وقال بعض الأدباء:

قضاة زماننا أضحوا لصوصاً عموماً في البرية لا خصوصا
فلو عند التحية صافحونا لسلوا من خواتمنا الفصوصا

فإن قلت قد بينت وأوضحت أن كثيراً من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر إنما هم من علماء السوء الضالين، الذين يأكلون أموال

الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، ولكن كلاً منهم يقرأ القرآن والحديث ويسرد كثيراً من نصوص الكتاب. ويزعم أنهم من أهل الذكر وينكر أنه من علماء السوء فبأي شيء نفرق بين أهل الذكر وعلماء السوء، وكيف يفعل من ولي شيئاً من هذا الأمر، ولم يجد في بلده أحداً من أهل الذكر؟ فالجواب والله الموفق للصواب، أنه لا يلتبس حال أهل الذكر بحال علماء السوء أصلاً لا قولاً ولا فعلاً بل لا بد أن يجعل الله لكل هاد من أهل الذكر أنواراً في كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار. وبيان ذلك أن من حكمة الله تعالى أن لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون، وتلك سنة الله في الأولين والآخرين لئلا يقولوا يوم القيامة أنا كنا عن هذا غافلين ومن حكمته جل وعلا أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الأنبياء في الآخرين وأهل الذكر في الآخرين، وجعل لكل هاد منهم عدواً من المجرمين، وهم شياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فلا بد إذن من نور واضح يعلم به صدق الهادين وكذب الشياطين، فجعل الله ذلك للأنبياء بخوارق العادات، وأهل الذكر بالأعمال الصالحات، فما من نبي أرسله لعباده إلا وجعل له نوراً واضحاً بين الناس كلهم، إنه الحق المبين، ومن خالفه وشاققه إنما هو من الضالين المضللين، وكذلك أهل الذكر من هذه الأمة إلى يوم القيامة، لأن الله جعلهم للهداية وإقامة الحجة في هذه الأمة كالأنبياء في الأمم الماضية، ولذلك روي (أن في رأس كل قرن يرسل الله للناس عالماً يجدد لهم دينهم)[1]، فلا بد لهذا العالم

---

(١) هذا إشارة إلى الحديث الذي رواه أبو داود في كتاب الملاحم باب ما يذكر في القرن المائة ج ٤ ص ١٠٩، عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». ورواه الحاكم أيضاً في مستدركه، والبيهقي في معرفة السنن.

في كل قرن أن يكون أحواله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح أمور الناس والعدل بينهم ونصر الحق على الباطل والمظلوم على الظالم بخلاف علماء عصره، فيكون بذلك غريباً بينهم لانفراده بصفاء أحواله وقلة أمثاله.

وحينئذ يتبين ويتعين أنه من الصالحين وأن من خالفه وشاققه ليصرف الناس عنه إنما هو من المفسدين لقول النبي ﷺ: «بدىء الإسلام غريباً وسيعود غريباً فطوبا للغرباء وقيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الزمان»[1] وذلك من أبين علامات أهل الذكر الذين يجدد الله للناس بهم دينهم.

ومن أبين علامات علماء السوء أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح، فمثلهم كمثل الصخرة في باب النهر، لا تشرب ولا تترك من يشرب، كل واحد منهم أضر من ألف شيطان، وليس الخبر كالعيان، وإن لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شيئاً مما ذكرناه فاعلم أن القراء كلهم ثلاثة أنواع، الأول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقي. الثاني من تبين لك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقي. الثالث من شككت فيه. فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا؟ فمن تبين لك أنه عالم تقي، فهو من أهل الذكر، فاسأله عن دينك وقلده ينجيك ويكفيك، كمن أنه خبير، وتبين بلا شك أنه عارف أمين. ومن تبين لك أنه ليس بعالم، وأنه ليس بتقي فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده في شيء من دينك ولا تسأله عنه، كمن زعم أنه خبير وتبين لك أنه ليس بعارف، وأنه ليس بأمين، ومن لم يتبين لك حاله، فلم تعلم هل هو عالم تقي أم لا فقف عنه أيضاً. ولا تقلده في شيء من دينك، ولا تسأله ولو كان فصيحاً عربياً يحفظ ما في جميع الكتب، حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقي، فمن زعم أنه خبير

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، والترمذي في الإيمان وذكره ابن الأثير في جامع الأصول ج ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

عارف أمين ولم يتبين لك هل هو صادق أو كاذب وإذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء في هذا الزمان، ووجب عليك أن تطلب عالماً من أهل الذكر، فالعلماء في هذه الأمة، كالأنبياء في الأمم الماضية يجب الاعتماد عليهم والسعي وإن بعدوا، ثم اعلم أن تأخيرك النظر في الأمور حتى تستفتي من بعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الأمور التي تعين عليك إصلاحها عاجلاً فبادر للنظر في جميع الأمور التي تعين عليك إصلاحها عاجلاً، فعليك بهذه القاعدة، وهي أن تعلم أن الأمور كلها ثلاثة أنواع: الأول أمر تعلم أنك شككت في حكمه، وخفت من إثمه، وإذا علمت ذلك، فكل أمر علمت أنه مما أمر الله به فافعله، فإنه خير ولا يأتي عنه إلا الخير، وكل أمر علمت أنه مما نهى الله عنه، فاتركه، فإنه شر ولا يأتي عنه إلا الشر، وهذان النوعان كثير ما تعلم منهما، فإذا شغلت بإصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولاً وفعلاً، وملأت بلادك قسطاً وعدلاً، وكل أمر شككت في حكمه وخفت من إثمه، فعليك فيه بالاحتياط الصارف عن الشبهات فإن الجنة حفت بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فاقطع الشك باليقين واحتط لدينك أكثر مما تحتاط لدنياك في كل حين، مثال ذلك، إن شككت في أمر هل يجب عليك أم لا؟ فاتركه، وإن شككت في أمر هل هو حرام أو واجب، فاتركه أيضاً، لأن الحرام من باب المفاسد والواجب من باب المصالح، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وإن تعارض أمران مستويان في نظرك، فاعرضهما على نفسك، ثم افعل أثقلهما عليها، فإن الغالب على النفس في حال الحياة والصحة أن لا تكره إلا الحق، إن أعرضتهما على نفسك فاستويا عندها، فانظر أيهما أحب إليها أن تموت عليه ثم افعله، لأن الغالب على النفس في حال الانتقال عن الدنيا إلى الآخرة أن لا تقبل إلا الحق، فعليك بهذه القاعدة في كل ما يعرض لك من الأمور، فإنها نافعة لكل من ليس بعالم، ولم يجد عالماً تقياً حاضراً.

المسألة الثانية:

قولكم، جوابكم سددكم الله في هذه البلاد وأهلها، فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون ومدنيتهم بالجامع والجامعة والجمعة والأذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر، وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم المذكور منهم عنوة وسكنوها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطاناً قبل سني علي، وكان أبو سني علي سلطان أهلها، وكانت أمه من بلاد فار، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار، ويتصدقون لها، ويسألون حوائجهم عندها فإن أصابوا خيراً زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم، وإن لم يصيبوا، رأوا أنها منعتهم، فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفر قصدوها ونزلوا عندها، ولتلك الأصنام سدنة يخدمونها ويترجمون لها عنهم، وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك، وكان سني علي في صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم، وقاتلهم حتى غلبهم في شركهم وعوائدهم، ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة فقام على سنغي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلط عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغي، إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين أخواله وتطبع بطباعهم، كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوها من ألفاظ المسلمين، ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، إنما يقول ذلك بلسانه، وربما سمع اسم النبي ﷺ، فقال: ﷺ ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم فيعظمون بعض الأشجار والأحجار بالذبح عندها والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب قضاء حوائجه: ويستعين بها وبالسحرة والكهان في الأمور كلها، أو جلها.

ومن صفته أيضاً أنه ما رؤي في جامع ولا مسجد هو ولا أحد

من دائرته في يوم جمعة ولا غيره، وفي دائرته ودياره ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصلي صلاة، ولا أن يصوم يوماً من رمضان خوفاً منه أن يعاقبه على ذلك، فلا يصلي أحد منهم، حراً كان أو عبداً، ولا يصوم إلا خفية خائفاً منه، وأما هو في نفسه فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها، ولا يصلي صلاة مكتوبة في وقتها ولا يقوم ويركع ويسجد فيها، إنما يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل أو غد وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة جلوس ويومىء إلى السجود من جلوسه، وهو صحيح قوي لا علة به، ولا يقرأ في صلاته تلك بشيء، إنما يذكر في خفضه ورفعه اسم صلاته، فيقول في ركوع المغرب، المغرب، وسجودها المغرب المغرب، وفي العشاء العشاء، وكذلك في سائر الصلوات.

ومن صفته أيضاً أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبالي بزوجها ولا أحد، ويجمعها مع أمها، فيتلذذ من المرأة وابنتها حرة أو أمة.

ومن صفته أيضاً أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، فيقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان الرضع وغيرهم، وأفسد منهم مثل الذكر والأنثيين، وقطف الأنف واليدين، ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى، وفساده في الأرض بذلك ونحوه مشهور، ولم يسمع قط بمثله في الإسلام، ولم يزل على ذلك مدة عمرة حتى مات.

ثم ولي بعده الأمير أسكيا، فملك البلاد ورد العباد عن الشرك والفساد، فما الحكم في سني علي وجميع أعوانه من الظلمة الذين كانوا يعملون بعمله في ذلك كله، ولا مال لهم إلا من ماله، وهل هم كفار أم لا؟ وهل تسترق أولادهم من بعدهم وتباع أمهات أولادهم أم لا؟

وهل يرد ما وجد الآن من تلك الأموال التي نهبوها من المسلمين، والتي نهبها المسلمون منهم، أو هي كالأموال التي نهبت بين المسلمين والكفار، وهل البينة علينا أو على من وجدناه بأيديهم مستعبداً فادعى أنه حر، وأنهم استعبدوه ظلماً؟ وهل البينة علينا على من ادعى من خدامهم وأتباعهم فيما بيده من المال أنه ليس لسني علي وإنما هو ماله اكتسبه من جهة أخرى، أو البينة في ذلك علينا مع كونهم تحت يده أو يد أعوانه وهم من خدامهم، ومعروف أن أعوانه وخدامه ما يملكون شيئاً مما في أيديهم؟ وهل تلك الأرض التي كانت للكفار ثم فتحها أجدادنا عنوة وحازوها واقتسموها، وكانوا يرعون فيها خلفاً عن سلفهم من ذلك[1] الزمان إلى الآن، وهل يجب على المسلمين الكائنين ببلاد هذا الأمير أن يعينوه بقدر طاقتهم على ما يراه باجتهاده إذا أراد جهاد الكفار أو غيرهم من أهل الفساد وأرسال الرسل في أمر المسلمين أو ليس عليهم شيء من ذلك؟ الجواب والله الموفق للصواب أن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه، وأما قولك هل هم كفار أم لا؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة، إنما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة، الأول أن يكون نفس اعتقاده كفراً: كإنكار الصانع أو صفة من صفاته التي لا يكون صانعاً إلا بها، أو جحد النبوة، الثاني صدور مالا يقع إلا من كافر، وإن لم يكن كفراً في نفسه، مثل: استحلال شرب الخمر، وغصب الأموال وترك فرائض الدين

---

(١) قد يكون فيما نسب إلى سني علي ومن قبله من آبائه من ملوك سنغاي من عدم الالتزام كلياً بأحكام الشريعة وأعمال قد تصل إلى الكفر قد يكون في ذلك مبالغة وخاصة أن هذه الأسئلة كتبت بعد استيلاء أسكيا على الحكم وأخذ السلطنة من يد آل سني علي والمعروف عن هذه الأسرة أنها تلقبت بسني نسبة إلى سنة النبي ﷺ. والله أعلم.

والقتل والزنى وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شيء من القرآن، فهذان الأمران الإجماع على من ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره. الثالث أن يقول قولاً يعلم أنه لا يصدق إلا ممن لا يعلم الله تعالى، وإن كان قائله يزعم أنه يعرف الله، وهذا مختلف فيه بين العلماء، هل يكفر به أو لا، وعليه اختلفوا في تكفير المعتزلة ونحوهم من أهل البدع، وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذي ذكرتموه من حال سني علي علم على الكفر بلا شك، فإن كان الأمر كما ذكرتم، فهو كافر، وكذلك كل من عمل بمثل عمله بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك، وأما استرقاق أولادهم فلا أراه وإن ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف، الأول من هو كافر صريح بالأصالة كالنصارى واليهود والمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه، الثاني من كان مسلماً ثم ارتد ارتداداً ظاهراً، فصرح أنه خرج عن دين الإسلام ودخل في غيره من أديان الكفر، الثالث من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره، لأنه صدر منه مالا يقع في الظاهر إلا من كافر كما ذكرتم في سني علي، فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم، لا خلاف في ذلك بين العلماء، وفي الكفار بالارتداد خلاف، قال أبو القاسم في أهل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الإسلام إلى الكفر، لا تسبى ذراريهم ونساؤهم وأما أموالهم فهي فيء للمسلمين، قال ابن رشد، وهذا هو الصحيح من جهة النظر، لأن المرتدين أحرار من أصلهم، قال: وإلى مذهب ابن القاسم في المرتدين: ذهب عامة العلماء وأئمة السلف، وإذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئاً من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب، فإن تاب ترك، وإن لم يتب قتل بالسيف كفراً، ولا تسترق أولادهم إنما يجبرون على الإسلام، وأما بيع أمهات أولادهم التي استولدوا من أموال بيت المال، فلا أرى به بأساً، وإن كان أولادهم لا يسترقون، وأما ما وجد الآن من تلك الأموال التي نهبوها من المسلمين فلربه أخذه حيثما وجده بغير

شيء، لأن الذين نهبوه منهم يزعمون أنهم مسلمون، فليس ما نهبوه كما نهبه الكافر الأصلي، وأما ما نهبه المسلمون منهم فليس لهم أخذه، فهم يردون ولا يردون لهم لأن ما بقي عليهم أكثر مما أخذ منهم مع كونه ليس لهم، والظالم أحق أن يحمل عليه في ذلك ونحوه، وأما ما وجدتموه بأيديهم مستعبداً وزعم أنه حر فالقول قوله، وإن كان يقر لهم بالعبودية ثم زعم أنه كان خائفاً منهم بخلاف من ادعى من خدامهم وأتباعهم، أن المال الذي بيده له، فإن البينة عليه فيما زعم، إذا كان الأمر فيه كما ذكرتم، وأما تلك الأرض فإن ثبت ما ذكرتم من أن أجدادكم فتحوها عنوة وحازوها، واقتسموها فسكنوها، وكانوا يرعون في مراعي بحرها دون غيرهم من المسلمين، وإن رعى غيرهم معكم فيما يضركم، فلا أرى عليكم في منعهم ولا في بيع بعض مراعيها لبعضهم وإن لم يثبت ذلك، أو ثبت أن المسلمين كانوا يرعون فيها قبلكم، فليس لكم أنتم أن تمنعوهم مما تركه لكم ولهم من قبلكم وإن كانت أرض عنوة فتحها أجدادكم لأن الأرض العنوة وإن كانت لمن فتحها، فليس للإمام ولا غيره أن يحجر على المسلمين مياهها ولا طرقها ولا مراعيها ونحوها من مصالح المسلمين، وروى أصبغ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة في الكلأ والماء والنار»[1]. وقال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم، فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم، فارفق به»[2]. وأما إعانة المسلمين بإمامهم فواجبة عليهم في أنفسهم وفي أموالهم بحسب طاقتهم بشرطين: الأول أن يكون الأمر الذي طلب منهم الإعانة فيه من الأمور المهمة التي اضطر

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع وإسناده صحيح، وذكره ابن الأثير في جامع الأصول ج ١ ص ٤٨٤ تحت عنوان الماء والملح والكلأ والنار و ج١٠ ص ٥٨٤ وورد النهي عن بيع فضل الماء في البخاري في باب الشرب ومسلم في المساقاة.

(٢) تقدم تخريجه.

الناس إليه في مصالحهم بحيث لو تركها كان تركها مفسدة عليه وعليهم والثاني أن يكون اضطر لإعانتهم بحيث لو لم يعينوه لم يجد في جيشه، ولا في ما بيده من بيت المال ونحوه ما يصالح به ذلك لهم، ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[1] لأن المقصد من ذلك ونحوه درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان، فلكل شيء وجه، وليس الخبر كالعيان.

المسألة الثالثة:

قولكم إني دخلت هذه البلاد بعد سني علي وقد كان جمع أموالاً وخداماً من وجوه شتى واستوليت على ذلك كله، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حر مسلم فخرج منهم شيء كثير، ثم بعد ذلك سألت عن أحوال بعضهم وعن بلادهم، فإذا هم يشهدون ويقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ويعتقدون مع ذلك أن هناك من ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا، ولهم أصنام ويقولون الثعلب قال كذا، وسيكون كذا، وإن كان كذا فسيكون كذا، ويعظمون بعض الأشجار ويذبحون لها ولهم بيوت معظمة عليهم لا يولون سلطاناً ولا يقطعون أمراً صغيراً ولا كبيراً إلا بأمر سدنة بيوتهم المعظمة عندهم، فزجرتهم عن ذلك كله فأبوا إلا بالسيف، فهل هذا يكفرهم ويحل قتلهم وأخذ أموالهم إن أصروا عليه، مع أنهم يقولون بألسنتهم، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وسني علي قط ما طلب منهم إسلاماً ولا غيره، وإنما يأخذهم كما يأخذ المسلمون، وأنا اليوم بينت لهم أن يتركوا ما هم عليه، فإن لم يتركوا فما الذي أفعل بهم؟

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله لله والحكم لله من

---

(١) سورة المائدة: الآية ٢.

قبل ومن بعد، فاشكر نعمة الله عليك، واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور، واعلم أن سني علي حمل عليه حمله على عنقه واكتسب في حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحمل بينكم فحملته أنت، فاكتسب لنفسك في حمله ما ترجى لك بركته، وتحمد لك عاقبته في الدنيا والآخرة، ولا تقل في باطل قدرت اليوم على إزالته هذا لا يلزمني لأني ما فعلته، إنما فعله غيري، فكل ما فعله غيرك ثم صار إليك، إن كان خيراً فأثبته، وإن كان شراً فأزله، ولو طال زمانه، لأن الملك لله والحكم لله، وأنت عبد الله، وأجب عليك أن تصلح كل ما وصل إليك، ولأجل هذا كان فعلك في إطلاق من ادعى أنه حر مسلم صواباً وكذلك كل مال تعين لمسلم معين واجب عليك رده، وأما أموال اختلطت وجهل إربابها فهي فيء لبيت المال فاصرفها فيما أراك الله من المصالح ومن ادعى أن سني علي أخذ له مائة مثقال مثلاً، وأثبت ذلك ببينة عادلة فليس عليك أن تعطيه ذلك من الأموال التي ترك سني على لأن مال هذا المدعي لم يعرف بعينه، وقد غرق فيما على غريمه من الأموال التي لا تحصى فتعذرت المُحاصصة التي يعلم بها ما يستحقه بين الغرماء فصار الكل لبيت المال، وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك، لأن التكفير في ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك، كما بيناه في السؤال الذي قبل هذا، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضل من الكفار الذين لا يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، لأن هؤلاء الذين وصفت لبسوا الحق بالباطل، بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهو لا يشعر، فهم أولى بالجهاد من الكفار الذين لا يقتدي بهم مسلم، فجاهدهم بقتل رجالهم وسبي نسائهم وذراريهم ونهب أموالهم على ما قدمناه في جواب السؤال الذي قبل هذا، فإن صمموا على شركهم فحرق سدنة بيوتهم لكفرهم وآلهتهم بالنار، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ببعض أهل الردة عن إعطاء الزكاة، فحرقهم بعد أن أمره

بحرقهم أمير المؤمنين أبو بكر رضي الله عنه[1]، وكل من تركته منهم لزعمه أنه حر مسلم ثم تبين لك أنه كان كافراً فاردده للرق وخذ ماله إلا إذا تاب وحسن إسلامه، فاتركه كما فعلت أول مرة، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ﴿ولله خزائن السموات والأرض، ولكن المنافقين لا يفقهون﴾[2].

المسألة الرابعة:

قولكم إذا كان فيه المسلمون وسلطانهم ظالم أو كبيرهم يأخذ أموالهم ظلماً وعدواناً، فهل لي أن أرد عنه ذلك الظلم، ولو أدى ذلك إلى قتل الظالم، أم لا؟ وكذلك إن كان السلطان يأخذ المكس ولا يردع المفسدين، هل لي أن أمنعه بالقتال والقتل أم لا؟ وهل إن كان في بلاد المسلمين سلاطين أو كبراء، كلهم أو جلهم يظلمون ويفسدون ولا يصلحون ولا يردعون المحاربين ونحوهم، فيطلب مني بعضهم أن نعينه على الإصلاح وقطع الفساد عن المسلمين، فهل يجوز لي أن نعينه أم لا؟ وهل الجهاد في هؤلاء الكفار الذين هم بقربنا ولكن لا يغزون بلداً من بلاد المسلمين، ولا مضرة منهم عليهم أم بالجهاد في هؤلاء الكفار أفضل، وهم جهال لا يعرفون خالقهم جل وعلا؟ وأيضاً بعض المسلمين في شرقنا وغربنا سمعوا بي وطلبوا أن يدخلوا تحت طاعتي، فهل لي أن أجيبهم إلى ذلك أو نقف على حكم بلادنا التي أورثنا الله عن سني علي؟ وأيضاً السلطان الظالم الذي يظلم الناس، وأينما لقي بضائع المسلمين يأخذها وإذا مات رجل غريب أو غير غريب في بلاده يأخذ ماله ويتاماه حاضرون أو غائبون، ويتعرض

---

(١) لم أطلع على مصدر لهذا الخبر من أن أبا بكر أمر خالداً بحرق بعض أهل الردة وقد ورد النهي عن الحرق بالنار، وفي الحديث الصحيح (لا يعذب بالنار إلا رب النار) انظر نيل الأوطار ج ٧ ص ٢٨٢.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٧.

للقوافل الواردة عن بلده وينزلهم ويفتش حمولهم، ويقوم ما فيها ويأخذ الذي زعم أنه زكاة، ثم لا يعطي لمستحق الزكاة شيئاً، فإذا قيل له هذا الذي تعمل حرام قال: حاشاني من الحرام مأكل، ما نعمل، حلال، وأنا أعلم منكم، ومن دأبه أن يلبس الحق بالباطل، وله فقهاء أتخذهم لذلك فكلما أراد أن يعمل شيئاً من غرضه أحضرهم وقال لهم: أليس هذا حلال؟ فيقولون: بلى، لك ذلك، فيوافقونه على غرضه في تلك الأمور ويتستر بهم من الطعن عليه بالظلم والجور، فهل مثل هذا السلطان ظالم أو كافر لأجل تحليله ما حرم الله، وكذلك أولئك الفقهاء؟ وهل يجب تأديبهم بالضرب الوجيع والسجن الطويل أو يقتلون وتنهب أموالهم؟ وما الحكم في عماله الذين يقومون له سلع المسلمين، ويأخذون منها؟ وما الحكم في رجل يشتري منه ما يأخذ بالغصب ونحوه من أموال اليتامى وغيره، حتى كثر ذلك منه بحيث لا نعلم ماله الأصلي بما اشتراه من أموال الناس، فهل يصير جميع ما بيده لبيت المال؟ فإن قلتم يصير فإن أثبت عليه رجل أنه اشترى من ماله المغصوب شيئاً معلوماً قدره ولم يوجد بعينه، فهل يعطي قيمته من ذلك المال أم لا؟

فالجواب والله الموفق للصواب بأن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين والتقوى مخالفة الهوى: فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ثم اعلم أن البلاد ثلاثة: الأول بلاد سائبة ليس لهم أمير، بل مهملون فهؤلاء أجبهم إلى مبايعتك والدخول تحت طاعتك، فإن أبوا ذلك فاجبرهم عليه ما استطعت لأنه لا يحل لطائفة من المسلمين أن يكونوا هملاً، قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾[1]، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»[1] فجاهدهم بالسيف، حتى يدخلوا كلهم تحت طاعتك، على طاعة الله ورسوله، وذلك من أفضل الجهاد وأهمه، الثاني بلاد لهم أمير يرعاهم في مصالح دينهم ودنياهم بحسب الإمكان في هذا الزمان، وهؤلاء لا يحل لأحد منهم أن ينزع يداً من طاعته، ولا يحل لأحد أن ينازعه في رعيته، ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[2]، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسولا الله ﷺ: «إذا بويع الخليفتان فاقتلوا الأخير منهما، لا خير فيه»[3]، الثالث بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت، يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الإصلاح فإن استطعت أن تزيل ظلمة عن المسلمين في غير مضرة عليهم حتى تقيم أميراً عادلاً فافعل، وإن أدى ذلك إلى القتل وقتل كثير من أعوانك، لأن من قتل منهم شر قتيل، ومن قتل منكم خير شهيد، قال الله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾[4] ومن سبيل الله دفع الظلم عن المسلمين وتغيير المنكر، والدفع عن المسلين من أفضل الجهاد بل جهاد هؤلاء آكد من الجهاد في أولئك الكفار الذين وصفت، وإن لم تستطع أن تزيل ظلمة عن المسلمين إلا بمضرة عليهم، فقد تعارض هنا ضرران، فاحذر تغير

---

(١) ذكره النووي في رياض الصالحين في باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية ص ٣٥٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٦.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد بدون قوله (لا خير فيه) وقال رواه البزار وفيه أبو هلال وهو ثقة، والطبراني في الأوسط، وفي حديث معاوية أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان في الأرض خليفتان فاقتلوا آخرهما). رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقاة. الزوائد ج ٥ ص ٢٠١.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١١.

منكر بمنكر مثله، أو أعظم منه، فتثبت ههنا وارتكب أخف الضررين، لأن ارتكاب أخف الضررين قاعدة مشهورة وسنة مأثورة، وليس من المنكر قتل الظلمة والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون، فقاتلوهم ولو قتلوا منكم كثيراً وقتلتم منهم كثيراً، إذا كان قتالكم لنصر الحق على الباطل ونصر المظلوم على الظالم. فافهم ذلك فإن علماء السوء يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله بالجهل والهوى، فإن كان بلد من بلاد المسلمين فيه سلاطين كثيرة أو كبراء كما وصفت، وزعم بعضهم أنه يقيم العدل أو يزيل الظلم إن أعنته عليهم، فانظر في حقيقة قوله وبرهانه وزعمه، فإن لكل قول حقيقة ولكل حقيقة برهاناً، ولسان الحال أنطق أي أصدق من لسان المقال فلا يغتر بحسن الأقوال مع سوء الأحوال إلا الأغبياء من الرجال والأطفال فانظر في حال هذا الذي يطلب منك الإعانة فإن وثقت بزعمه وأنه إذا قويته وفي بوعده وعهده فقوه على ما فيه منفعة للمسلمين حسبما بينت لك، وإن لم تثق به فيما زعم، فلا تعنه واعمل لنفسك ما ينبغي لك، ودع الظالمين كلهم، فقد ينتقم الله من الظالم بالظالم، ثم ينتقم من كليهما، وأما ما سألتني عنه من التكفير فقد تقدم بيان ما يكون به التكفير، فمن ثبت عليه بأنه حلل المكس ونحوه من أكل أموال الناس بالباطل، وجب الحكم بكفره وكذلك من أنكر الحق المبين ولبسه بالباطل، وأما علماء السوء وصفتهم بإعانة ذلك الظالم، فهم أشر منه جريمة، وعليهم من العقوبة ما يردع أمثالهم، بحسب اجتهاد الحاكم، وكذلك يعاقب كل من كان من عماله في تقويم السلع وغيره، وأما من اشترى من الغاصب عالماً بغصبه، فهو كالغاصب، فإن كثر ذلك منه حتى استغرق ماله، كانت لبيت المال، ولا يعطي المدعى عليه قيمة شيئه الذي غرق في ذلك المال إلا إذا عرف ما يستحقه منه بين أرباب الحقوق.

المسألة الخامسة:

قولكم، وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدي برها وبحرها ولم يعرفوا قبلي إلا الظلم والإهمال ولم يسمعوا قط من يناديهم لله ورسوله فأجاب من أجاب بخوف السيف ولله الحمد، وله مزارع كثيرة وبحر واسع كثير خيره، فهل لي أن أعمل خراجاً على أرضهم أم لا؟ وقد كان سني علي عمل عليهم ظلماً كثيراً من خراج وغيره، وأيضاً هل يجوز لي أن أنصب عالماً أميناً يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها لمستحقها من الأصناف الثمانية باجتهاده أم لا؟ وإن جاز لي نصبه فهل لي أن أعاقب من أبي أن يؤديها؟ وإن جازت عقوبته فما هي؟ وهل تجوز شهادة السلطان الذي لا يمكس ولا حفظ عليه ظلم في هذا الزمان أم لا تجوز شهادته ولا شهادة أحد من دائرته وأعوانه وإن عرفوا بالخير والصدق وعدم الظلم وحمية الجاهلية.

الجواب والله الموفق للصواب أن للإمام العادل أن ينصب عاملاً أو عمالاً لجمع زكاة الحرث والماشية وصرفها في مصارفها التي ذكرها الله تعالى من الإصناف الثمانية باجتهاده على ما يراه الأصلح بعد استشارة أهل المعرفة والأمانة، وليس له أن ينقل زكاة بلد إلى غيره إلا على وجه النظر بالأصلح فيفرق في أهل بلدها ما اضطروا إليه، وينقل لغيرهم ما اضطروا إليه. وأهل البلاد الذين وجبت الزكاة فيه أحق من غيره إلا لموجب بين، فإن استقر أمرك وثبت ملكك على العدل، فافعل ذلك، فإن من ترك الحرام واستغنى بالحلال أغناه الله تعالى، وإن كان أمرك إلى الآن ما استقر، ولا ثبت على العدل، فاصبر عن ذلك لأنك في هذا الذي استقبلته وشرعت فيه غريب في هذا الزمان، والله يوفقك ويعينك. وواجب على الناس دفع زكاتهم للإمام العادل وعماله عليها إن عدل في صرفها بأن يصرفها بالتقوى لا بالهوى في المصارف التي ذكرها الله أو بعضها، ومن أبى أن يدفعها طوعاً أخذها الإمام منه كرهاً وإن نصب القتال دونها قوتل عليها، وإن مات أو قتل أخذت من ماله، وذلك لا خلاف فيه بين

العلماء، وعقوبة من أبى أو صمم على منعها بما يراه الإمام ردعاً لمثله من ضرب أو حبس أو غيره، وإذا كان الإمام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى واضطر لدرء مفسدة أو جلب مصلحة بأمر لا يخالف الشريعة فليفعله، لأن المطلوب من الإمام ونحوه درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان فلكل شيء وجه وليس الخبر كالعيان ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه: (تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور)، وإذا علمت ذلك ينبغي لك أن تجعل للخراج على تلك البلاد ما فيه مصلحة المسلمين وعمارة تلك الأرض من غير تضييق، ولا يحل لك أن تجعل ذلك على المناضد العامة التي فيها الارتفاق العام كالمياه والمراعي والطرقات والمنازل المباحة، فإن الله لم يجعل ذلك لسلطان ولا غيره ولو كانت البلاد فتحت عنوة، فاترك ذلك كله ومن ترك شيئاً لله عوضه خيراً منه، وما عند الله خير وأبقى، قال رسول الله ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم، فارفق به»[1] وقال رسول الله ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاثة في الكلأ والماء والنار»[2]، فاحذر أيها الأمير أن يضللك بعض علماء السوء بتزيين الطمع حتى تنسى الورع، فإن ملاك الدين الورع، وفساد الدين والدنيا الطمع، والورع أن تترك مالا بأس به، خوفاً من الوقوع فيما به بأس، فعليك به في جميع الأمور، ﴿ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾[3]، وأما السلطان الذي لا يمكس، ولا حفظ عليه ظلم في هذا الزمان، فشهادته مقبولة في منافعه الدنيوية وكذا كل من عرف بالخير والصدق وعدم الظلم والحمية من أعوانه ودائرته.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سورة المنافقون: الآية ٧.

المسألة السادسة:

في أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة، وإنما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلاً، وكانوا على هذه الحالة منذ قديم حتى وجدنا بأيديهم أموالاً كثيرة، فهل هذه الأموال لبيت المال أو تترك بأيديهم ويجبرون على التوارث فيه وفي غيره على شريعة الإسلام، ولا يتعرض لهم على ذلك أصلاً، وبعض الناس يقرون أن الميراث كما فرض الله تعالى، ولكن إذا كان في الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال هذا مال إخواني وأنا بمنزلة أبيهم اليوم فيعطي الزوجة ونحوها نصيبها ويستولي على الباقي، يتصرف فيه كيف شاء من غير إيماء ولا تقديم ولا رضى أحد منهم ولا يتعرض له أحد في ذلك مدة حياته حتى إذا مات استولى على تركته الأقوى أيضاً وبعضهم لا يورث الزوجة ولا غيرها من النساء، وبعضهم فيهم عبيد لا يباعون ولا يوهبون، إنما يقولون عبيد السلطنة لمن يرثها عن الميت كابن الأخت مثلاً، وأما غير هؤلاء العبيد ونحوهم من تركة ميتهم فهو على حالهم في تركاتهم يأخذها من بعده ملكاً بطريق الشريعة أو طريق عوائد الجاهلية فهل أموالكم كلها لبيت المال أم لا؟

وأيضاً جوابكم في أناس مسلمين طردهم العدو عن بلادهم ودخلوا بلاد قوم آخرين، وسكنوا عندهم فرجع العدو الذين طردهم وبقيت تلك البلاد خالية، ثم لم يرجع لها أهلها، فأخذ بعض الناس يزرعون في مزارعها وأهلها يقولون لا تزرعوا، ولا تزرعوا في أرضنا إلا بالكراء، فقالوا لهم الأرض لله وقد خرجتم منها وتركتموها معطلة، فلا نعطيهم شيئاً فيها، وكلهم الآن تحت يد سلطان واحد لا يظلم أحداً منهم، فهل لهم أن يمنعوا منها أحداً أم لا؟ وأيضاً جوابكم في المحاربين من فلان وغيرهم معهم أناس من مسوفة وغيرهم يزعمون أنهم مسلمون، وهم ساكنون معهم ملازمون لهم في الرحيل والنزول ويخالطونهم في كل شيء من أحوالهم وأموالهم وأمورهم وخيلهم، مع

خيلهم يغزون معهم ويحاربون معهم، هذا هو غالب أحوالهم ومنهم من كان معهم ولا يحارب معهم، وجيء بهم إلينا فقالوا: ما نقدر على الخروج عنهم مخافة أن يأخذونا، وإن خرجنا، يأخذنا غيرهم؛ لأنا مساكين لا نقدر الدفع عن أنفسنا، فرددنا إليهم أموالهم، وقلنا لهم افترقوا منهم، فهل نترك غزو المحاربين لئلا نضر أولئك المسلمين الذين هم معهم، وأبوا أن يفارقوهم، أو لا بد من غزوهم وإن كانت المضرة تلحق من معهم من المسلمين المذكورين فقد شوشني في ذلك بعض فقهاء بلدنا حتى توقفت عنهم.

الجواب والله الموفق للصواب أما القوم الذين من شأنهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة إنما يرث منهم الخال وابن الأخت وابن الخال فإن رأوا أن ذلك حلالاً وجحدوا شرائع ميراث الإسلام، فهم كفار، وإن لم يجحدوا الميراث وأقروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع إلى فرائض الله في الميراث فيما يستقبل، فإن أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها، وإن تابوا فأرى أن يترك لهم منها ما ثبت أنهم اكتسبوه من الحلال، وأن يقسم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف وأما الذين يستولي منهم الكبير على التركة ويقول هذا مال إخواني وأنا كأبيهم نحفظ لهم ونربيهم فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم فيقوم كل بحقه، والسلطان ينصفه عن غريمه وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء فهم كالفريق الأول على ذلك التفصيل. وأما العبيد المذكورون ونحوهم فهم كالحبس من عند الأولين أوقفوهم لإعانة السلطان منهم، فيكون كذلك ليس لأمير المسلمين أن يأخذهم ويجعلهم في بيت المال إلا الذين ثبت أن أصلهم غصب أو نحوه وأما الذين لم يثبت ذاك فيهم، فهم حبس على من هم له في عوائدهم. وأما الذين طردهم العدو عن أرضهم فتركوا سكناها فليس لهم أن يعطوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع في مزارعها ويرعى في مراعيها، إنما لهم أن ينتفعوا بها أو يتركوها لمن

ينتفع بها حتى يرجعوا إليها إن شاء الله، وأما المحاربون فلا بد من غزوهم ولا بأس عليكم فيمن أصيب بينهم من أولئك المسلمين لأنهم ظلموا أنفسهم بالنزول معهم بما لم تعلموا به من أنفسهم وأموالهم حتى فسد فلا شيء عليكم فيه، وما علمتم به قبل أن يفسد فاجتنبوه وردوه لأهله، وذلك إذا لم يسكنوا معهم اختياراً ولم يغيروا معهم ولم يعينوهم، وأما من سكن معهم اختياراً وكان يغير معهم ويعينهم على الفساد، فهذا منهم فاقتلوه وانهبوا أمواله ولا تقبلوا له توبة إذا مكنكم الله منه. ذكر أبو القاسم البرزلي في كتبه ما نصه: وقد ظفر السلطان بفرقة من بوادي إفريقية وجلهم مستغرقو الذمة فأفتى شيخنا ابن عرفة بإباحة أموالهم بالأغلب حتى يتحقق أصل الحلال منهم، قال: لأنهم عصاة بمكاثرة المحاربين وتكثير سوادهم، ولم يجعل لهم حرمة من بان بنفسه، ولم يخالطوهم وهذا إذا وجد مندوحة عنهم، وإلا فهو كالمكره في بلاد الحرب إذا لم يستطع الخروج من بلاده، وخاف على أهله ونفسه وماله وولده.

المسألة السابعة:

في أحوال هذه البلاد، وهي أن فيهم من يزعم أنه يعلم شيئاً من الغيب بخط الرمل ونحوه أو بأحوال النجوم أو بأخبار الجن أو بشيء من أصوات الطير أو حركاتها أو نحو ذلك، ومنهم من يزعم أنه يكتب لجلب المصالح كسعة الرزق والمحبة لدرء المفاسد، كهزم الأعداء في الحرب ومنع الحديد من القطع والسم من الضر ونحو ذلك من دعاوى السحرة وأفعالهم، ومنهم من يطفف المكيال والميزان بالزيادة، والنقصان، ومنهم من يغش الذهب والفضة بالنحاس أو يأبى أن ينزق التبر من التراب أو ينفخ في اللحم أو يخلط اللبن بالماء وغير ذلك من الغش، إذا اشترى السلعة حازها وذهب بها قبل أن يدفع لربها ثمنها، فإذا ندم أو لم يبعها بربح وطلب منه ربها الثمن قال له: خذ سلعتك أو اصبر حتى نبيعها ومنهم من يبيع أمة ويحوزها المشتري ولا يبالون

بالاستبراء. فإذا ظهر بها حمل تنازعا فيه، وذلك كثير، ومن مناكرهم اختلاط النساء بالرجال في الأسواق والطرقات، وعدم احتجاب المرأة على أخي زوجها وابن عمه أو صاحبه ومن مناكرهم كشف عورات الحرائر والإماء حتى إن من عوائد أهل جني أن البنت لا تستر شيئاً من عورتها ما دامت بكراً ولو بلغت خمسين سنة وكانت شابة من أجمل النساء تخرج بين الناس عريانة بلا ستر أصلاً، وهي بين أبيها وإخوانها كذلك، حتى تتزوج، ولو كانت بنت السلطان أو القاضي[1]، وتلك عادة مشهورة مطردة بينهم فافتونا في هؤلاء القوم، آجركم الله تعالى.

الجواب والله الموفق للصواب: أن كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم، فواجب على أمير المسلمين، وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها، أما من يزعم أنه يعلم علم الغيب بشيء من تلك الأمور أو غيرها فإنه كاذب ومن صدقه كفر، فواجب أن يوقفوا للتوبة تحت السيف، فمن تاب ترك، ومن أبى قتل بالسيف كفراً، فلا يغسل ولا يكفن ولا يدفن في مقابر المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «من صدق كاهناً فقد كفر بما أنزل الله على قلب محمد ﷺ»، وكذلك يوقف تحت السيف كل ساحر وساحرة، وكل من يزعم أن عنده من الطلاسم والعزائم ونحوها ما يجلب الرزق أو يهزم العدو أو نحو ذلك فمن تاب منهم ترك، ومن أبى قتل، وكل من يزعم أنه إنما يكتب لذلك من كتاب الله أو من الكلام الطيب فلا تصدقوه، إنما هو كاذب، فالواجب زجره، وإن لم يرجع فلينكل على

---

(١) هذه العادة السيئة من كشف العورات بهذه الكيفية المذكورة في السؤال ليست موجودة في مدينة جنى المشهورة التي أسلم أهلها في أواخر القرن الأول من الهجرة وعم الإسلام جميع أهلها في القرن الثالث والرابع، واشتهرت بعلمائها، وذكر السعدي أن عدد علمائها الذين جمعهم سلطانها في أوائل القرن السادس أربعة آلاف ومائتا عالم. ومدينة بهذه الصفة من العلم والعلماء، لا يمكن أن يكون أهلها على هذه الصفة من السفور. والله أعلم.

ذلك، سداً للذريعة وحفظاً للشريعة والاعتقاد، وأما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة وإجماع علماء الأمة، وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميراً على الأسواق وحفظ الأرزاق فليصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج حتى لو فرقت مائة مثقال بالصنوج كلها لا ينقص ولو جمعتها بتلك الصنوج لا تزيد إلا مالا بال به في الزيادة والنقص، وكذلك يجب إصلاح المكائل كبارها وصغارها حتى تكون كله على نسبة واحدة.

ولا بد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير في كل حين، فمن ظهرت عليه الخيانة في شيء من الوزن أو الكيل فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين. وصفة الوزن أن يبسط الوازن جلداً صحيحاً ليناً أملس، ويوقف الميزان فوقه حتى يعتدل بالمسح والتصوير، فإذا اعتدل يضع فيه التبر برفق والصنوج ويرفع من غير تمييل ولا تسنيد ولا حيلة، ويبرم ويهز ثم يسكن يده ويزيد وينقص حتى يعتدل لسان الميزان في وسط القبة ساكناً بلا حيلات، فيعطي الذي في الكفة لربه، ويجمع ما تساقط على الجلد ويرده في صرة أصله وصفة الكيل أن يقعد الكيال المكيال معتدلاً، ثم يصب فيه المكيل برفق حتى يمتلىء امتلاءً كاملاً من غير تركين ولا تسنيد ولا زلزلة ولا حيلة، إنما يعدل المكيال في وضعه ويصب فيه حتى يمتلىء بطنه، وأما جميع أنواع الغش فحرام بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وعلى أمير المؤمنين أن يزجر أهل الغش والخديعة أعظم زجر، ومن له من ذلك مال، فهو فيء يجعله الأمير في مصالح المسلمين، والبيع لازم بالقول ولازم بالمعاطات، فواجب على المشتري أن يعطي ما عليه من الثمن، فإن أبى أخذ منه كرهاً، وإن لم يوجد بيده غير سلعة غريمه أخذها الحاكم وباعها على ذمته، ثم قضى لغريمه ثمن سلعته، فإن فضل شيء فهو له، وإن بقي عليه شيء اتبعه الغريم، وليس له ردها على بائعها إلا برضاه أو بعيب قديم.

ومن باع أمة قبل أن يستبرأها من مائه وأسلمها للمشتري كذلك، فهو من الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض يجب على الأمير أن يزجره عن ذلك بالعقوبة الرادعة له ولغيره، ولا يصدق في قوله: لم أطأها، إلا إذا كانت من الوخش التي ليست للوطء غالباً ولم يقر بوطئها ولا شهدت عليه بينة فيصدق في أنه لم يطأها فواجب على المسلمين أن يلزم الناس المواضعة للاستبراء في كل أمة يتخذ مثلها للفراش وإن أنكر سيدها أنه وطأها وفي كل أمة أقر السيد بوطئها أو ثبت عليه وإن كانت وخشا أو ادعى استبراءها. والمواضعة أن توضع عند أمين حتى تحيض مثلاً، وكل أمة بيعت في أول حيضتها فذاك استبراء لها يكفي البائع والمشتري. ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع وأن يجعل أمناء، ويحتسبون على ذلك ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين إنما ذلك حسن الرعي وردع المجرمين، لاسيما إذا شاع الفساد في البلاد كما في تمبكتو وجنى ونحوهما. من الصواب الواجب أن تنقل كل امرأة عن مكان التهمة وأن يجعل الأمير أمناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات فكل من رآه يتكلم مع أجنبيه أو يدخل إليها أو ينظر إليها، فليأخذوه وليأتوا به إلى المتولي خطة الحسبة، فليمنعه ويزجره بما يليق بمثله على حسب سوء فعله، وليس لذلك حد محدود ولا ضرب معدود، إنما ذلك موكول إلى نظر الحاكم، فليتقي الله ولينظر إلى درء المفاسد وجلب المصالح بالتقوى لا بالهوى، فإن قلت: وأين الأمين الذي يصلح لذلك ويؤمن عليه حتى يجعل الأمير بيده ويفوضه إليه، فإنه معدوم في هذا الزمان لاسيما في تلك الأوطان، قلت ارتكاب أخف الضررين واجب إجماعاً، وضرر الحسبة في ذلك أخف من ضرر تركها بلا شك، وأيضاً

مفسدة تعدي الناظر يمكن درؤها بالبعد عن أماكن التهم، كالمشي في الليل ونحوه من الخلوات، ولا كبير ضرر على الناس في اجتناب ذلك غالباً، وأما مفسدة ترك الاحتساب على الفاسقين والفاسقات، لاسيما في الخلوات الظاهرة التهمة، فلا سبيل لدرئها ولاسيما في هذا العصر الكثير الشر، هذه البلاد السودانية ونحوها، بل من العوائد الجارية والسياسة السلطانية في كثير من البلاد الإسلامية، أن بعد صلاة العشاء بقليل، يطوف الحاكم في البلد بأعوانه، الليل كله، فكل من صادفوه في طريق رموه في السجن حتى ينظر غداً في أمره، سواء صادفوه في مكان التهمة أو غيرها، إلا رجل معروف بالخير حراً، خرج لحاجة أكيدة، وقد جعلوا ذلك درءاً لمفاسد الشر، وإن أضر بكثير من غيرهم ارتكاباً لأخف الضررين. وأما ما ذكرتم من عادة جني في أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج، فذلك منكر من أكبر المناكر، وأقبح القبائح، لم يسمع قط بمثله في شيء من بلاد المسلمين، بل لا يرضى به حتى اليهود والنصارى، فكيف يزعمون أنهم مسلمون، إنا لله وإنا إليه راجعون فحاش المؤمنين المسلمين أن يفعلوا مثل ذلك ويواطأوا عليه خلفاً عن سلف، فواجب عليهم أن يتوبوا إلى الله تعالى عاجلاً، وأن يبادروا إلى تغيير ذلك، وغيره من المناكر، عاجلاً، وواجب على ولي الأمر أن يجتهد في ردعهم وردهم وردع كل من في حكمه، إلى العمل بشرائع الإسلام، فإن ذلك من أفضل الجهاد وأهمه، فليبادر لتغيير المنكرات كلها، بحسب ما أراده الله لا بحسب هواه من الرأي السديد في تغيير المنكر، فإن لكل شيء وجهاً ينظر إليه، والظالم أحق أن يحمل عليه، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: (ستحدث للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور) فاتق الله تعالى، وانظر لنفسك قبل الموت، فإنه لا بد من الموت قال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره

قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾[١] وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ إلى قوله: ﴿متاع الغرور﴾[٢]، صدق الله العظيم ونبيه الكريم، ونحن على ذلك من الشاهدين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

المقارنة بين الإجابتين

يتضح للباحث من فحص الإجابتين اللتين كتبهما الشيخ المغيلي رحمه الله ومقارنتهما لكل من أمير كانو ومحمد رمفا وأمير سنغاي محمد أسكيا، أن السكان في سنغاي كانوا أكثر فهماً للإسلام من سكان كانو في ذلك الوقت.

كما يظهر منهما أن مملكة سنغاي أكثر انتظاماً من مملكة كانو وهذا أمر بدهي فإن الحاج محمد أسكيا الأول ملك سنغاي معروف أنه سلفي في عقيدته قبل وصول المغيلي. وقد حج والتقى بأشهر العلماء في مصر والحجاز والقدس واسترشد بنصائحهم له كما التقى بالأمراء في مصر ومكة واطلع على نظام الحكم في تلك البلاد واستفاد من توجيه أمرائها له. فلذا كان نظام حكمه أكثر تنظيماً ودقة في أساليب الإدارة والقضاء ونظام المقاطعات وغيرها ولم يسبقه ملك من ملوك السودان في حسن التنظيم[٣].

وأما كون أهل سنغاي أكثر فهماً للإسلام من أهل كانو فهذا أيضاً لا غرابة فيه فإن أهل كانو وأهل نيجيريا قد عرفوا الإسلام على أيدي

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٢ و ٣.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٥.

(٣) انظر تاريخ السودان ص ٧٢ وما بعدها وتاريخ الفتاش ص ١٠ وما بعدها، ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين لعبد القادر زبادية تجد ما امتاز به الأمير محمد أسقيا من العدل في الحكم والدقة في التنظيم، وإقامة جهاز إداري منظم.

جماعة من العلماء في مالي وسنغاي في عهد منسي موسى. أو الذي قبله، فقد جاء إلى كانو وفد من علماء مالي من الونغارة برئاسة الشيخ عبد الرحمن زيتي قادماً من دولة مالي الإسلامية لدعوة أهل كانو إلى الإسلام[١] وذلك في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ولا يزال أهل نيجيريا ينسبون الإسلام إلى مالي حتى الآن، ويقولون: إسلام مالي[٢]. ويقال: إن الوفد عندما وصل إلى كانو اتصل بالسلطان ودعاه إلى مراعاة أوقات الصلاة فاستجاب لذلك النداء وعين بعض أعضاء الوفد في مناصب ذات أهمية. فعين رئيس الوفد عبد الرحمن زيتي قاضياً وكان من العلماء الضليعين في العلم والمعرفة، وعين غردامس من أعضاء الوفد إماماً للصلاة، ولوال مؤذناً، وأوتا مشرفاً على ذبح الماشية على الطريقة الشرعية، ومندولي إماماً للونغاريين وزعماء الشعب في كانو.

وطلب السلطان من كل بلدة في كانو أن تراعي أوقات الصلاة، وقد استجاب جميعهم لطلبه، وبنى مسجداً تحت الشجرة التي كانت مقدسة من جهة الشرق وأقيمت فيه الصلوات الخمس وانتهى تقديس الشجرة[٣]. وبهذا يتضح لنا الدور العظيم الذي قام به علماء مالي

---

(١) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية من القرن الثامن الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري د. مهدي رزق ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ـ ٢٤٧ مخطوط.

(٢) انظر الإسلام في نيجيريا ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية من القرن الثامن الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر. مخطوط ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ وقد اكتشف الدكتور محمد أحمد الحاج رحمه الله الذي كان يعمل بكلية عبد الله بايرو في نيجيريا مخطوطاً آخر يلقي ضوءاً على أصل هؤلاء العلماء من الونغارة وفي المخطوط أصل الونغريين المنتسبين إلى الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن محمد قتم يقول المخطوط أن الوفد الونغاري المالي وصل في عهد السلطان محمد رمفا سنة ٨٠٤ هـ ـ ٨٦٧ هـ والله أعلم. والمخطوط ترجمه محمد الحاج إلى إنجليزية ونشره في مجلة دراسات كانو سنة ١٩٦٨م.

الذين عرفوا بالونغريين في نشر الإسلام في بلاد هوسا في نيجيريا الحالية. ولا يزال اليورباويون يعترفون بفضل أهل مالي في نشر الإسلام في بلادهم حتى يومنا هذا فنسبوا الدين إليهم فسموا الإسلام بدين مالي[١]. ولهذا لا يستغرب إذا قيل أن أهالي مملكة سنغاي أكثر فهماً للإسلام من أهالي بلاد كانو في ذلك الوقت وخاصة في عهد الإسقيين الذي بلغ الإسلام فيه ذروته في الاستقرار في المنطقة كلها وأزيل ما علق به من الشوائب وخرافات الجاهلية.

نتائج وآثار دعوة المغيلي وحركته العلمية في السودان الغربي

مما تقدم عرضه من الدور الذي قام به المغيلي في الصحراء والسودان الغربي نستطيع الوصول إلى استنتاج أهم ما نتج عن حركته العلمية والإصلاحية والآثار التي تركته حركته الإصلاحية في بلاد السودان في السطور التالية:

١ - كان المغيلي من دعاة عصره المصلحين النشطين، وله شخصية قوية استطاع بها التأثير على الناس، وكان مهتماً كل الاهتمام بإصلاح الأوضاع الدينية والسياسية للمسلمين في أيامه. فهو ليس من طبقة الفقهاء الذين اكتفوا بالاهتمام بالمسائل الفقهية والتعمق فيها دون النظر إلى الأوضاع السياسية الفاسدة المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، بل هو من العلماء القلائل في زمانه الذين حاولوا إصلاح أوضاع المسلمين والرجوع بهم إلى المنهج الإسلامي الصحيح، لذلك لما عجز عن إصلاح الحكام في الجزائر ارتحل إلى الصحراء وغادر بلده وفي نفسه غيض وحنق على الانحراف في سيرة الحكام. ولما

(١) انظر الإسلام في نيجيريا ص ٣٣ الطبعة الثانية. ويرى آدم الألوري أن الوفد المالي من العلماء الذين وصلوا كانو لنشر الإسلام وصلوا في عهد منسا موسى الملك المشهور.

انتقل إلى كانو وجد تقبلاً لآرائه الإصلاحية، فباشر الإصلاح على طريقته، فاكتسب مكانة عظيمة في السودان وذاع صيته كأحد المصلحين اللامعين في دنيا الإسلام والدعوة والإصلاح.

٢ ـ وهو من أوائل من دفع العلماء والحكام في السودان وخاصة في كانو إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش والأخذ والرد والعطاء، ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المنهجي. وقام بدور عظيم في السودان لا يدانيه دور قام به عالم مغربي، فقد ترك أثراً إسلامياً بارزاً في جميع مماليك الإسلامية في بلاد السودان الغربي.

وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلاطين، ودعم مفاهيم الدعوة الإسلامية، ووجه الحكام للعمل بها لطبع المجتمع بطابع إسلامي صحيح.

٣ ـ ترك له مكانة عظيمة وأثراً بالغاً في الأمة وأصبح اسمه عندهم مقروناً بالإمام وظلت آثاره قائمة بعد موته قروناً طويلة. وألف كثيراً من الرسائل والكتب أضاءت الحياة العلمية في قلب السودان وأوضحت لهم منهج الإسلام الصحيح في الحياة العلمية. وأصبحت كتبه مدرسة روحية تربت عليها العلماء والحكام والعامة، وظهر آثرها بارزاً على الأمة في عهده، وعلى الأجيال التي أتت من بعده فالذين أتوا بعده من المصلحين السودانيين تأثروا بآرائه ومنهجه في تصنيف من يجب جهاده وقتاله من الكفار والمرتدين عن الإسلام، ومن يدعي الإسلام ويخلط بينه وبين عبادة الأوثان أو يعتقد فيها النفع والضرر. وقد أخذ بمنهجه هذا الشيخ عثمان دان فوديو وأتباعه وخلفاؤه من بعده.

وكتابه المسمى: (سراج الأخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا

الزمان) عبارة عن نسخة طبق الأصل من أجوبة المغيلي على أسئلة الأمير محمد أسكيا، ورسائله إلى أمير كانو، من الفصل الثاني إلى نهاية الفصل التاسع أي من ص ١٠ حتى ص ٤٢...»[١].

فآراء الشيخ عثمان وآراء أخيه عبد الله مبنية في كثير من المسائل على آراء المغيلي ففي كتاب ضياء السياسات للشيخ عبد الله بن فوديو تشابه شديد بين آرائه وآراء الإمام المغيلي في كتابه الذي وجهه إلى أمير كانو فيما يجب على الملوك).

والمغيلي من العلماء القلائل الجهابذ الذين بقي لهم آثار قائمة في غرب أفريقية وحفظت مؤلفاتهم. لقد أصبحت ذكراه عالقة في أذهان الإفريقيين وأصبحت مؤلفاته ورسائله مصدراً هاماً من مصادر العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامي ومراحل تطور التعليم الإسلامي في غرب أفريقية في القرنين التاسع والعاشر الهجريين ونظام الحكم في الدول الإسلامية التي كانت قائمة في القرنين المذكورين.

وقد ساعد وقوف المتأخرين من المصلحين الإسلاميين واعتمادهم على آرائه كالشيخ عثمان بن فوديو وأخيه عبد الله وأتباعه على حفظ كثير من أسماء مؤلفاته، حيث كان كثير من مؤلفاته موجوداً في عهد الشيخ عثمان دان فوديو في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. وقد اطلع عليها واستفاد منها وجرى على منهجه[٢] في جهاد الكفار والدعوة ومحاربة أهل السوء والزيغ.

وللمغيلي مؤلفات عدة وضع الباحثون أيديهم عليها وتناقلتها

---

(١) انظر سراج الأخوان للشيخ عثمان بن فودي وهو عبارة عن رسالة صغيرة مكونة من ٥٤ صفحة تتعلق بمن يجب جهاده من الكفار وأصحاب الشرك والبدع وعلماء السوء.

(٢) انظر كتاب الشيخ عثمان (سراج الأخوان) وكتاب ضياء السياسات لعبد الله ابن فوديو.

الأجيال من بعده إذ كانت مدرسة تربت عليها. أذكر منها ما يلقى الضوء على مدى علمه ومكانته وأثرها على الأمة عبر الأجيال. منها:

١ - تعريف فيما يجب على الملوك، أو (التزامات الأمير) وما ينبغي عليه في تطبيق الشريعة وهي الرسالة التي ألفها المغيلي لأمير كانو. وقد تقدم نصها، ولم يذكر أحمد بابا الاسم المباشر لهذه الرسالة إنما اكتفى بقوله: (وكتب له رسالة في أمور السلطنة يحضه على اتباع الشرع وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وقرر لهم أحكام الشرع وقواعده)[١]. ويوجد نص عربي لها كتبه محمد زايان بن محمد المأمون وزير كشنا، ونشر في بيروت سنة ١٩٣١ م وترجمها المستشرق بلدوين إلى الإنجليزية بعنوان (واجبات الأمراء)[٢] ويوجد منها نسخة في كل من نيجيريا ودكار والرباط تحت رقم ٩،٥٢٩.

٢ - كتاب المسائل الذي ألفه لأمير المؤمنين الحاج أبي عبد الله محمد بن أبي بكر أسكيا أجاب فيه على أسئلته التي وجهها إليه أجاب فيه على سبع مسائل، وقد تقدم نص الأسئلة والأجوبة بكاملها. وذكر أحمد بابا هذا الكتاب في نيل الابتهاج، وقال: (وألف له تأليفاً أجاب فيه عن مسائل)[٣]. وقد حقق هذا التأليف عبد القادر زبادية عن نسختين نسخة بالجزائر برقم ٥٢٥٩ ونسخة بالمكتبة الوطنية بباريس ورقمها ح:٣٧(ج)[٤] وتوجد منه نسخة مخطوطة بدكار بتاريخ ١١٢٧ هـ بقلم أحمد بن عبدالرحمن بن علي بن مبارك الدرعي، كما توجد

---

(١) انظر أسماء مؤلفات المغيلي في كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٣١. وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٧٤ لمحمد مخلوف.

(٢) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقية ص ٤٥٧.

(٣) النيل ص ٣٣١.

(٤) انظر الأسئلة والأجوبة ص ٧ وذكر عبد القادر زبادية أنه توجد نسخ من هذا المخطوط في إسبانيا والمغرب.

نسخة في كل من مكتبة أحمد بابا بتمبتكو. . . ونيجيريا، ومركز المخطوطات والتراث الإسلامي بنيامي في جمهورية النيجر.

٣ - رسالة صغيرة عما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام. كتبها لأمير كانوا أيضاً. وقد تقدم نصها. وقد اقتبس من مادة هذه الرسالة الشيخ عثمان بن فوديو. في كتابه تنبيه الإخوان ويذكر الشيخ عثمان أن المغيلي كتبها في سنة ٨٩٧ هـ[1]. الموافق ١٤٩١م.

٤ - مصباح الأرواح في أصول الفلاح في كراسين. ذكره أحمد بابا في النيل وقال عنه: (كتاب عجيب في كراسين أرسله للسنوسي وابن غازي فقرظاه[2].

٥ - مغني النبيل في شرح مختصر الخليل مزجا مختصر جداً وصل فيه للقسم بين الزوجات. وله عليه أخر من البيوعات وغيرها بل قيل إنه شرح ثلاثة أرباع المختصر[3].

٦ - إكليل مغني النبيل حاشية لم تكمل[4].

٧ - شرح بيوع الآجال من ابن الحاجب بحث فيه مع ابن عبدالسلام وخليل[5].

٨ - مختصر تفسير المفتاح للقزويني.

٩ - شرح مختصر تفسير المفتاح.

١٠ - مفتاح النظر في علم الحديث فيه أبحاث مع النووي في تقريبه.

---

(١) انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقية ص ٤٥٨ والإسلام في نيجيريا ص ٨٥.

(٢) النيل ص ٣٣١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نفس المرجع والمكان.

(٥) نفس المكان.

١١ ـ مقدمة في المنطق.

١٢ ـ منظومة في المنطق سماها (منح الوهاب) وثلاثة شروح عليها، وقد شرحها والد أحمد بابا.

١٣ ـ شرح الجمل في المنطق للخونجي.

١٤ ـ كتاب المنهيات. أو تأليف في المنهيات كما سماه أحمد بابا.

١٥ ـ تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين. وهذا الكتاب ربما يكون للشيخ عثمان معرفة تامة به لأن له صدى في مؤلف له باسم (تنبيه الغافلين...).

١٦ ـ شرح خطبة المختصر.

١٧ ـ مقدمة في العربية.

١٨ ـ كتاب الفتح المبين.

١٩ ـ فهرسة مروياته.

٢٠ ـ عدة قصائد كالميمية على وزن البردة ورويها في مدحه ﷺ. وجميع هذه المؤلفات ذكرها أحمد بابا التنبكتي في كتابه: (نيل الابتهاج بتطريز الديباج)[١].

وللإمام المغيلي مؤلفات كثيرة جداً وبعضها مفقود أو منسي أو أتلف أثناء حملات الاستعمار الصليبي على أفريقية ومحاولاته القضاء على التراث الإسلامي في القارة. وقد وصل كثير من مؤلفاته إلى عهد الشيخ عثمان بن فوديو في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ووقف الشيخ عليها، وأخذ بعضها رواية عن شيوخه. وانتفع بها وظهر

---

(١) انظر النيل ص ٣٣١. وذكرها أيضاً محمد بن محمد مخلوف في شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٧٤ طبعة دار الفكر.

أثر ذلك في مؤلفاته وسياساته ونظام حكمه، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ولم يقتصر تأثير المغيلي على السودان وعلى العلماء والفقهاء في تلك البلاد، بل كان له أثر واضح في بلاد المغرب أيضاً. فقد ظل كثير من العلماء والفقهاء في المغرب يدينون له بالفضل ويرون رأيه في مسألة اليهود وأهل الذمة وفي كثير من المسائل. فقد وقع تضييق على اليهود بسبب آراء المغيلي فيهم ومنعوا من الإقامة في كثير من الجهات في المغرب والسودان[١]، وبقيت أفكاره وآراؤه سائدة مدة عهد الدولة السعدية[٢].

ويكفينا علو كعب المغيلي في فنون العلوم الشرعية واللغوية: شهادة الإمام السيوطي له بذلك. ولا غرو في ذلك، فقد كان نداً للسيوطي في العلم ومن طبقته من علاء عصره، ووقع له مراسلة مع السيوطي وجادله في علم المنطق شعراً[٣]. وكان السيوطي ينهى عن

---

(١) يذهب الحسن الوزان (ليون الإفريقي) في كتابه (وصف أفريقيا) ص ٥٤١ إلى أن الحاج محمد أسكيا كان العدو اللدود لليهود. فيقول: (وهذا الملك هو العدو اللدود لليهود، فهو لا يرغب أن يسكن أحد منهم في المدينة. وإذا بلغه أن تاجراً من بلاد البربر يتردد عليهم أو يتاجر معهم يصادر أرزاقه...) ويسكنون غرب الأمبراطورية وشمالها. وأرى أن رأي الوزان هذا مبالغ فيه والدليل على ذلك أن الإمام المغيلي لما قتل اليهود ابنه وهو في غاو سنة ١٥٠٢ م طلب من السلطان أسكيا قبض أهل توات الذين بغاو والتضييق عليهم لتعاملهم مع اليهود، فقبض عليهم، فأنكر عليه أبو المحاسن محمود بن عمر قاض غاو إذا لم يفعلوا شيئاً. فرجع عن ذلك وأطلقهم. انظر النيل ص ٣٣١، ويقال إن أسكيا تريث بعض الشيء لما طلب منه المغيلي ذلك، فلما ألقى القبض على أهل توات بغاو تدخل الأعيان والعلماء من أهل سنغاي فلم ينفذ المضايقة على التواتيين المقيمين بالبلاد.

(٢) انظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص ٢٦٨ وما بعدها.

(٣) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٣٣٢.

الأخذ بالمنطق وذكر آراء العلماء في ذمه أما المغيلي فكان يرى أن المنطق هو الحق أو هو المؤدي إليه، وأنه لا مانع من أخذه من الكفار لأن معرفة الناس بالحق هو المعتمد وليس معرفة الحق بالناس. ومما قاله في ذلك مخاطباً السيوطي:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله ... وكل حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن المرء في العلم حجة ... وينهى عن الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعني إلا عبارة ... عن الحق أو تحقيقه حين جهله
معانيه في كل الكلام فهل ترى ... دليلاً صحيحاً لا يرد لشكله
أرني هداك الله منه قضية ... على غير هذا تنفها عن محله
ودع عنك ما أبدى كفور وذمه ... رجال وأن أثبت صحة نقله
خذ الحق حتى من كفور ولا تقم ... دليلاً على شخص بمذهب مثله
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن ... به لا بهم إذ هم هداة لأجله
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم ... وكم عالم بالشرع باح بفضله

فأجابه السيوطي قائلاً:

عجبت لنظم ما سمعت بمثله ... أتاني عن حبر أقر بنبله
تعجب مني حين ألفت مبدعا ... كتاباً جموعاً فيه جم بنقله
أقرر فيه النهي عن علم منطق ... وما قاله من قال من ذم شكله
وسماه بالفرقان ياليت لم يقل ... فذا وصف قرآن كريم لفظه
وقد قال محتجاً بغير رواية ... مقالاً عجيباً نائياً عن محله
ودع عنك ما أبدى كفور وبعد ذا ... خذ الحق حتى من كفور بخلته
وقد جاءت الآثار في ذم من حوى ... علوم يهود أو نصارى لأجله
يعزز به علماً لديه وإنه ... يعذب تعذيباً يليق بفعله
وقد منع المختار فاروق صحبه ... وقد خط لوحاً بعد توراة أهله
وكم جاء من نهي اتباع لكافر ... وإن كان ذاك لأمر حقاً بأصله
أقمت دليلاً بالحديث ولم أقم ... دليلاً على شخص بمذهب مثله

سلام على هذا الإمام فكم له لدي ثناء واعتراف بفضله[1]

ومن خلال هذه الأبيات التي رد بها السيوطي على المغيلي نجد أن السيوطي يرى المغيلي إماماً في العلم وصاحب قدح معلى وشمساً ساطعة في دنيا الإسلام والعلم. وتكفينا دليلاً على ما نقول عنه: شهادة عالم زمانه له الإمام السيوطي.

آخر أيام المغيلي في بلاد السودان

أثناء إقامة الإمام المغيلي عند سلطان سنغاي الحاج محمد أسكيا سمع بمقتل ابنه على يد يهود توات وهو في غاو عاصمة مملكة سنغاي الإسلامية فانزعج أشد الانزعاج لذلك الخطب الجلل الذي وصله، لأن فيه عداوة الدين وقتل الولد، وفي ثورة من الغضب الجامع طلب من السلطان إلقاء القبض عى أهل توات القاطنين بغاو العاصمة، فقبض عليهم السلطان، ولكنه أفرج عنهم بعد أن أنكر عليه ذلك الفقيه القاضي محمود بن عمر أقيت، الذي أقنعه برأيه بأنه لا ذنب جنوه يكون سبباً في أن يرسفوا في الأغلال[2]. ولم يسع المغيلي بعد ذلك إلا أن يغادر غاو إلى بلاده توات فأدركته المنية بها بعد قليل من وصوله إليها سنة ٩٠٩ هـ رحمه الله تعالى وكان رحمه الله مقداماً على الأمور جسوراً جريء القلب فصيح اللسان محباً في السنة جدلياً نظاراً محققاً[3].

وقد استدل المغيلي على طلبه من السلطان محمد أسكيا قتل من كان بغاو من أهل توات من اليهود: بما رواه الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أنهما يذكران عن رسول الله ﷺ قال: (لو

---

(١) انظر هذه المحاورة بهذه الأبيات بين الإمامين في عصرهما: كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٣٣٢.

(٢) نيل الابتهاج ص ٣٣٢.

(٣) المرجع السابق.

أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار)[1]. ووجه الدلالة من الحديث أن أهل القرية قد اشتركوا في دم ابنه وتمالؤوا على قتله. وإذ اجتمع أكثر من شخص على قتل أحد، قتلوا جميعاً شرعاً. وعليه فإن اليهود كلهم سواء كانوا في توات أو في غاو، قد تمالؤوا على قتل ابنه. وأما حجة القاضي الشيخ محمود بن عمر أن أهل توات القاطنين في غاو ليس لهم علاقة بالقتل ولم يتسببوا فيه لعدم وجودهم في توات وعليه يكون قتلهم أو حبسهم ظلم لا يرضى به الإسلام. وقد اقتنع السلطان برأي القاضي فأطلق سراحهم[2].

ما أشبه اليوم بالبارحة

قصة الإمام المغيلي مع اليهود مع ما ذكره الحسن الوزان المتوفى سنة **١٥٥٢** م في كتابه وصف أفريقيا، وما ذكره ابن عسكر المتوفي سنة **١٥٧٨** م في كتابه دوحة الناشر: من أن أسكيا محمد سلطان سنغاي كان العدو اللدود لليهود، فهو لا يرغب أن يسكن أحد منهم في بلاده، ولا يدخلونها، ولا سائر بلاد الصحراء، وحيث يظهر اليهودي يستباح ماله ودمه، وكل من يحمل مال اليهود للتجارة يصادر ماله معه وإذا بلغه أن تاجراً من بلاد البربر يتردد عليهم أو يتاجر معهم يصادر ماله[3]، اتخذ هذه القصة كثير من الإنجليزيين والفرنسيين والأمريكيين وغيرهم ممن كتبوا حولها رسائل وأبحاثاً - ذريعة للطعن في عدالة المسلمين والعرب حيال اليهود، وحاولوا من خلالها أن يصلوا الحاضر بالماضي للبرهنة على أن العرب والمسلمين قد

---

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه ج **٢** ص **٤٢٧** باب الحكم في الدماء. دار الفكر، نشر مكتبة الرياض الحديثة.

(٢) نيل الابتهاج ص **٣٣١**.

(٣) وصف أفريقيا ص **٥٤١** ودوحة الناشر ص **١٣١** . **١٣٢**.

اضطهدوا اليهود عبر العصور[1]. هذه التهمة تردها المكانة التي حظي بها اليهود في الدولة الإسلامية عبر العصور المختلفة ابتداء من الخلافة الإسلامية حتى سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، والإسلام في كل مراحله التاريخية لم يتعصب يوماً من الأيام ضد رعاياها من أهل الذمة من اليهود والنصارى بل أوجب احترام حقوقهم في العبادة والعيش بأمان وسائر الحقوق من المعاملات وغيرها جنباً إلى جنب في بلاد المسلمين. وقد لاقى اليهود بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس أشد أنواع الاضطهاد والتعذيب على أيد النصارى كما لاقاه المسلمون فلما لجؤوا إلى المغرب والصحراء وبلاد السودان فراراً من اضطهاد النصارى لهم وجدوا الحرية التامة في جميع مرافق الحياة وتمتعوا إلى جانب الحرية التامة في الاقتصاد بالحرية الدينية أيضاً[2]. وقد عرف عن أحمد المنصور سلطان المغرب أنه كان يفدي أسرى المسلمين واليهود معاً من رعاياه بالمال أو بالمبادلة بالمسيحيين. ومن بين اليهود الذين حررهم من الأسر يهودي كان أسيراً عند القراصنة الرهبان فرسان رودس بجزيرة مالطة. مع سماحه لليهود بالاتصال ببلاطه[3]. وهذه أمثلة قليلة من كثير تدل على حسن معاملة العرب لليهود في بلاد المسلمين.

وأما ما ذكره الحسن الوزان ففيه نظر لأنه يتنافى مع ما عرف عن أسكيا من العدالة في رعاياه.

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي ص ٤٢.
(2) الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين ص ٢٧٠.
(3) الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ص ٢٧٠.



الفصل الرابع

أشهر علماء تمبكت وجنى وغاؤ الذين لهم أثر بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجري

يضم هذا البحث الموضوعات التالية:

١ ـ ترجمة مختصرة لأشهر علماء تمبكت الذين قاموا بدور بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في أفريقية الغربية كلها من أسرة أقيت.

٢ ـ أشهر العلماء الذين ساهموا في ازدهار الثقافة الإسلامية في جامعات تمبكت ومدارسها من غير أسرة أقيت.

٣ ـ أهم النتائج التي نستنتجها من تراجم هؤلاء الأعلام حول تطور الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي في عهد أمبراطوريتي مالي وسنغاي.

٤ ـ الحركة الثقافية والفكرية في مدينة جنى من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الهجريين.

٥ ـ تاريخ الحكم في مدينة جنى وحركة العلم والثقافة فيها تحت ظل الحكومات التي مرت عليها.

٦ ـ الثقافة الإسلامية في جنى وفقهاؤها.

٧ ـ أشهر العلماء والفقهاء في مدينة جنى الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية في المنطقة وظهر دورهم بارزاً في ازدهار الثقافة الإسلامية في جنى.

٨ ـ الكتب الدراسية في جامعات ومعاهد الثقافة الإسلامية في

كل من تمبكت، وغاو وجنى وغيرها من مدن السودان الغربي في عهد ازدهار العلم والإسلام في الدولتين الإسلاميتين مالي وسنغاي.

٩ ـ استيلاء جيش ملك مراكش أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي على مملكة سنغاي وأثر ذلك على الثقافة الإسلامية ومعاهدها وحركة العلم والعلماء في السودان الغربي كله.

١٠ ـ نتائج غزو المغاربة أمبراطورية سنغاي الإسلامية والقضاء عليها بشكل نهائي من الناحية الثقافية والعلمية، ومن الناحية الدينية، ومن الناحية الاقتصادية والسياسية.

أشهر علماء تمبكت وجنى الذين لهم أثر بارز في ازدهار

الحركة العلمية والثقافية في مدن السودان الغربي في القرن الثامن والتاسع والعاشر الهجري

عندما قام سلاطين سنغاي من آل أسكيا برعاية الحركة العلمية والثقافية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء وشجعوهم على البذل والعطاء وبنوا المدارس والمعاهد والجامعات بتمبكت برز كثير من رجالات العلم في مختلف الفنون العلمية في مدينة تمبكت من أهل السودان وممن توافد إليها من علماء الشمال والمغرب ومصر والحجاز. كما تقدم ذكر أسماء بعضهم وكان من أشهر علماء هذه المدينة:

الفقيه الحاج:

أول من أورد السعدي ذكره من علماء مدينة تمبكت هو الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج، وكان من علماء جامعة سنكري، تولى القضاء بتمبكت في أواخر دولة مالي، وهو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في مسجد جامع سنكري بعد صلاة العصر، وبعد صلاة العشاء. وهو من العلماء الذين هاجروا أو استقدموا في عهد مملكة مالي الإسلامية إلى تمبكت للمشاركة في النهضة الثقافية التي ازدهرت في ذلك الوقت والتدريس في جامعة سنكري وكان مقدمه من (بير) مع أخيه السيد الفقيه إبراهيم وآثر إبراهيم أن يسكن بلدة بنك إلى أن توفي فيها، وله مواقف مشهودة في صد قبائل الموشي الوثنية عن هذه البلدة[1]، ومن

(١) انظر تاريخ السودان الباب التاسع ص ٢٧ وفي ذكر علماء تنبكت وبلدة بنك قريبة من تمبكت في جنوبها وقبائل الموشي مساكنها جنوب تمبكت.

نسل هذا الفقيه العالم علماء آخرون تولوا مناصب القضاء والتعليم في مناطق أخرى من مدن السودان غير تمبكت مثل ناحية بندبغ، من قبل الحاج أسكيا محمد[1]. ولم يذكر السعدي ما يشير إلى أن هذا الفقيه من أسرة أقيت المشهورة بالرئاسة العلمية في السودان كله. وإنما أشار إلى بعض الأمور التي سببت الجفاء المؤقت بين أسرة الحاج جد القاضي عبد الرحمن الذين كانوا قضاة في بعض الأقاليم في مملكة سنغاي، وبين الفقيه محمود بن عمر أقيت[2].

ولعل هذا هو السبب في عدم انضمام هؤلاء إلى أسرة أقيت. وأفراد أسرة أقيت يضاف إلى اسمهم «أقيت» أو «أندغمحمد»[3]. ونلاحظ من كتب أحمد بابا وتاريخ السعدي[4] وتاريخ الفتاش: أن الأسماء التي ورد فيها اسم «أندغمحمد» لم ترد فيها كلمة أقيت على الرغم من أن الأسرة واحدة. وتفسير ذلك ما ذكره السعدي من أن أسرة أقيت تنقسم إلى فرعين؛ فرع من جهة الأمهات، وفرع من جهة الآباء.

وفرع (أندغمحمد) من جهة الأمهات، وقال عند حديثه عن الفقيه أبي عبد الله أندغمحمد ـ كما سيأتي ـ ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، منهم من جهة الآباء ومنهم من جهة الأمهات، ومنهم من جهتهما معاً[5].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٨.

(٣) لفظ (أندغمحمد) من الألفاظ الدالة على التعظيم والتبجيل عند أهل غرب أفريقيا في ذلك الوقت. انظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ١٩٤ مخطوط ونقل هذا عن نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر لابن الطيب أبي عبد الله محمد ص ١٦٨.

(٤) تاريخ السودان ص ٢٨.

(٥) نفس المرجع السابق.

العلماء الذين انحدروا من نسل العلامة الفقيه محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى بن كدالة بن بكى بن نيق بن لف بن يحيى بن تشت بن تنفر بن حبراي بن أكنبر بن أنص بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني[1]. يعتبرون من أعظم العلماء الذين لهم أثر بارز في الحياة العلمية والثقافية في معاهد تمبكت وجامعاتها ويمثلون العنصر الغالب في الحركة الفكرية والثقافية في السودان الغربي كله. فلذا سينصب الاهتمام على ترجمة أبرز العلماء منهم وأكثرهم تأثيراً في المجتمع السوداني. وأبدأ بجدهم بعد أن عرفنا أنهم يتفرعون إلى فرعين فرع أقيت وفرع أندغمحمد.

محمد أقيت:

هاجر محمد أقيت هذا، جد أسرة أقيت من موطنه الأصلي: بلاد ماسنة إلى بلدة (بير) ويذكر السعدي أنه سمع من حفيده هذه الأسرة: الشيخ أحمد بابا التنبكتي يروي سبب هجرته من بلدة ماسنة إلى (بير) هو بغض محمد أقيت الفلانيين الذين كانوا يجاورونه في السكن فلم يشأ لأبنائه أن يتناسلوا معهم. وقال عنه: إنه على يقين من عدم مناكحته معهم، ولكن يخاف ذلك على أولاده، فقرر الرحيل لئلا يتناسلوا معهم[2].

وبعد هجرته إلى بير رغب في أن يسكن تمبكت ولكن واجهته مشكلة خلافية قديمة مع حاكمها آكل ـ الذي استولى عليها واستقل بها عن مملكة مالي المفككة الأوصال في آخر أيامها. ولكن جرت وساطة نجحت في التوفيق بينهما فدخل مدينة تمبكت بعد ذلك وكان ذلك في منتصف القرن التاسع الهجري[3] وأشهر علماء الثقافة الإسلامية واللغة

---

(١) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ٣١ وتاريخ السودان ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) تاريخ السودان ص ٣٥ ـ ٣٦ وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقيا ص ١٩٦/ ١٩٧.

(٣) تاريخ السودان ص ٣٦ وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، ص ١١٢ ـ الطبعة الأولى للبرتلي الولاتي.

العربية الذين انحدروا من هذه الأسرة العريقة في العلم وأثروا الحركة العلمية والثقافية الإسلامية في تمبكت ومدن غرب أفريقيا هم:

١ ـ الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح ووصفه السعدي وصاحب فتح الشكور بأنه معدن العلم والفضل والصلاح، ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح، وهو جد جد أحمد بابا لأمه، وكان فقيهاً تولى القضاء بتمكبت في أواسط القرن التاسع الهجري. وحكى السعدي عن أحمد بابا أنه أول من خدم العلم من أجداده[١]. وكان أندغمحمد من شيوخ سنكري وعلمائه الذين قاموا بدور بارز في جامعة تمبكت التي تمثل إحدى المنارات للتقدم الفكري والثقافي في العامل. وأهم مركز تعليمي في وسط وغرب أفريقيا إبان ازدهار الأمبراطوريتين الإسلاميتين مالي وسنغاي. ولم يذكر السعدي والولاتي صاحب فتح الشكور تاريخ وفاة هذا العالم ولا مولده.

٢ ـ عمر بن أحمد:

وهو والد جد الشيخ أحمد بابا التنبكتي. وكان عالماً صالحاً تتلمذ على الفقيه القاضي مودب محمد الكابري. وكان حياً حول بداية الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، لأن شيخه الفقيه مؤدب الكابري أدرك علماء من تمبكت في أواخر دولة مالي الإسلامية[٢]. وكان الشيخ عمر بن أحمد هذا من فقهاء وعلماء جامعة سنكري الذين قاموا بإثراء الثقافة الإسلامية واللغة العربية في المنطقة كلها لا في تمبكت وحدها.

٣ ـ المختار النحوي:

هو المختار بن عمر بن أحمد السالف الذكر، لقب بالنحوي

---

(١) المرجعين السابقين تاريخ السودان وفتح الشكور في المكان نفسه.

(٢) انظر تاريخ السودان ٢٨ وكفاية المحتاج لأحمد بابا مخطوط ٢٧.

لتضلعه في هذا الفن، وكان عالماً بكل فن من فنون العلم، عاصر هو وأبوه الفقيه يحيى التادلسي، وتوفي في أواخر العام الثاني والعشرين بعد تسعمائة[1]. حوالي سنة ١٥١٦ م وكان من شيوخ جامعة سنكري وعلمائها الذين ساهموا في بناء قواعد النهضة الثقافية وازدهارها في غرب أفريقيا بصفة عامة وفي تمكبت بصفة خاصة.

٤ ـ عبد الرحمن بن عمر:

هو الفقيه العالم عبد الرحمن بن عمر بن أحمد أخو الفقيه المختار النحوي. كان من الفقهاء المتخصصين في تدريس كتاب التهذيب للبرادعي، وقد وصفه السعدي بالتقوى والحلم[2].

٥ ـ أحمد بريء بن أحمد بن أندغمحمد أبو العباس:

وكان من العلماء الأتقياء المترفعين عن أغراض الدنيا المتواضعين لله وكان من شيوخ سنكري وتخرج على يديه جماعة كثيرة من شيوخ العلم من المتأخرين من أهل سنكري[3] وهو من الشيوخ اللامعين في العلم في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في أمراطورية سنغاي.

٦ ـ أبو عبد الله بن المختار النحوي:

هو أبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد حفيد عمر بن أحمد والد جد أحمد بابا تقلد منصب إمام مسجد سنكري وهو منصب علمي عظيم في ذلك الوقت تسلمه من شيخ الإسلام أبي البركات الفقيه القاضي محمود عند كبر سنه وعجزه

(١) تاريخ السودان ص ٢٨ ـ ٢٩ وفتح الشكور ص ١١٣.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٩.

(٣) السعدي ص ٢٩. وفتح الشكور ص ٢٨، ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته، وقال صاحب فتح الشكور: (لم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله).

عن القيام بمهام المنصب. وقد وصف السعدي أبا عبد الله بن المختار بأنه عالم تقي ورع متواضع واثق بالله، وله صيت في العلم بعلوم اللغة العربية.

وهو ممن تخصصوا في تدريس كتاب الشفاء للقاضي عياض وسرده في شهر رمضان المبارك بمسجد سنكري. وكان مادحاً لرسول الله ﷺ[1].

٧ ـ أبو عبد الله محمد:

هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن الإمام أندغ محمد ابن الفقيه المختار النحوي السالف ذكره، وكان مثل والده مدرساً كتاب الشفاء في رمضان بعد موت أبيه في مسجد سنكري وظل مدرساً في جامع سنكري حتى وافته المنية. ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته[2].

٨ ـ الفقيه المختار بن محمد:

هو الفقيه المختار بن محمد بن الفقيه المختار النحوي بن أندغمحمد، كان مثل أسلافه في القيام بالتدريس ومدح الرسول ﷺ، وذكر السعدي أنه كان مبالغاً في مدح الرسول ﷺ وخاصة بعد حجه وزيارته للمدينة المنورة[3]. وهو الذي حمل رسالة تحية ودعاء بعد حجه من الشيخ السيد محمد البكري العالم المصري المتوفى سنة ١٥٨٧ م إلى أسكيا نوح بن أسكيا داود ويدعو له فيها بالإعزاز والإكرام والدعاء له بخيري الدنيا والآخرة[4].

---

(١) تاريخ السودان ص ٢٩ ولم يذكر السعدي تاريخ وفاته. وانظر فتح الشكور ص ١٠٧ وذكر الولاتي أنه لم يقف على تاريخ وفاته.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٩.

(٣) تاريخ السودان ص ٢٩ وفتح الشكور ص ١٠٧ وتاريخ الفتاش ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٤) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦٧ ـ ١٦٨. وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ١٩٩.

٩ ـ أحمد بن أندغمحمد:

وهو أبو العباس الفقيه أحمد بن أندغمحمد بن محمود بن الفقيه أندغمحمد الكبير وصفه السعدي بالذكي الفطن العالم بفنون العلم من الفقه والنحو والأشعار وغير ذلك[١]. وهو من الذين ظهر لهم أثر بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية العربية إلى أبعد الحدود في طول البلاد وعرضها في أيام ازدهار أمراطورية سنغاي الإسلامية[٢].

١٠ ـ عبد الله ابن الفقيه أحمد بري:

هو أبو محمد عبد الله بن الفقيه أحمد بري بن أحمد بن الفقيه أندغمحمد الكبير، وهو من ذريته من جهة الأب والأم لأن أمه أخت الفقيه أبي العباس أحمد بن أندغمحمد. كان مفتياً شرعياً في زمانه، نحوياً لغوياً متواضعاً واشتهر في زمانه بمعرفة علوم القرآن، وتوثيق الأسانيد. ومن أسباطه شيوخ الإسلام الثلاثة وأئمة الأعلام: الفقيه عبد الله، والفقيه الحاج أحمد، والفقيه محمود أبناء الفقيه عمر بن محمد آقيت[٣].

١١ ـ الفقيه عبد الله بن عمر المولود سنة ٨٦٦ والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ[٤]:

هو الفقيه عبد الله بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى الصنهاجي المسوفي شقيق جد أحمد بابا (أحمد بن عمر) وصفه أحمد بابا: (بالحافظ الزاهد الورع والتوقي)، وكان من الفقهاء الحفاظ الذين قاموا بالتدريس في تمبكت ونشروا الثقافة الإسلامية في ربوعها. ولم يكتف بالتدريس في تمبكت وحدها، بل درس أيضاً

(١) تاريخ السودان ص ٣٠.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) تاريخ السودان ص ٣٠.

(٤) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٦١.

بروالاتا. وتوفي بها. ومن تحريه أنه كان له خادم يبيع اللبن ويجمع ثمنه فباعه مرة بعد المغرب ثم أطلعه على ذلك بعد أن خلط الخادم ثمنه مع غيره من ماله فتصدق بالجميع لأجل تعاطيه البيع بالليل. وكان مالا له بال[1].

١٢ ـ أحمد بن عمر المتوفى سنة ٩٤٢ هـ[2]:

هو أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى التكروري التنكبتي ـ جد أحمد بابا ـ وعرف بالحاج أحمد، أكبر الأخوة الثلاثة المعروفين في قطرهم بالعلم والدين. ووصفه أحمد بابا بأنه كان خيراً فاضلاً صالحاً متورعاً محافظاً على السنة والمروءة والصيانة والتحري محباً في النبي ﷺ وصحبه وملازماً لقراءة الشفاء للقاضي عياض معتنياً به، فقيهاً نحوياً لغوياً عروضياً محصلاً بارعاً حافظاً معتنياً بتحصيل العلم ونسخ كتبه، كتب بخطه عدة دواوين كثيرة وجمع كثيراً من الفوائد والتعاليق، أخذ العلم عن جده لأمه وكان قاضي تمبكت وعلى أهل ولاتن، أخذ النحو عن خاله الفقيه مختار. ثم ارتحل إلى المشرق فحج عام ٨٩٠ هـ ولقي السيوطي وخالد الوقاد الأزهري إمام النحاة وشارح التوضيح وغيرهما ثم رجع إلى بلاده في زمن سني علي ملك سنغاي. وزار بلاد كنو وغيرها من بلاد السودان. وجلس للتعليم ودرس العلم فأخذ عنه جماعة منهم أخوه الفقيه القاضي محمود بن عمر قرأ عليه المدونة وغيرها ولم يزل دؤباً مجتهداً في تعليم العلم وتحصيله حتى توفي ليلة الجمعة من ربيع الثاني عام ٩٤٢ هـ عن نحو ثمانين سنة، وطلب للإمامة

---

(١) نيل الابتهاج ص ١٦١.

(٢) نيل الابتهاج ص ٨٨ ـ ٨٩ وتاريخ السودان ص ٣٧.

فامتنع فضلاً عن غيرها وترك أولاداً نجباء[1].

١٣ ـ أحمد بن أحمد بن عمر ٩٢٩ ـ ٩٩١هـ[2]:

تقدم له ترجمة في العلماء الذين رحلوا في طلب العلم إلى المشرق الإسلامي ثم عادوا إلى أوطانهم وجلسوا للتدريس في جوامع تمبكت وغيرها من مدن السودان، إلا أنه نظراً لقوة تأثيره في الحركة العلمية والثقافية التي ازدهرت في تمبكت وسائر بلاد السودان في ذلك الزمان، ولبروز أثره وبقاء آثاره العلمية، فلذا رأيت إعادة الترجمة له في الذين ساهموا في الحركة الثقافية والنهضة العلمية التي تمت وازدهرت في تمبكت في تلك الفترة.

وهذا الفقيه العالم المصلح هو والد العلامة الفقيه المؤرخ أحمد بابا التنبكتي.

حياته العلمية:

هو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي يحيى التنبكتي، قال عنه ابنه أحمد بابا: كان علامة فهامة ذكياً داركاً محصلاً متفنناً محدثاً أصولياً بيانياً منطقياً. أخذ العلم عن إمام بلده عمه محمود بن عمر وغيره. ورحل للشرق للاستزادة في العلم ـ فحج سنة ٩٥٦ هـ وزار المدينة ولقي في مصر بعض مشاهير العلماء في ذلك الوقت منهم الشيخ الناصر اللقاني، والشريف يوسف الأرميوطي تلميذ السيوطي وجمال الدين ابن الشيخ زكريا، والشيخ التاجوري والأجهوري وغيرهم من هذه الطبقة، فاستفاد منهم، ولقي بالحجاز

(١) المرجعين السابقين في الصفحات نفسها تقدم الحديث عنه فيمن رحل إلى المشرق لطلب العلم من علماء السودان الغربي ثم عادوا إلى بلادهم ونشروا الثقافة الإسلامية في ربوعها.

(٢) نيل الابتهاج ص ٩٣ وما بعدها، وفتح الشكور ص ٣٠ وتاريخ السودان ص ٤٢.

بمكة والمدينة جماعة من كبار العلماء منهم أمين الدين الميموني وابن حجر المكي، والملائي، وبركات الحطاب[1] وعبد العزيز اللمطي، وعبد المعطي السخاوي، وعبد القادر الفاكهاني وغيرهم، وأجازه بعضهم، ولازم أبا المكارم محمد البكري وقيد عنه فوائد[2]؛ ثم عاد إلى بلاده وجلس للتدريس والتأليف والإفادة. وألف شرح مخمسات العشرينيات الفازازية لابن مهيب في مدح النبي ﷺ ولم يكمل، وشرح منظومة المغيلي في المنطق شرحاً جامعاً حسناً وكتب حاشية على شرح التتائي على خليل نبه فيه على مواضع السهو منه وقطعا على مواضع من خليل وشرحاً يسيراً جداً على جمل الخونجي، وعلق على صغرى السنوسي والقرطبية، وألف في الأصول ولم يكمل. جلس لتدريس صحيح البخاري في رجب وشعبان ورمضان لمدة خمس وعشرين سنة ثم صحيح مسلم كذلك حتى توفي وهو يدرس مسلم[3]. وأخذ عنه العلم أشهر علماء تمبكت من بعده منهم الفقيهان العلامتان الأخوان محمد وأخوه أحمد ابنا الفقيه محمود بغيع أخذا عنه الأصول والبيان والمنطق وغيرها. وعبد الله وعبد الرحمن ابنا الفقيه محمود بن عمر أقيت وابنه أحمد بابا وقال عن نفسه: وحضرت أنا عليه أشياء عدة وأجازني جميع ما يجوز له وعنه كتب لي بخطه وسمعت بقراءته الصحيحين والموطأ والشفاء. وغير هؤلاء من العلماء في تمبكت وغاو وجني وغيرها ممن أخذوا عليه وكان رحمه الله رقيق القلب عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس. نفاعاً بجاهه، ولا ترد له شفاعة، ويغلظ على الملوك ممن دونهم وينقادون له ويزورونه في

---

(١) هو بركات بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المكي المتوفى سنة ٩٨٠هـ انظر شجرة النور الزكية.

(٢) نيل الابتهاج ص ٩٣ ـ ٩٤. وتاريخ السودان ص ٤٢ وفتح الشكور ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) المراجع السابقة في الصفحات نفسها.

داره، ولما مرض في غاو عاصمة سنغاي كان السلطان أسكيا داود أعظم سلطان في السودان في ذلك الوقت وهو سلطان أمراطورية سنغاي كان يزوره ويأتيه بالليل ويسمر عنده حتى برىء احتراماً له، وكان جماعاً للكتب وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحاً بإعارتها[1] . . .

١٤ ـ القاضي محمود أقيت: ٨٦٨ ـ ٩٥٥ هـ/١٤٦٣ ـ ١٥٤٨م[2]:

هو شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن يحيى التنبكتي[3]، قال عنه أحمد بابا في النيل: أبو الثناء وأبو المحاسن، عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها وإمامها بلا مدافع، كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ذا ثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار اشتهر علمه وصلاحه في البلاد، وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً. وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته، لا يخاف في الله لومة لائم، يهابه السلاطين فمن دونهم ويزورونه في بيته فلا يقوم لهم، ولا يلتفت إليهم، ويهادونه بالهدايا والتحف، وكان شيخاً كريماً جواداً يفرق ما يهدى له بين الناس. تولى القضاء عام ٩٠٤ فشدد في الأمور، وسدد وتوخى الحق في الأحكام، فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته. وإلى جانب توليه منصب القضاء كان يقوم بالتدريس مع ملازمته له فانتفع به بشر كثير وأحيا العلم بتلك البلاد واشتهر علمه هناك وكثر طلبته في حلقة تدريس الفقه، نجب منهم جماعة كثيرة، وكان أكثر ما

---

(١) انظر تاريخ حياة هذا العالم الجليل في كتاب فتح الشكور ص ٢٩ ـ ٣٠. وكتاب ابنه نيل الابتهاج ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥. وتاريخ السودان ص ٤٢/٤٣.

(٢) نيل الابتهاج ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وتاريخ السودان ص ٣٨.

(٣) انظر المرجعين السابقين.

يدرسه المدونة والرسالة، ومختصر خليل، والألفية وغيرها، وعنه انتشر قراءة خليل هناك في غرب أفريقيا، وكان طلبته يسجلون دروسه عن مختصر خليل وتعليقاته عليه فأخرجوها شرحاً في مجلدين، وانتشر هذا الشرح هناك[1]. حج القاضي محمود عام ٩١٥ هـ فلقي في حجه جماعة من مشاهير علماء المشرق أمثال إبراهيم المقدسي، والشيخ زكريا، والشيخ القلقشندي، واللقانيين وغيرهم من علماء مصر واشتهر عندهم بالعلم والصلاح. ثم عاد إلى بلاده ولازم التدريس والإفادة وإنفاذ الحق[2].

وأخذ عنه العلم والد أحمد بابا كما تقدم وأولاده الثلاثة القضاة: محمد والعاقب وعمر. وغيرهم توفي رحمه الله سادس عشر من رمضان سنة ٩٥٥هـ[3]. والقاضي محمود من أبرز علماء أسرة أقيت وأكثرهم تأثيراً في مدارس تمبكت وغاو في عهد أسكيا الحاج محمد عاهل أمبراطورية سنغاي[4].

١٥ ـ القاضي محمد بن محمود: ٩٠٩ ـ ٩٧٣هـ[5]:

هو القاضي محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت تولى القضاء بعد وفاة أبيه وصفه أحمد بابا بأنه كان على ما أخبر به والده ـ ذا فهم ثاقب وذهن صاف، فهاماً دراكاً من دهاة الناس[6]. كان عالماً جليلاً ولم يكن له نظير في عمره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل له تعليق على رجز المغيلي في المنطق وقد تتلمذ عليه والد أحمد بابا

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤٤ وتاريخ السودن ص ٣٨.
(٢) انظر المرجعين السابقين.
(٣) المرجعين السابقين.
(٤) المرجعين السابقين وتاريخ الفتاش ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٥) النيل ص ٣٤٠.
(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤٠.

ودرسه البيان والمنطق وغيرهما وأخذ عليه غيره من علماء تمبكت وغيرهم[1]. توفي في صفر سنة ٩٧٣هـ[2].

١٦ ـ القاضي العاقب بن محمود أقيت: ٩١٣ ـ ٩٩١هـ[3]:

هو قاضي تمبكت العاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التنبكتي، قال عنه أحمد بابا في النيل: أنه كان مسدداً في أحكامه. صلباً في الحق ثبتاً فيه لا تأخذه في الله لومة لائم قوي القلب مقداماً في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره، جسوراً على السلطان فمن دونه، وقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه، ثم يلاطفونه حتى يرجع وقع له مراراً. أخذ العلم عن أبيه وعمه، ثم رحل إلى المشرق وحج ولقي الشيخ الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري، والشيخ البسكري وغيرهم من هذه الطبقة، وأجازه اللقاني جميع ما يجوز له وعنه، وقال أحمد بابا: وأجازني هو كذلك وكتب لي بخطه[4]. وقال عنه السعدي: أنه قد ملأ أرضه بالعدل بحيث لا يعرف له نظير في ذلك من جميع الآفاق[5]. . وقد مر بنا جانب من إصلاحاته للمساجد.

١٧ ـ القاضي عمر بن محمود أقيت أخو العاقب. ت سنة ١٠٠٣ هـ الموافق سنة ١٥٩٤م[6]:

هو القاضي عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت. أخذ العلم عن أبيه وبرع في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس، وبلغ

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٣ . ٣٤ ونيل الابتهاج ص ٣٤٠.
(٢) النيل ص ٣٤٠.
(٣) نيل الابتهاج ص ٢١٩.
(٤) انظر نيل الابتهاج ٢١٨ . ٢١٩ وذكر أنه توفي في أحد عشر من شهر رجب عام ٩٩١ هـ.
(٥) تاريخ السودان ص ٣٤.
(٦) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٧٨.

الغاية القصوى في الفقه، حتى قال عنه بعض من عاصره من الشيوخ: أنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها[1]. قلت وهذه العبارة التي حكاها السعدي عن بعض العلماء دليل واضح على مكانة هذا العالم في العلم، وبرهان ساطع أيضاً على أن علماء غربي أفريقيا في ذلك الزمان كانوا لا يقلون في مستواهم العلمي والفكري والثقافي عن علماء المغرب. بل قد فاق بعضهم علماء شمال أفريقيا والمغرب في أيامه مثل الشيخ أحمد بابا الذي اعترف بعلمه وتفوقه على من سواه من العلماء في وقته وعلماء المغرب[2].

تولى الشيخ عمر بن محمود قضاء تمبكت في آخر يوم من شهر محرم سنة ٩٩٣هـ بعد أن رفض ذلك حتى كتب له أسكيا سلطان سنغاي أنه إن لم يقبلها يوليها الجاهل، وكل ما حكم به الجاهل لا يسأل عنه غداً بين يدي الله تعالى إلا هو[3].

توفي رحمه الله سنة ١٠٠٣ هـ في مراكش وهو من علماء تمبكت الذين حلت بهم كارثة تنبكت أيام غزو منصور الذهبي ملك مراكش لبلاد السودان. وقد نقل هو وخيار علماء السودان مصفدين بالسلاسل بعد إعدام الكثير منهم في تمبكت وتدمير مكتباتهم العلمية[4]. كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث على أثر غزو الجيش المراكشي على الثقافة الإسلامية في تمبكت وغيرها من بلاد السودان.

١٨ ـ أحمد بن محمد بن سعيد سبط الفقيه محمود بن عمر من جهة أمه:

---

(١) تاريخ السودان ص ٣٤.

(٢) انظر ذلك في ترجمته من كتاب فتح الشكور ص ٣١ ـ ٣٧ تجد كيف فاق أقرانه في المغرب وسائر بلاد السودان والمغرب. وانظر أيضاً ترجمته لنفسه في كتابه كفاية المحتاج.

(٣) فتح الشكور ص ١٧٨.

(٤) المرجع السابق وتاريخ الفتاش ١٧٤ وتاريخ السودان ص ١٧١.

عالم فقيه كان من علماء تمبكت المتضلعين في الفقه ومن حفاظ القرآن الكريم المتقنين، ومن مدرسي تمبكت المشهورين. أخذ العلم عن جده لأمه الشيخ محمود بن عمر أقيت. ودرس عليه الرسالة ومختصر خليل، وأخذ عن غيره المختصر والمدونة، وجلس للتدريس من عام ٩٦٠ هـ إلى حين وفاته، وتزاحم عليه طلاب العلم وانتفعوا به[١]. وذكر أحمد بابا في نيل الابتهاج: بأنه أخذ عنه العلم الأخوان الفقيهان: الشيخ محمد بغيع وأخوه أحمد. قرءآ عليه الموطأ والمدونة ومختصر خليل، وغيرها وله استدراكات في الفقه وحاشية لطيفة على خليل اعتنى فيها بالنقل واعتمد على نقل البيان والتحصيل، وقال: إنه حضر دروسه وهو صغير[٢]. وكان مولده سنة ٩٣١ هـ وتوفي في محرم سنة ٩٧٦هـ[٣].

١٩ ـ بابكر بير ٩٣٢ ـ ٩٩١ هـ/ ١٥٢٥ ـ ١٥٨٣م[٤]:

هو الفقيه أبو بكر المعروف بباكر بير بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت[٥]، وهو نموذج حي للعلماء الذين يبذلون النفس والنفيس في سبيل العلم وطلابه، كان رحمه الله يقوم بالتدريس في تمبكت وينفق على تلاميذه المحتاجين وعلى الأيتام وعلى كل تلميذ متغرب[٦].

وذكره أحمد بابا: أنه أول من قرأ عليه علم العربية ففتح الله عليه في مدة قريبة بلا عناء. ووصفه بأنه من خيار عباد الله الصالحين رفض الدنيا والرغبة عن زهرتها مع ما أوتي أهل بيته حينئذ من الرئاسة

---

(١) تاريخ السودان ص ٤٣ وفتح الشكور ص ٢٨.

(٢) نيل الابتهاج ص ٩٥ وتاريخ السودان ص ٤٣ وفتح الشكور ص ٢٨.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) نيل الابتهاج ص ١٠٢ وتاريخ السودان ص ٣٢ ـ ٤١.

(٥) المرجعين السابقين.

(٦) تاريخ السودان ص ٣٢ وص ٤١.

والدولة. وقال: ما رأيت قط مثله ولا من يقرب منه في معناه. له تآليف في التصوف وغيره، منها معين الضعفاء، وغيره[1]. رحل مع عائلته في حجته الثانية وأقام بالمدينة المنورة حتى توفي فيها سنة ٩٩١هـ[2]، وهو عم أحمد بابا. وأما أحمد بابا نفسه فسأفرد له ترجمة خاصة نظراً لأثره البارز في العلم وشهرته في السودان والمغرب وحركته الإصلاحية في السودان، وهو أكثر علماء السودان الغربي تأثيراً في ازدهار العلم والثقافة الإسلامية في تلك المنطقة بل وفي المغرب أيضاً وهو عمدة الحركة العلمية والثقافية في السودان، ومرجع العلماء والمؤرخين والباحثين عن الحياة العلمية والثقافية في تلك المنطقة، لذا وجب إفراده بالحديث عن أثره في الحركة العلمية والثقافية في تلك الفترة.

وكل هؤلاء العلماء الذين تقدم ذكرهم بأنهم من العلماء الذين لهم أثر بارز في الشهرة العلمية والثقافية التي اشتهرت بها تمبكت وغاو وتميزت بها مدينة تنبكت عن غيرها حتى أصبحت مركز الدين والعلم والثقافة. كل هؤلاء العلماء من أسرة أقيت.

أشهر العلماء الذين ساهموا في ازدهار الثقافة الإسلامية في جامعات تمبكت ومدارسها من غير أسرة أقيت فهم:

٢٠ ـ القاضي الفقيه العلامة أبو عبد الله مودب محمد الكابري:

كان من أصحاب الحلقات الدراسية في جامع سنكري حيث كان حافلاً يومئذ بالطلبة من السودانيين وأهل المغرب المجتهدين في العلم[3]. وموطن هذا العالم شيخ الشيوخ هو كابرا (ميناء تمبكت الشهير الذي يقع على نهر النيجر) ثم انتقل إلى تمبكت وتوطنها في القرن التاسع. ولم يكن القاضي مودب هو الوحيد من علماء كابرا في

---

(١) نيل الابتهاج ص ١٠٢.

(٢) المراجع السابقة في الصفحات نفسها.

(٣) تاريخ السودان ص ٤٧.

تمبكت بل كان معه الكثيرون من العلماء الذين انتقلوا إلى تمبكت من كابرا، فقد ذكر السعدي: أن الذين دفنوا معه في روضته ثلاثون عالماً من علماء كابرا[1]. وهذا دليل على أن مدينة تمبكت كانت محط أنظار العلماء والطلاب من جميع أرجاء غرب أفريقيا بل من جميع أنحاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت، بعد ازدهار الحركة العلمية فيها واشتهارها عالمياً بأنها من أهم مراكز الدين والعلم والثقافة والتجارة في العالم[2]. وكان الكابري شيخ الشيوخ الذين عاصرهم في تمبكت أمثال الشيخ عبد الرحمن التميمي الذي استقدمه السلطان منسى موسى من مكة المكرمة أثناء حجه. وهو جد القاضي حبيب، والفقيه أندغمحمد الكبير جد القاضي محمود لأمه، والفقيه عمر بن محمد أقيت، والعلامة يحيى التادلسي[3]. وقد رثاه تلميذه الفقيه يحيى التادلسي في اثنين وعشرين بيتاً من الشعر بين فيها مكانة هذا العالم وأنه من مشاهير العلماء وأنه كان يسلك في طريقه الشرح وتوضيح المعاني والأحكام: الأسلوب المبسط لتقريب الفهم وتسهيل الاستيعاب مع التعمق في الدروس والمصابرة الطويلة في التحضير[4].

من تلك الأبيات من البيت السادس:

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذي   يثير هموم القلب من كل وافد

يثير هموم القلب فقد سميدع[5]   فقيه حليم حامل للفرائد

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨.

(٢) انظر دولة مالي الإسلامية ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ـ ١٦٩ وأمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٥١ وتاريخ السودان ص ٢١، وتاريخ الفتاش ص ١٧٨/١٧٩.

(٣) تاريخ السودان ص ٤٧.

(٤) انظر تاريخ السودان ص ٤٨ ـ ٤٩ ومملكة سنغاي ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٥) السميدع بفتح السين والميم: السيد الكريم، الشريف السخي، الموطأ، الاكتاف، والشجاع والذئب، والرجل الخفيف في حوائه، والسيف. تطلق على هذه المعاني لغة: انظر القاموس المحيط فصل السين، باب العين ج ٣ ص ٤٠.

بحسن تعليم مقرب فهمه وفتاق تهذيب بحسن الفوائد
محمد الأستاذ مؤدب ذي النهى رباطاً صباراً أمره في التزايد
فيا عجباً هل بعده من مبين ويا عربا هل بعده من مجالد[1]

فهذه الأبيات توضح لنا الطريقة التي يتبعها هذا العالم الجليل في التدريس وصبره على المناقشة في المسائل المختلفة مع طلابه حتى يتمكنوا من بلوغ أهدافهم من التحصيل.

٢١ - من فحول علماء جامعة سنكري وإمام مسجد محمد نض في القرن التاسع الهجري: العلامة الفقيه يحيى التادلسي المتوفى سنة ٨٦٦هـ:

هو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2]. هكذا ذكر السعدي نسب هذا العالم ولم يذكر مستنده ولا المصدر الذي اعتمد عليه في سياق هذه السلسلة. وزعم أن هذا العالم الفقيه قدم إلى تمبكت فترة ولاية كي محمد نض بين عام ٨٣٧هـ وعام ٨٧٦هـ على تمبكت وأنه تلقاه عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبنى مسجداً وجعله إماماً فيه، وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى - وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح، وانتشر ذكره في الآفاق، وامتدحه عميد أسرة أقيت في العلم: القاضي محمود بأنه أفضل من دخل تنبكت من العلماء، وكان الشيخ يحيى التادلسي مثالاً للعالم العامل بعلمه، فقد كان يعمل بالمعاملات التجارية لسد حاجته حتى لا يحتاج إلى الناس في شيء

(١) تاريخ السودان ص ٤٩.

(٢) تاريخ السودان ص ٥٠.

من أمور معيشته، وذلك إلى جانب قيامه بالتدريس وإمامة مسجده وكان يدرس في مسجده وبيته وجامع سنكري أحياناً. وكان يقول لطلبة سنكري عند تدريسه إياهم: يا أهل سنكري كفاكم سيدي عبد الرحمن التميمي[١]. وقد تقدم بعض شعره في رثاء شيخه مؤدب محمد الكابري.

٢٢ ـ الفقيه القاضي الإمام/ كاتب موسى[٢]:

وهو من أئمة المسجد الجامع الكبير في تمبكت المشهورين وذكر السعدي بأن جميع أئمة هذا الجامع من السودانيين وأن آخر الأئمة من السود الفقيه القاضي كاتب موسى وذكر أنه مكث في الإمامة أربعين سنة لم يستنب ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة لما حباه الله من صحة وعافية بين سببها عندما سئل عن ذلك. وقال السعدي أنه من علماء السودانيين الذين رحلوا إلى فاس لطلب العلم بأمر من السلطان العادل سلطان مالي منسى موسى فلما انتهى من دراسته بفاس عاد إلى بلاده مالي وقدم معه الفقيه عبد الله البلبالي الذي استقدمه منسى موسى وخلف عبد الله البلبالي هذا الفقيه القاضي كاتب موسى في الإمامة وهو أول رجل أبيض صلى بالناس إماماً بالمسجد الجامع الكبير وكان جميع أئمته منذ تأسيسه من السود[٣].

وكان الفقيه كاتب موسى إلى جانب توليه منصب الإمامة في الجامع الكبير والتدريس فيه يشغل منصب القاضي، ولا يقضي بين

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن ٨ ـ ١٤ هـ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ ـ ٢١٥ نقل ما في تاريخ السودان.

(٢) ولم يذكر السعدي اسمه الكامل وإنما ردد اسمه بكاتب موسى. انظر تاريخ السودان ص ٥٧ كما لم يذكر تاريخ ميلاده ولا وفاته.

(٣) تاريخ السودان ص ٥٧.

الناس ـ كما يقول السعدي ـ إلا في رحبته سس دبي في وراء داره من جهة المشرق ينصب به المنصة تحت شجرة كبيرة وهو من علماء السودان البارزين الذين ظهر أثرهم جلياً في نمو الحركة الفكرية والثقافية وساهموا بقسط وافر من العلم في ازدهار الحركة العلمية المباركة في السودان الغربي كله وفي مدينة تمبكت بصفة خاصة التي أصبحت كعبة الثقافة والعلوم في السودان آنذاك[١].

٢٣ ـ مسر بوب الزغراني التنبكتي: ينسب لقبيلة الزغرانيين في غرب السودان الغربي وكان رحمه الله عالماً فاضلاً خيراً صالحاً نادر المثل في قبيلته. وقد اشتهر بالعلم والصلاح على الرغم من أنه ينحدر من قبيلة الزغران التي يصفها السعدي والتواتي بأنها لا تعرف بالصلاح ولا بحسن الإسلام[٢]. وهو صاحب الفقيه محمود بن عمر. وكان من أهل الثقة العلمية عند أسرة أقيت، وقد تتلمذ عليه الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود بن عمر أقيت في أول الأمر حتى أنه كان يحترم كل زغراني لأجل شيخه مسر بوب، وذكر السعدي أنه كان في مدرسته ذات يوم فأذنه الناس بجنازة، فقال: من هو؟ «قيل زغراني، قال نصلي عليه لأجل الشيخ مسر بوب فخرج فصلى عليه[٣]. وهو من المساهمين في نشر العلم والثقافة الإسلامية في تمبكت والسودان كله. وقال صاحب فتح الشكور: أنه لم يقف على تاريخ وفاته[٤].

٢٤ ـ الفقيه صديق تعلى المتوفى سنة ٩٧٣هـ[٥]:

---

(١) المرجع السابق وتاريخ الفتاش ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠.
(٢) تاريخ السودان ص ٥١ ـ ٥٢ وفتح الشكور في أعيان علماء التكرور ص ١٤٧.
(٣) المرجعين السابقين.
(٤) فتح الشكور ص ١٤٧ ولم يذكر السعدي أيضاً مولده ولا تاريخ وفاته.
(٥) فتح الشكور ص ١٥٥.

هو الفقيه صديق بن محمد تعلى الكابري الأصل والجنجوي المولد[1]. إمام المسجد الجامع الكبير بتمبكت وأحد علمائه البارزين.

والفقيه الصديق وصفه السعدي بأنه كان عالماً فقيهاً فاضلاً خيراً صالحاً، وهو من علماء بلدة جنج القريبة من تنبكت والمجاورة لها، جاء إلى مدينة تمبكت لينهل من منابع العلم والمعرفة والثقافة في هذه المدينة التي أصبحت كعبة العلم يقصدها العلماء وطلبة العلم. رحل إليها هذا العالم الفقيه وتوطنها على الرغم أنه كان صاحب مدرسة في بلدته جنج وفيها طلبته النجباء والرواية التي ذكرها السعدي وغيره في سبب رحيله من جنج إلى تمبكت وترك مدرسته وطلبته تدل على مدى حرص هذا العالم على الاستزادة من العلم كما توضح لنا مدى ما وصلت إليه مدينة تمبكت من التقدم العلمي والثقافي ومدى تقدم الفكر الإسلامي فيها.

فقد قال السعدي وصاحب فتح الشكور: إن سبب رحيله إلى تمبكت وتوطنه فيها: أنه صور مسألة من مسائل الفقه في مدرسته يوماً واحداً، وهناك من طلبته الذي ارتحل إلى تمبكت بعدما قرأ عليه ما قرأ ثم رجع إلى جنج. فقال: صورة هذه المسألة ليست كذلك على ما سمعت من الفقهاء في تمبكت. فقال: وما هي؟ قال: كذا. وكذا قال ضيعنا عمرنا باطلاً. فمن هذا ارتحاله رضي الله عنه[2]. تولى الفقيه صديق إمامة المسجد الجامع لمدة أربع وعشرين سنة حتى توفي سنة ٩٧٣هـ[3] فتنازع أهل الجامع الكبير بعد وفاته في الفقيه كداد الفلاني والفقيه أحمد بن الإمام صديق فاختار القاضي العاقب كداد إماماً وهو فاضل من عباد الله

---

(١) تاريخ السودان ص ٦١ وفتح الشكور ص ١٥٤.

(٢) المرجعين السابقين.

(٣) المراجع السابقة.

الصالحين، فمكث في الإمامة اثنتي عشرة سنة[1]. وخلفه بعد موته في الإمامة الفقيه أحمد بن الإمام صديق بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمسة عشر سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام وهو آخر أئمة المسجد الكبير في دولة سنغاي. وظل في الإمامة بعد غزو المغرب مملكة سنغاي والاستيلاء على تمبكت لمدة خمس سنوات[2] رحل الفقيه صديق إلى المشرق الإسلامي وأدى فريضة الحج والتقى بكثير من العلماء في مصر والحجاز ومنهم الشيخ محمد البكري الصديقي ثم عاد إلى بلاده وانتفع الناس بعلمه[3].

٢٥ ـ محمد بغيع[4]: ٩٣٠ ـ ١٠٠٢ هـ/ ١٥٢٣ ـ ١٥٩٣م[5]:

وهو ابن الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيع جنوى بلداً ونكرى أصلاً وتولى والده قضاء جنى بعد وفاة قاضيها العباس كب سنة ٩٥٩ هـ[6]. كما سيأتي الكلام عليه عند الحديث على جنى وعلمائها.

وهو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي ولمحمد هذا أخ عالم جليل وهو أحمد بن محمود بغيع، ومحمد بغيع هذا من أشهر علماء تمبكت في وقته وأكثرهم ملازمة للتعليم ونفعاً للطلاب

---

(١) مهر كداد هذا في الحديث والفقه وكان مدرساً وواعظاً. توفي سنة ١٦٢٥م.

(٢) انظر المراجع السابقة وانظر أيضاً تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ص ١٧٩ لا يعرف اسم مؤلفه، لكن الثابت أنه كان يعيش في تمبكت وأنه تعلم هناك وكلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي وقد فرغ من تأليفه في ١٩ يوليه عام ١٧٥١م انظر بداية الحكم المغربي ص ٥٣٦.

(٣) تاريخ السودان ص ٦١ وفتح الشكور ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٤) بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة، فعين مهملة مضمومة، هكذا ضبطه أحمد بابا والسعدي.

(٥) انظر نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

(٦) تاريخ السودان ص ١٩، وقد تقدم الكلام على حياة محمد بغيع العلمية فيمن رحلوا لطلب العلم من علماء السودان إلى المشرق الإسلامي.

وأهل العلم ومن أشهر شيوخ أحمد بابا وأشدهم تأثيراً فيه وفي كل تلاميذه. وكان منار عجب معاصريه في الصبر على إيصال الفائدة والمعلومات إلى البليد من تلاميذه بلا ملل أو ضجر.

وقد وصله تلميذه أحمد بابا: بالعالم المتفنن الصالح العابد المفتي من خيار عباد الله الصالحين والعلماء العاملين مطبوع على الخير وحسن النية وسلامة الطوية... وقال: إن الناس كلهم يتساوون عنده لحسن ظنه بهم وعدم معرفة الشر مع السعي في قضاء الحوائج وارتكاب ضرر نفسه فيه والتفجع لمكروههم والإصلاح بينهم ونصحهم إلى محبة العلم وتعليمه...[1].

نشره للعلم عن طريق إعارة الكتب وسعيه في اقتنائها شراءً ونسخاً:

وقال عنه تلميذه في ذلك: وكان يبذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم، بحيث لا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون فضاع له بذلك جملة من كتبه نفعه الله تعالى بذلك؛ وربما يأتي لباب داره طالب فيرسل له براءة فيها اسم كتاب يطلبه فيخرجه من الخزانة ويرسله له من غير معرفته من هو، فكان في ذلك العجب العجائب إيثاراً لوجهه تعالى مع محبته للكتب وسعيه في تحصيلها شراءً ونسخاً، وقد جئته يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره فأعطاني كل ما ظفر به منها[2].

منهجه في التدريس والتعليم وإيصال المعلومات إلى أذهان تلاميذه:

وصفه أحمد بابا: بأنه كان له صبر عظيم على التعليم آناء الليل

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) نيل الابتهاج ٣٤١ وانظر أيضاً تاريخ السودان ص ٤٤ ـ ٤٥.

وصبر على إيصال الفائدة للبليد بلا ملل ولا كسل حتى يضجر حاضروه وهو لا يكترث فنفع الله به كثيراً مع ملازمة العبادة وصلاح النية والتجافي عن رديء الأخلاق. . . طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدىء ولا بليد، أفنى فيه عمره، مع تشبثه بحوائج العامة، وأمور القضاء إذ لم يصيبوا عنه بديلاً ولا نالوا له مثيلاً، وقد طلب من جهة السلطان بتوليه قضاء محل السلطنة فأنف منه وامتنع فخلصه الله تعالى.

لازم التدريس والإقراء، ولاسيما بعد موت الشيخ أحمد بن سعيد، وقال أحمد بابا: أدركته أنا يقرىء من صلاة الصبح أول وقته إلى الضحى الكبيرة دولاً مختلفة، ثم يقوم لبيته ويصلي الضحى مدة، وربما مشى بعدها للقاضي في أمر الناس ويصلح بين الناس، ثم يدرس في بيته وقت الزوال ثم يصلي الظهر بالناس ويدرس إلى العصر، ثم يصليها، ويذهب إلى موضع آخر يدرس فيه إلى الإصفرار أو قربه، وإذا صلى المغرب درس في الجامع إلى العشاء، ثم رجع لبيته. وسمعت أنه يحيي آخر الليل دائماً، وكان مع ذلك محققاً داركاً ذكياً فطناً غواصاً على اللطائف، حاضراً الجواب سريع الإدراك وجودة الفهم، معروفاً بذلك[1].

شيوخه ورحلاته العلمية وتلاميذه:

قال تلميذه أحمد بابا: أخذ العربية والفقه على أبيه الفقيه القاضي محمود وعلى خاله، ثم رحل لتنبكت مع أخيه الفقيه أحمد فلازما الفقيه أحمد بن سعيد في المختصر، ثم حجا مع خالهما، فلقوا بمصر الناصر اللقاني والتاجوري والزين البحيري والشريف يوسف والبرهموشي الحنفي والشيخ الإمام محمد البكري وغيرهم فحصلا هناك ما حصلا ثم رجعا بعد أداء فريضة الحج وموت خالهما،

---

(١) المرجعين السابقين.

فاستوطنا تنبكت فأخذا أيضاً عن ابن سعيد الفقيه والحديث قرأ عليه المدونة والموطأ والمختصر وغيرها ولازماه. وعن السيد الوالد أحمد بن أحمد الأصول والبيان والمنطق فقرآ عليه أصول السبكي والتلخيص، وحضر عليه شيخنا وحده جمل الخونجي - الكلام لأحمد بابا - ولازم مع ذلك الإقراء فحصل له علوم حتى صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له. ويضيف أحمد بابا قائلاً: لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وفرعي ابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير وختمتهما عليه. أما خليل فمراراً عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري. وحضرت عليه التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا يسير من الوديعة إلى الأقضية، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحهما، وحضرتهما عليه مرة أخرى، وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين وتلخيص المفتاح بمختصر السعد، وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وحضرت عليه الكبرى وشرحها، وقرأت عليه حكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه، ونظم أبي مقرعة والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني، وكثيراً من تحفة الحكام لابن العاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري ومسلماً كله، ودولاً من مدخل ابن الحاج، وبقراءة غيري دروساً من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً، وهو مجلد كبير، ومواضع آخر منه، وباحثته كثيراً في المشكلات وراجعته طويلاً في المهمات، وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه رحمه الله[1].

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ - ٣٤٢، وتاريخ السودان ص ٤٥ - ٤٦.

قال أحمد بابا: وأجازني جميع ما يجوز له وعنه وكتب لي بخطه في ذلك. وأوقفته على بعض تأليفي وتقاييدي فكتب لي بخطه الثناء والموافقة بل كتب عني أشياء من أبحاثي لحسن نيته. وسمعته ينقل في دروسه بعضها لإنصافه وتواضعه وقبوله الحق حيث تعين؛ وكان حاضراً معنا يوم الكائنة العظمى علينا بتنبكت فنجاه الله تعالى. فكان آخر عهدي به ثم بلغني وفاته بها يوم الجمعة من شوال في عام اثنين وألف رحمه الله تعالى، وأخبرني أن مولده سنة ثلاثين وتسعمائة. وله تعاليق وحواش نبه فيها على هفوات لشراح خليل وغيره، وتتبع شرح التتائي الكبير من أوله إلى آخره فبين ما فيه من السهو نقلاً وتقريراً في غاية الإفادة، وقد جمعتها في عدة كراريس تأليفاً مستقلاً، وله فتاوى عديدة. انتهى ما كتبه أحمد عن شيخه[1].

وعندما حلت نكبة الغزو المراكشي بعلماء تمبكت عامة وأسرة أقيت خاصة كان هو النبراس الباقي في تمبكت لينير للناس فيها طريق الحق والهدى وقد وقف موقفاً شجاعاً أمام الباشا المراكشي حين طلب منه أن يكتب شهادته زوراً وكذباً ضد من أسر أو قتل من العلماء والفقهاء في تمبكت ليتخذها حجة على إدانتهم بالمروق عليه وتعاونهم مع السلطان نوح عاهل سنغاي المناهض للاحتلال، وأبى الشيخ محمد أن يفعل ذلك ولو قطعت رأسه عن جسده. وفي النهاية عفى عنه الباشا إكباراً منه لنبل موقفه وورعه، وأصبح بعد ذلك محل تقدير واحترام الباشا، وصاحب شفاعة لكثير من أهل تنبكت[2]. وهذا العالم لا يزال عالقاً في أذهان الأفريقيين في غرب أفريقيا وآثار مدرسته باقية في تمبكت لشدة تأثيره على أهلها.

٢٦ ـ القاضي محمود كعت وأسرته:

---

(١) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٢) انظر قصة موقفه مع الباشا في تاريخ الفتاش ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

هو القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني داراً والتنبكتي مسكناً الوعكري أصلاً. ولد في منطقة كورما غرب غاو وعاصر أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد الذي حكم سنغاي من ١٤٩٣ - ١٥٢٨م وسكن في تمبكت وتلقى العلم على علمائها وفقهائها وبرع في الأدب والفقه وتقلد منصب القضاء وكان زاهداً ورعاً أحبه أسكيا محمد وقربه إليه وجعله من مستشاريه[١].

اختلف في تاريخ ميلاده إلا أنه عاش في أيام أسكيا الحاج محمد وحج معه سنة ١٤٩٥ م في أواخر القرن التاسع الهجري أو في ٩٠٢ هـ وقد ذكر أنه كان معه في حجه وقال في أثناء ذكر من معه من العلماء والأمراء والأعيان: (والمبتلي بالتأليف أنا محمود كعت)[٢].

وكان القاضي الفقيه محمود كعت وأبناؤه: القاضي الفقيه: إسماعيل بن محمود كعت[٣] والفقيه يوسف بن محمود كعت[٤] محمد الأمين بن محمود كعت، وحفيده ابن المختار وهو ابن بنت القاضي محمود كعت صاحب التاريخ وهؤلاء من أسرة كعت من أعلام العلماء واشتهر الخمسة المذكور أسماؤهم بأنهم أعلام المؤرخين السودانيين وقد ألف القاضي محمود كتابه (تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظام الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار) خلال القرن السادس عشر الميلادي وحسبما تذكره بعض المصادر أنه ولد سنة ١٤٦٨م وابتدأ كتابة مؤلفه وهو في سن الخمسين وتوفي سنة ١٥٩٣م الموافق ١٠٠٢هـ، وعلى هذا

---

(١) انظر ما تقدم في مقدمة كتابه تاريخ الفتاش ص ١ - ١٦ وما بعدها وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٥٣١ ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) تاريخ الفتاش ١٦.

(٣) تاريخ الفتاش ص ٧٥ وص ١١٦.

(٤) الفتاش ١٤٢ وفي أماكن متفرقة جاء ذكر هؤلاء الفقهاء من أسرة كعت.

الاعتبار يكون كعت قد حضر احتلال المغاربة بلاد السودان، وما سبق ذلك من أزمات سياسية بين البلدين، مما يعطي كتابه ميزة خاصة، ولكن الحوادث التي احتواها الكتاب تجتاز عمره بست سنوات مما يبعث على الاعتقاد بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته[1]. وقد جاء في مواضع متفرقة من الكتاب ما يدل على أن حفيده ابن المختار هو الذي كمل الكتاب معتمداً في ذلك على بعض مذكرات أخواله فقد قال في ص ١٤٢: (ورأيت بخط خالنا الفقيه يوسف كعت بن ألفع محمود كعت رحمهما الله أنه جاءه مرسول الأمير...) ويقول في ص ١٠٨ ومن ذلك ما رويت عن خالي يرويه عن أبيه ألفع كعت...) وقد كرر مثل هذا في مواضع من الكتاب ويقول في موضع آخر: (وقال القاضي إسماعيل كعت...)[2] وهذا يدل على أن القاضي محمود كعت قد حرر أجزاء من الكتاب وترك أجزاء لم يحررها مباشرة بل تركها كمذكرات في أيدي أبنائه وقام بتحريرها أحد أحفاده بعد أن ضمها إلى مذكرات أخرى لبعض أبناء القاضي محمود. والله سبحانه وتعالى أعلم[3]. وقد بدأ محمود كعت كتابه بالحديث عن بداية عهد محمد أسكيا وحجه فأثنى عليه كثيراً ووصفه بالعدل والصلاح وإقامة الدين في حين أنحى باللائمة على سلف سنى على ووصفه بالخروج على الدين... وختم حديثه بالكلام على تمبكت حين غزاها المغاربة وما لحقها من الدمار ونفي العلماء وقتل بعضهم وما حل بالسنغاي من النكبات التي حولت البلاد كلها إلى فوضى وتفشي الجهل والفساد في

---

(١) انظر ص ٧٥ و ص ١١٦ وص ١٤٢ من الفتاش نفسه، ومملكة سنغاي ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) انظر ص ٧٥ - ١٠٨ - ١٤٢...

(٣) إن صح هذا يكون حفيد محمود كعت هذا ابن بنته المدعو ابن المختار قد استخدم الوثائق التي تركها أسرة كعت وبدأها جده محمود وأبناؤه ليخرج لنا كتاب الفتاش.

الدين والدنيا[١]. والقاضي محمود كعت من الذين ساهموا في إرساء قواعد النهضة الثقافية الإسلامية المزدهرة في السودان الغربي في عهد حكم آل أسكيا لأمبراطورية سنغاي ومن العلماء المشهود لهم بالكفاءة العلمية في التعليم والإصلاح.

وقد كان محمود كعت من العلماء المرموقين في تمبكت، وكان من المقربين لدى السلاطين مما ساعده على الاهتمام بكتابة تاريخ بلاده وإيراد أخبار مفيدة عن كثير من الأحداث التي وقعت في صدر دولة سنغاي المترامية الأطراف إلا أنه على الرغم من اتساع عنوان الكتاب فإنه لم يشتمل على تسجيل كل الحوادث الهامة عن دولة سنغاي.

٢٧ ـ عريان الرأس المتوفى سنة ١٠٢٠هـ[٢]:

وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى بن عريان الرأس وهو من فقهاء تنبكت الصالحين ـ كما يقول السعدي ـ وكان سخياً كريماً خرج من ماله كله صدقة لله[٣] يتصدق على الفقراء والمساكين، واشترى كثيراً من الأرقاء أعتقهم لوجه الله، وكان بيته مفتوحاً لكل من جاءه يدخل بلا استئذان يأتيه الناس من كل مكان، ومن أصدقاء الفقيه أحمد بن الحاج أحمد والد أحمد بابا، ومن تلاميذ الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه محمود. ويسميه أهل سنكري بـ محمد ولد أد علي[٤].

٢٨ ـ من الشيوخ الذين لهم تأثير في مدرسة تمبكت الثقافية:

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٧٥ وما بعدها.
(٢) تاريخ السودان ص ٥٦.
(٣) المرجع السابق ص ٥٢ وما بعدها.
(٤) تاريخ السودان ص ٥٢ ـ ٥٣.

الشيخ الأمين بن أحمد ت ١٠٤١هـ شيخ عبد الرحمن السعدي صاحب تاريخ السودان.

وذكر عبد الرحمن السعدي أن شيخه الأمين أحمد قد بز أقرانه ومعاصريه من علماء تمبكت في المعرفة، وكان مجتهداً صاحب تخصصات متعددة: نحوي تصريفي لغوي، له حظ في معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وكان من علماء تمبكت البارزين الذين ساهموا بقسط وافر من العلم في النهضة الثقافية في مدينة تمبكت في السودان الغربي بصفة عامة. توفي رحمه الله في شوال سنة ١٠٤١هـ وكان مولده سنة ٩٥٧هـ[١].

٢٩ ـ عبد الرحمن السعدي أو السعيدي ١٠٠٤ ـ ١٠٦٦ هـ ١٥٩٦ ـ ١٦٥٥م:

هو عبد الرحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر السعدي. وقد لقب نفسه بالسعيدي في موضعين من كتابه فقال في ص ٢١٣: وفي ليلة الأربعاء ليلة الفطر... ولد جامع هذه الكراريس عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعيدي. وفي ص ٢١٦ قال: وفي أواخر هذا العام توفي عمنا بابا عامر بن عمران السعيدي. وقد اتفقت النسختان من كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور على السعيدي[٢]. وإنما جاءت كلمة (السعدي) في صدر كتابه المطبوع تحقيق هوداس[٣] وينتمي السعدي إلى أسرة من الفقهاء في تمبكت حيث كان مولده وقد ولد بعد وفاة القاضي والمؤرخ محمود كعت بثلاث سنوات[٤]. وقد كان السعدي من العلماء ومن بيت علم وجاه تولى إمامة جامع سنكري سنة ١٠٣٦هـ، وألف كتابه تاريخ السودان.

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ٥٥ ـ ٥٦ وص ٢٤٧.

(٢) انظر ص ٢١٣ وص ٢١٦ من تاريخ السودان. وانظر فتح الشكور ص ١٧٦.

(٣) انظر عنوان الكتاب: تاريخ السودان الصفحة الأولى.

(٤) مملكة سنغاي ص ١٦١.

وقد شهد الاحتلال المراكشي لأمبراطورية سنغاي الإسلامية ومدينة تنبكت فجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة، وقد كان لكتاب السعدي تاريخ السودان: الفضل الأكبر في إبراز صورة الحضارة والثقافة الإسلاميتين في السودان الغربي عامة ومدينة تمبكت وجنى بصفة خاصة، فهو مؤرخ أمبراطورية سنغاي الإسلامية أولاً وأمبراطورية مالي الإسلامية ثانياً[1].

والمتتبع لهذا الكتاب يدرك مدى أهميته في تاريخ التعليم والفكر الإسلاميين وما وصلت إليه امبراطورية سنغاي من الازدهار الثقافي والعلمي والتجاري في ذلك العهد وما قام به علماء غرب أفريقيا من حركة علمية مباركة في جميع أنحاء السودان الغربي. وقد استهل السعدي في مقدمة كتابه بذكر الأسباب التي حدت به إلى التأليف فقال: ولما رأيت انقراض ذلك العلم - أي خراب تمبكت بنفي علمائها إلى مراكش - ودروسه. وذهاب ديناره وفلوسه، وأنه كبير الفوائد كثير الفرائد لما فيه من معرفة المرء أخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله سبحانه في كتب ما رأيت من ذكر ملوك السودان أهل سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك، وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوها وغير ذلك إلى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية العباسية، سلطان مدينة الحمراء مراكش. . .[2] ويدأ بعد ذلك بالحديث عن العلماء والمصلحين في أمبراطورية سنغاي الإسلامية وأرجع أسباب ضعف سنغاي في آخر أمرهم واستيلاء المراكشيين على سنغاي إلى سوء الأخلاق وفساد سيرة الحكام بين الرعية. وهذه الأسباب ذكرها كعت في تاريخ الفتاش قبله.

---

(١) راجع كتاب تاريخ السودان ص ٢ إلى ٦٥ وما بعدها.

(٢) انظر تاريخه ص ٢.

والقسم الأكبر من الكتاب خصصه السعدي للحديث عن حكم الباشوات من المغاربة في سنغاي. ولذا يعتبر كتابه من أوفر المراجع في بلاد السودان في تلك الفترة[١].

وقد قسم السعدي كتابه إلى ثمانية وثلاثين باباً من الباب الأول إلى الرابع خصصه للحديث عن مالي وبداية سني علي ملك سنغاي والباب الخامس والسادس خصصها للحديث عن مدينة جنى وعلمائها وصلحائها، ومن الباب السابع حتى الحادي عشر لمدينة تمبكت وعلمائها والحركة العلمية والثقافية المزدهرة فيها ورحلات العلماء من وإليها.

والباب الثاني عشر عن حياة سني علي ملك سنغاي وقوته واستيلائه على سائر البلدان وعلى تمبكت.

ومن الحادي والعشرين حتى السابع والعشرين خصصها للحديث عن ملوك الأساكي وعدلهم ونشرهم للإسلام والعلم وتشجيع العلماء.

وبقية الأبواب إلى آخر الكتاب في أخبار احتلال المراكشيين لبلاد السودان وما حل بالبلاد من الكوارث واندراس العلم وتفشي الجهل والظلم تحت حكم الباشوات من المغاربة. وأما أسلوب الكتاب فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالباً وعدم ارتباط الأفكار واستعمال التراكيب الضعيفة والكلمات العامية أحياناً، وهذا يدل على أن الحركة العلمية والثقافية والأدبية واللغوية التي ازدهرت في عهد الأسكيين آلت إلى الضعف والتفكك وأصابها ما أصاب البلاد والعلماء من جراء الغزو المغربي الذي قضى على معالم الثقافة الإسلامية في السودان آنذاك[٢].
إن هؤلاء الأعلام الذين ذكرنا تراجم بعضهم من العلماء والفقهاء أثروا

---

(١) راجع تاريخ السودان.

(٢) انظر تاريخ السودان وتاريخ الفتاش ومملكة سنغاي وتاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا لمهدي رزق الله.

الحياة العلمية والثقافية في السودان الغربي كله وفي تمبكت بصفة خاصة ولأصحاب هذه التراجم وغيرهم ممن لم يسع الوقت لذكر تراجمهم أهمية بالغة في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في تلك البلاد.

أهم النتائج التي نستنتجها من تراجم هؤلاء الأعلام حول تطور الحركة العلمية والثقافية في السودان الغربي في عهد امبراطورية سنغاي ومالي

١ ـ إن الحركة العلمية والثقافية كانت على درجة عالية من الازدهار بمقاييس ذلك العصر في تمبكت وبقية المراكز الثقافية في السودان الغربي وخاصة في عهد أمبراطورية سنغاي وأنها كانت تشبه في جميع جوانبها ما كان موجوداً في البلاد الإسلامية الأخرى في المغرب ومصر والحجاز والشام، من تضلع الأساتذة في أنواع المعارف الموجودة في ذلك الوقت وحدبهم على التدريس وإقبال جموع الطلبة على الأخذ عن الفقهاء والعلماء.

٢ ـ إن المستوى الثقافي والعلمي والفكري لدى الفقهاء والعلماء في تمبكت لا يقل عن المستوى الذي كان سائداً آنذاك لدى فقهاء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب. وهناك شاهدة على ذلك ورواية مشهورة متواترة تدل على رسوخ قدم علماء تمبكت في العلم والتعليم الإسلامي: وهي أن الفقيه عبد الرحمن التميمي المكي الذي استقدمه السلطان منسى موسى معه أثناء عودته من حجته من الحجاز ليقوم بالتعليم والتدريس في جامعة تنبكت ومعاهدها[١] لما وصل إلى مدينة تمبكت وسكنها وجدها حافلة بالفقهاء والعلماء الذين فاقوه في العلم فاضطر ليرحل إلى فاس. وتفقه هناك ثم رجع إلى تمبكت مرة أخرى ليمارس التدريس. وكان الفقيه عبد الرحمن التميمي من العلماء

---

(١) تاريخ السودان ص ٥١.

المشهود لهم بالكفاءة العلمية العالية. وكان العلامة الفقيه يحيى التادلسي يقول لطلبة جامعة سنكري يا أهل سنكري كفاكم في العلم سيدي عبد الرحمن التميمي[1]. وقد أورد الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد أدلة في كتابه ـ التربية في السودان ـ[2] على تفوق علماء تنبكت على علماء سنار في مجال العلم والمعرفة فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر الهجريين، والخامس عشر والثامن عشر الميلاديين، وأتى بنماذج على هذا التفوق في عدة مجالات تخصصية[3].

٣ ـ فيما يتعلق بتطور الحركة الفكرية بالسودان الغربي في أيام السنغاي نلاحظ أن الأبحاث التي كانت نشيطة هي العلوم الشرعية واللغوية وهذه العلوم ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى الإنتاج المستقل إلا أنه إذا كان قارىء هذا التراجم يخرج بنتيجة وهي أن أصحابها في الغالب الأعم كانوا مرددين لما قاله من قبلهم حيث انحصرت معلوماتهم في المتون والشروح والحواشي والتعاليق ولم يكن لهم إنتاج مستقل في الأغلب فإن الذنب في ذلك ليس ذنبهم وحدهم ـ إن صح هذا التعبير ـ وإنما الذنب كان ذنب العصر كله حيث اتسمت الثقافة الإسلامية العربية فيه في الشرق والمغرب على حد سواء بالجمود والركود والتقليد وتكرار ما قيل من قبل، إلا أن قارىء هذه التراجم سوف لا ينسى فضل هؤلاء العلماء السودانيين المرددين ما قاله من قبلهم لمساهمتهم مساهمة فعالة في ازدهار الثقافة الإسلامية العربية وقاموا بجهد كبير في رفع مستوى التعليم الإسلامي إلى أعلى مستوى موجود في ذلك العصر. على رغم عيشهم في مناطق نائية ومنعزلة عن مراكز الثقافة الإسلامية الكبرى في المغرب وتونس والقاهرة والحجاز وبلاد الشام والعراق. ولا يستطيعون

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٣) وانظر تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن ٨ ـ ١٣هـ.

الوصول إليها إلا بشق الأنفس. فجزاهم الله ثواباً جزيلاً لما قدموه في سبيل إعلاء كلمة الله وخدمة دينهم وأمتهم.

٤ ـ اعتنى علماء وفقهاء تمبكت بجمع الكتب والمخطوطات وكانوا يبذلون الغالي والنفيس في سبيل اقتنائها شراء ونسخاً حتى اشتهرت تمبكت عالمياً ببيع الكتب والمخطوطات وأصبح التجار عن طريقها يتحصلون على أكبر ربح على الإطلاق ربحاً يفوق بكثير ما يتحصلونه من السلع الأخرى.

وكانت جامعة سنكري قد تمتعت بسمعة كبيرة جداً وتجاوزت سمعتها حدود بلاد السودان، كما أن شهرة أساتذتها تجاوزت حدود السودان إلى شمال أفريقيا والمغرب ومصر، حتى دعي بعضهم للتدريس في جامعة الأزهر وفاس[١]. وقد ساد في هذا العصر فن الخطوط وعرف الأفريقيون الورق، وكان عند الملك داود ملك سنغاي مكتبة ضخمة ونساخ ينقلون له المخطوطات، وقد بلغ من حب هذا الملك للكتب، أن اشترى قاموساً بمبلغ ثمانين مثقالاً من الذهب[٢].

الحركة الثقافية والفكرية في مدينة جنى[٣] من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر الهجريين

ومدينة جنى هي من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في السودان

---

(١) مملكة سنغاي ص ١٣٨.

(٢) المثقال الذهبي يساوي ستة غرامات وكان نقداً رائجاً في تلك البلاد أيام ازدهار أمبراطورية سنغاي. انظر حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية ص ١٦٣ لنعيم قداح وتاريخ السودان والفتاش ص ٩٤.

(٣) ذكر بعض المؤرخين ثلاثة آراء حول اسم جنى فالأول يقول: جنى هو أصل الكلمة وقيل غينيا مشتقة من غانا ميناء قديم على ضفاف نهر النيجر شمال مدينة فاو كادوس. وقيل غني هي غانة ويقول المؤرخ الفرنسي: والأصح في هذا الاسم أن يقال: ديني قلت: والأصح أن اسم هذه المدينة: جنى وهو الاسم الذي ورد في المصادر الأصلية التي عليها الاعتماد مثل نيل الابتهاج لأحمد بابا وتاريخ السودان، وتاريخ الفتاش. وهذا الاسم هو المشهور الآن.

الغربي[1]، وقد ازدهرت الثقافة الإسلامية في مدينة جنى منذ وقت مبكر وتوافد عليها العلماء وأسسوا فيها مساجد واتخذوها مدارس لتعليم الأهالي القرآن والعلوم الإسلامية واللغة العربية وعلومها. فازدهرت فيها الثقافة ازدهاراً بعيد المدى يضاهي مدينة تمبكت[2]. وتقع مدينة جنى بموقع ممتاز في جزيرة وسط المياه على أحد روافد نهر النيجر وتقوم على هضبة صخرية سهل فسيح تغطيه المياه في الخريف ثلاثة أشهر من فيضان نهر النيجر[3]. وهي على مسيرة مائتي ميل إلى الجنوب الغربي من تنبكت. وهي مدينة قديمة جداً قبل تمبكت في التأسيس، وربما كان تأسيسها قبل القرن الأول من هجرة المصطفى ﷺ أو بعد ذلك والله أعلم. وفي القرن الثاني عشر الميلادي أصبحت جنى ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي كله، بعد كل من تمبكت وغاو[4].

والذي يهمنا من جوانب هذه المدينة هو الجانب الثقافي وما وصلت إليه من تطور ثقافي وفكري خلال قرون الازدهار العلمي والثقافي في السودان الغربي أما الجانب الثقافي لهذه المدينة فقد كانت تحتل الدرجة الثانية في الأهمية الثقافية والفكرية بعد مدينة تمبكت لذلك كان سلاطين آل أسكيا يهتمون بها ويعينون لها قضاة صالحين ويساعدون القاضي على بناء مأوى لطلاب العلم وبناء المساجد، وكان فيها كثير من العلماء والفقهاء وطلاب العلم[5]. وقد وصفها السعدي

---

(١) تاريخ السودان ص ١١ ـ ١٢.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ١١ ـ ١٢.

(٣) وصف أفريقيا ص ٥٢٨ وتاريخ السودان ص ١٢.

(٤) مملكة سنغاي ص ١٠٦، ودولافوس ـ أعلى السنغال والنيجر ص ٢٧٧، وتاريخ السودان ص ١١ ـ ٢.

(٥) انظر تاريخ السودان ص ١٦ ـ ١٧.

بالخير والبركة وكثرة العلماء فقال: وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلة، وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة..[1] ويذكر السعدي أن هذه المدينة ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة، ولعل سائلاً يسأل عن أي دين كانت هذه المدينة قبل أن تبدأ في الكفر. على حد كلام السعدي أكانت على اليهودية أم على النصرانية؟ والله أعلم. وهاتان الديانتان كانتا موجودتين في المنطقة قبل الإسلام وخاصة اليهودية. ولعل السعدي يقصد أن مدينة جني هذه قد بدأت منذ نشأتها في منتصف القرن الثاني الهجري كافرة، وليست كمدينة تمبكت التي نشأت على الإسلام. وهذا هو مقصوده ـ والله أعلم ـ لأن بعد ذلك شرع في ذكر تاريخ دخولها في الإسلام[2]. وعلى هذا يكون تأسيس هذه المدينة في القرن الثاني الهجري ولكن الروايات المحلية تدل على أنها كانت قبل ذلك بالتاريخ، والله أعلم بالحقيقة.

ويبدو مما ذكره السعدي وغيره في إسلام ملك هذه المدينة: أن الثقافة الإسلامية كانت قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل ملكها في الإسلام وازدهرت فيها الثقافة وانتشر الإسلام بين أهلها، وعندما أراد ملكها أن يسلم كانت تعج بعلماء المسلمين وكان تأثير هؤلاء العلماء على الأهالي كبيراً جداً ويلاحظ ذلك من ضخامة عدد العلماء الذين جمعهم الملك عندما أراد الدخول في الإسلام، فقد ذكر السعدي أن سلطان هذه المدينة واسمه ـ السلطان كنبر ـ أسلم في القرن السادس الهجري، وأنه عندما عزم على الدخول في الإسلام أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة فحصل منهم أربعة آلاف ومائتا عالم فأسلم على أيديهم[3]. قلت: ومهما يكن في هذا العدد

---

(١) تاريخ السودان ص ١١.
(٢) المرجع السابق ص ١٢.
(٣) المرجع السابق ص ١٢ ـ ١٣.

الذي ذكره السعدي من مبالغة فإنه يدل على وجود أهل العلم من العلماء والفقهاء بكثرة في هذه البلاد، ويدل أيضاً على أنه لم يصلنا من آثارهم إلا قليل مما ذكره أحمد بابا والسعدي وكعت. ولعل الفتن التي سببتها حروب الدمار التي شنها المراكشيون على بلاد السودان هي التي قضت على آثار أولئك العلماء، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وعند إعلان ملك جنى كنبر إسلامه اشترط على العلماء أن يدعو للمدينة بثلاث دعوات قال السعدي: وأمرهم أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة جنى وهي:

١ ـ أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ذلك.

٢ ـ وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.

٣ ـ وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها. فقرأوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاثة فكانت مقبولة. وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة، وقد استجاب الله تعالى للسلطان كنبر ودعوات العلماء لتلك المدينة. وقد أكد السعدي أن آثار تلك الدعوات كائنة حتى في أيامه[1]. وكان يعيش في القرن السادس عشر الميلادي بينما تم إسلام أهل جنى كلهم والملك والدعوات الثلاثة في القرن الثاني عشر الميلادي. وذكر السعدي أن الملك عندما أسلم قام بهدم القصر الملكي الذي كان يسكنه (دار السلطنة) وبنى مكانه مسجداً جامعاً لأهل جنى وشيد قصره الملكي بقرب المسجد الجامع[2].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٣.

قلت وهذه الرواية التي يرويها السعدي في قصة إسلام ملك جنى وما جمعه من العلماء عند عزمه على الدخول في الإسلام وما يلي ذلك من أعمال خيرية قام بها الملك كل ذلك يفيد بمالا يقبل الشك أنه كان هناك مجتمع إسلامي قوي في جنى وأن في هذا المجتمع الإسلامي عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء، ومجتمع هذا شأنه لا بد أن يكون عريقاً في الإسلام منذ زمن بعيد، ويستنتج من ذلك أن الذين أسلم في القرن السادس الهجري هو الملك وحاشيته وبعض الرعية، وأما السواد الأعظم من السكان فقد دخلوا في الإسلام قبل القرن السادس الهجري بكثير. وهذا يوضح لنا مكانة جنى كمركز ثقافي تعليمي هام جداً في السودان الغربي منذ وقت مبكر قبل إسلام ملكها ثم ازدهرت الثقافة الإسلامية فيها وقوي مركز الإسلام رسمياً وذاعت شهرة علمائها بعد إسلام الملك كنبر وبناء مسجد جامع للصلاة والتعليم.

وقد ظلت شهرة مدينة جنى المزدوجة بالدين والعلم والثقافة الإسلامية وكثرة العلماء الوافدين مستمرة حتى بداية الاحتلال المراكشي لها، ونافست تمبكت في هذه النواحي.

تاريخ الحكم في مدينة جنى وحركة العلم والثقافة فيها تحت ظل الحكومات التي مرت عليها

وقد ظل الحكم في جنى في بداية الأمر ينحصر في نطاق السكان المحليين من القبائل وقاموا بنشاط كبير في نشر الثقافة الإسلامية في المدينة وبنوا بعض المساجد ومهدوا السبل أمام العلماء للقيام بالتدريس في تلك المساجد.

ثم استولى عليها ماري جاطة الذي حكم مالي من ١٢٣٠ ـ ١٢٥٠م المؤسس الحقيقي لأمبراطورية مالي[1]. وضمها إلى مالي ومن

(١) دولة مالي الإسلامية ص ١٩ والإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ١٥٤ ـ ١٥٥ د/ عبد الرحمن زكي.

ثم أصبحت أهم أسواق قبائل الغولة والولوف والسركولة وأهالي تكرور الغربي وعرفت بعمل القماش[١].

ثم استولى عليها ملك سنغاي سني علي سنة ١٤٧٣م في القرن التاسع الهجري وضمها إلى امبراطورية سنغاي ضماً فعلياً وظلت تحت حكم سنغاي إلى أن غزا المراكشيون السودان واستولوا عليها في أواخر القرن العاشر أو أوائل الحادي عشر الهجري[٢]، وقد ازدهرت العلوم والثقافة الإسلامية في مدينة جنى تحت حكم سنغاي في عهد حكم آل أسكيا وتعاظم سكانها وكثر التجار بها وزخرت بالعلم وبالعلماء وازدهر فيها التعليم والثقافة ازدهاراً بعيد المدى حتى دانت تمبكت في الأهمية، واستمرت معاهد العلم والثقافة ومساجدها التي تحولت إلى معاهد للعلم تؤدي دورها في خدمة العلم والثقافة الإسلامية حتى غزتها جيوش مراكش فقضت على كل شيء فيها من العلم والعلماء وفقدت مركزها الثقافي والتجاري وحل بها ما حل بتمبكت[٣].

وكانت مدينة جنى أمداً طويلاً على جانب كبير من الأهمية الثقافية والاقتصادية وقد نعمت بالطمأنينة والأمن تحت حكم سنغاي وتضاعف نشاطها التجاري ورسخت قدمها في الثقافة الإسلامية، وكان أسكيا محمد أول من عين القضاة فيها للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلامية[٤]. وذكر السعدي أن أول قاض عينه أمير المؤمنين أسكيا

---

(١) الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا ص ١٥٤ واحتفظت القيادات المحلية بالحكم تحت سلطة مالي.

(٢) التعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٢٨ ومملكة سنغاي ١٠٧ وانظر التأثير الإسلامي ص ٢٨٤ - ٢٨٥، وتاريخ السودان ص ١١ - ٢٠ والفتاش وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمؤلف مجهول ولكنه من تمبكت ثم نسي ذكر اسمه أو من النساخ.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) تاريخ الفتاش ص ٥٩ وتاريخ السودان ص ١٨.

محمد في جنى هو الفقيه فودي محمد سانو الونكري وهو أول قاض يقضي فيها بين الناس بالشرع، وقبل لا يتفاصل الناس إلا عند الخطيب بالصلح. . .(١).

وفي هذا العهد أصبحت جنى مركزاً إسلامياً وعلمياً وثقافياً مباركاً. وقد وصفها السعدي بكثرة العلماء الواردين إليها من غير أهلها وقال: وقد ساق الله لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهلها من قبائل شتى وبلاد شتى. ثم ذكر عدداً كبيراً منهم ممن لهم دور كبير في ازدهار الثقافة الإسلامية فيها(٢).

الثقافة الإسلامية في جنى وفقهاؤها:

أشهر معهد لتعليم الثقافة الإسلامية وسائر العلوم الإسلامية والعربية هو المسجد الجامع الذي بناه سلطان جنى كنبر في القرن الثاني عشر الميلادي وقد تقدم ذكره. وهذا المسجد منذ تأسيسه أصبح مركزاً ومعهداً للدراسات الإسلامية واللغوية وكان يضاهي معاهد تمبكت(٣).

وكانت بجنى المدارس لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين وبعض المعاهد التعليمية المنفصلة عن المسجد إلى جانب التعليم والتدريس في مساجد المدينة كمعاهد تعليمية، وعندما دخل الاستعمار الفرنسي كانت فيها خمس عشرة مدرسة - غير الكتاتيب لتعليم الصغار القرآن الكريم - وكثير من الكتب الدينية والعربية(٤).

---

(١) تاريخ السودان ١٨.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦.

(٣) انظر تاريخ السودان ص ١٢ - ١٣ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا من القرن الثامن حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري ٢٣٠ وما بعدها.

(٤) وهذه المدارس والمعاهد والمكتبات في جنى عند دخول الاستعمار لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، وقد حدثنا عن ذلك بعض الشيوخ الذين شاهدوا الاستعمار الفرنسي عند استيلائه على تلك المدينة وما ارتكبوه ضد الدين والتعليم الإسلامي واللغة العربية.

وقد ذكر السعدي ـ كما تقدم ـ عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء الذين يقومون بنشر الإسلام بين الناس في تلك المدينة وتعليمهم الثقافة الإسلامية عند إسلام سلطانها ولكن السعدي لم يسجل لنا جميع أسماء هؤلاء العلماء والفقهاء الذين قاموا بهذا الدور العظيم في جنى، ولعل السبب يرجع إلى البعد الزمني بين عصره وعصر أولئك العلماء، لأنه عاش في القرن الحادي عشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وعاش العلماء الذين اكتفى بذكر عددهم قبله بحوالي خمسة قرون ونيف.

وأما علماء جنى الذين زمنهم قريب من زمن السعدي فقد أعطى معلومات كثيرة عن بعضهم وأسماء العلماء الذين هاجروا إلى مدينة جنى منذ منتصف القرن التاسع، وتعرض لسيرة نفر قليل منهم[١].

أشهر العلماء والفقهاء في مدينة جنى الذين أثروا الحياة العلمية والثقافية في المنطقة ولهم دور بارز في ازدهار الثقافة الإسلامية في جنى

وهم:

١ ـ الفقيه: مور كنكي:

وهو أول من ذكره السعدي من العلماء الوافدين على جنى كعالم بارع في تدريسه ومتمكن من معلوماته[٢].

وهو مور مغ كنكي رحل من قريته إلى كابرا لتلقي العلم من علمائها ثم رحل إلى جنى بعد أن تلقى تعليمه في كابرا[٣]. وذلك في منتصف القرن التاسع الهجري كما يقول السعدي[٤]. أي في فترة تولي

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ والإسلام في نيجيريا ص ٥٧.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق في الصفحة نفسها.

أسكيا موسى بن محمد أسكيا أمير المؤمنين الحكم ١٥٢٨ ـ ١٥٣١م/ ٩٣٥ـ ٩٣٨هـ ولكن الذي يبدو من كلام السعدي نفسه أنه كان موجوداً في جنى قبل التاريخ الذي ذكره أي قبل تولي أسكيا موسى بن أمير المؤمنين الحاج محمد أسكيا عرش سنغاي والدليل على ذلك ما ذكره السعدي من أن الشيخ الفقيه مور كنكي خرج مع طلبته من جنح لمقابلة أسكيا موسى أثر عودته من حملته ضد أخيه عثمان الذي كان ينازعه السلطة بعد عزل موسى والده أسكيا محمد من الحكم، وكان سبب خروج الفقيه مور مغ لمقابلة موسى: هو طلب العفو عن قائدين من الذين كانوا في صف عثمان. قال السعدي: تلقاه الفقيه مور مغ كنكي مع الطلبة خرجوا من جنج فسلم عليه ودعا له على عادتهم، ثم قال له الشيخ نطلب منك في حق الله تعالى ورسوله ﷺ أن تعفو عن درمكي وبركي، وهما باران لأهل أرضهما راضين عنهما جداً، وما دخلا في الفتنة بغرضهما؛ بل بالخوف على أنفسهما...[1].

وعلى هذا يكون قدوم الفقيه من كابرا إلى جنى في نهاية القرن التاسع الهجري أو في أول القرن العاشر الهجري في عهد أمير المؤمنين أسكيا محمد. فلقدومه إلى جنى في وقت مبكر ذكره السعدي قبل الفقيه القاضي محمد سانوا الونكري الذي ولاه أسكيا محمد قضاء جنى كما سيأتي.

وذكر السعدي أن مور مغ كنكي كان فقيهاً عالماً بارعاً في العلم صالحاً عابداً جليل القدر[2]. وأنه فور وصوله إلى مدينة جنى تقاطر عليه الطلبة وأسرعوا إليه للاستفادة منه ولينهلوا من العلم الذي عنده. وكان نشطاً في أداء رسالة العلم ونشر الثقافة الإسلامية وكان يباشر التعليم والتدريس بالمسجد الجامع بانتظام دائم يخرج من داره في

---

(١) تاريخ السودان ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٦.

منتصف الليل إلى مقر إلقاء دروسه في المسجد الجامع بجنى فيجلس الطلبة حوله يأخذون عنه العلم ويتلقون الدروس حتى إقامة صلاة الصبح، ثم يعودون إليه بعد الصلاة فيستمر معهم إلى وقت الزوال، ثم يعود إلى داره لأخذ قسط من الراحة ليعود إلى حلقة الدروس بعد صلاة الظهر ويجلس مع طلبته حتى صلاة العصر. وكان مواظباً على هذه الحال مع طلبته[1]. حتى علم أن هناك من لا يرغب في وجوده بجنى فارتحل عنها.

وذكر السعدي سبب رحيله من جنى فقال: أنه كان يصلي صلاة الصبح مع الجماعة ذات يوم فسمع رجلاً بجانبه يقول في سجوده: اللهم إن مور مغ كنكي ضاق علينا البلد أرحنا منه، فلما سلم قال يا رب لا أعرف مضرتي للناس حتى يدعى علي فارتحل يومئذ من جنى إلى كونا فنزل فيها، وسمع بخبره أهل جنج فبعثوا له القارب وارتحل فسكن في جنج إلى أن توفي فيها رحمه الله تعالى[2].

وكان الفقيه مور كنكي علماً من أعلم الثقافة الإسلامية في مدينة جنى وفي السودان الغربي كله وكان له دور في انتشار الثقافة الإسلامية واللغة العربية ونمو الحركة الفكرية في البلاد وأثر في حياة جنى العلمية تأثيراً قوياً، ولا يزال ذكره عالقاً في أذهان أهالي المنطقة رحمه الله رحمة واسعة.

٢ ـ القاضي محمد سانوا الونكري[3]:

هو الفقيه فودي محمد سانوا الونكري، كان فقيهاً عالماً عابداً صالحاً. قدم إلى مدينة جنى في أواخر القرن التاسع الهجري[4]. وكان

---

(١) المرجع السابق بالصفحة نفسها.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) تاريخ السودان ص ٦.
(٤) المرجع السابق.

أول سكنه في قرية قريبة من مدينة جنى تسمى طوراً، ويأتي من هذه القرية إلى مدينة جنى في كل جمعة لأداء صلاة الجمعة بمسجدها الجامع حتى أحبه السلطان وأهالي جنى وتألفت قلوبهم معه. وعند ذلك طلب منه سلطان جنى أن يسكن في جنى بدلاً من قرية طورا، فقبل الطلب. وتمكن بعد ذلك من التأثير على السلطان بمواعظه وقوة حجته حتى حمله على تخريب بيت الصنم الذي كان يعبده الذين بقوا على وثنيتهم من قوم السلطان. وبنى في مكان الصنم داراً لإقامة الفقيه محمد سانوا الونكري، وأحاطه السلطان بمظاهر التبجيل والاحترام، وأصبح بعد ذلك من أهل الشفاعة لديه على الرغم أنه لا يخالط السلطان أبداً ولا يزوره في داره ولا يجالس أفراده وكانوا يطلبون منه زيارة السلطان ولكنه يرفض ذلك مما يدل على مكانته العلمية وقدره هو وأمثاله من علماء السودان في ذلك الوقت الذين رفعوا مكانة العلم بالبعد عن مجالس السلاطين وعدم الخضوع لهم[1].

ولم تكن مكانة الفقيه محمد العالية في مدينة جنى وما حواليها فقط بل تعدت شهرته العلمية وصلاحه إلى مدينة تمبكت مركز الثقافة الإسلامية والعلماء. فعندما زار القاضي الفقيه شيخ الإسلام/محمود بن عمر بن محمد أقيت عالم بلاد السودان وإمامها بلا مدافع عندما زار مدينة جنى في مطلع القرن العاشر الهجري التقى بهذا العالم الفقيه فأعجب بعلمه وصلاحه. فأثنى عليه لما رجع إلى تمبكت[2]. ونقل ما رآه من حاله من علمه وصلاحه إلى مسامع أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد فولاه قضاء مدينة جنى بعد عودته من الحج[3] حوالي سنة ٩٠٤هـ. وكان أول قاض شرعي يفصل بين الناس بالشرع، وتوليه

---

(١) تاريخ السودان ص ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.
(٢) تاريخ السودان ص ١٨ والتعليم الإسلامي في معاهد غرب أفريقيا ص ٢٣٤.
(٣) تاريخ اسودان ص ١٨ وتاريخ الفتاش ص ٥٩.

منصب القضاء في جنى نقطة تحول في تاريخ القضاء الإسلامي في هذه المدينة حيث لم يكن الشرع قبل تعيينه قاضياً يطبق عند الفصل بين الناس في خصوماتهم وسائر القضايا، بل كان الناس قبل تعيينه يترافعون بخصوماتهم وقضاياهم إلى خطيب المسجد الجامع الكبير فيسعى بينهم بالصلح[١]. ولم يعرف منصب القاضي في جنى إلا عندما نصب أمير المؤمنين أسكيا محمد هذا الفقيه العالم الونكري قاضياً. ومرد ذلك كله إلى مكانته العلمية العالية وشهرته بالصلاح في المدينة وقوة تأثيره في أهلها[٢].

والفقيه محمد سانوا من العلماء الذين تركوا آثاراً جلية في ازدهار الحياة العلمية في مركز جنى الثقافي وأثروا الثقافة الإسلامية فيها وفي السودان الغربي كله وطبعوها بطابع المذهب المالكي وعقيدة السلف الصالح.

٣ ـ الفقيه القاضي الصالح: محمود بغيع[٣]:

هو قاضي مدينة جنى الفقيه العلامة محمود بن أبي بكر بغيع جنوى بلداً ومسكناً، ونكرى أصلاً[٤]. كان فقيهاً عالماً جليلاً، وهو والد العالمين الفاضلين الصالحين: الفقيه محمد بغيع عالم تمبكت وفقيهها الذي تقدم الحديث عنه ودوره في ازدهار الثقافة الإسلامية في تمبكت. والفقيه أحمد بغيع[٥].

تولى الشيخ محمود بغيع قضاء جنى في العام التاسع والخمسين

---

(١) تاريخ السودان ص ١٨.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧ ـ ١٨.

(٣) نيل الابتهاج ص ٣٤١ وصفه أحمد بابا بالفقه والصلاح. وتاريخ السودان ص ١٩. وفتح الشكور ص ١١٣. وقال: لا أعرف تاريخ وفاته.

(٤) تاريخ السودان ص ١٩، وفتح الشكور ص ١١٣.

(٥) انظر نيل الابتهاج ص ٣٤١، وتاريخ السودان ص ١٩، فتح الشكور ص ١١٣.

بعد التسعمائة من هجرة المصطفى ﷺ الموافق سنة ١٥٥١ م ولاه القضاء السلطان أسكيا إسحاق بن أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، بعد وفاة القاضي العباس كب، والقاضي محمود من العلماء الذين قاموا بدور عظيم في نشر الثقافة الإسلامية وخدمة الإسلام في غرب أفريقيا. وكانت أسرة بغيع عامة من الأسر العلمية المشهورة في تاريخ التعليم والقضاء ونشر الإسلام في غرب أفريقيا عامة وتنبكت وجنى بصفة خاصة[١] . ويلاحظ أن العلماء الذين من الأصل الونكري كانوا كثيرين في مدينة جنى ولهم دور بارز في نشر الإسلام في السودان الغربي وخاصة في نيجيريا وقد سبق ما ذكره بعض المصادر من أن الإسلام انتشر في بلاد هوسا عن طريق الدعاة من علماء الونكري أو الونغار كما تسميهم المصادر النيجيرية وأنه قد هاجرت قافلة من علماء الونكري مكونة من ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثين شخصاً ما بين عالم وقارىء من مالي إلى نيجيريا[٢].

وذكر صاحب الثقافة العربية في نيجيريا أن أخبار كانو أفادت بأن الوفد المالي من علماء ونكري الذين وصلوا إلى نيجيريا لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية سنة ١٣٤٩م كان عددهم أربعين رجلاً[٣]. ومهما يكن العدد فإن علماء ونكري قاموا بدور نشط في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في غربي أفريقيا كله.

وكان القضاء في جنى في عهد امبراطورية سنغاي عهد الازدهار والأمن والاستقرار وانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية - من الونكريين،

---

(١) انظر تاريخ السودان ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ وقبلها ص ١٨ - ١٩ وانظر نيل الابتهاج ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٢) انظر الجهاد الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٣.

(٣) انظر كتاب الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ - ١٩٦٠ م ص ٣٨ والإسلام في نيجيريا ص ٣٢.

وآخر القضاة السودانيين في جنى كان ونكرياً وهو القاضي محمد بنب كنات[١].

وذكر السعدي أشهر الفقهاء الذين تولوا القضاء في مدينة جنى في عهد امبراطورية سنغاي الإسلامية وهم على الترتيب كما ذكرهم:

القاضي محمد فودي سانو الذي تقدم الحديث عنه من أنه أول قاض تولى منصب القضاء في جنى ثم القاضي فوك، ثم القاضي كناجي، ثم القاضي تنتاع، ثم القاضي سنقم، ثم القاضي العباس كب وقال عنه أنه من أهل جنى وكان فقيهاً عالماً جليلاً فاضلاً خيراً له قدم راسخ في السخاء والعلم[٢]. ثم القاضي محمود بغيع، ثم القاضي عمر ترف، ثم القاضي تلماكلس، ثم القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف. وقال عنه أنه جنوي الأصل والبلد، وكان خطيباً ثم جعل إمام الجامع ثم قاضياً فجمع المراتب الثلاث ثم مشى للحج واستناب الخطيب ماما على الخطبة. والإمام يحيى على إمامة الجامع، والقاضي مؤدب بكر تروري على القضاء فتوفي هناك[٣].

ثم القاضي مودب بكر تروري وقال عنه: (أنه كلوي أصلاً من أولاد سلاطينها فزهد في السلطنة وخدم العلم فبارك الله في علمه ونال بركته.[٤] ثم القاضي محمد بنب كنات، ووصفه السعدي بأنه كان فقيهاً عالماً جليلاً ونكري الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي بكر تروري. وهو آخر القضاة في دولة السودانيين وهؤلاء - أي الذين تقدم ذكرهم من القضاة - من علماء مدينة جنى المشهورين ولم نوردهم في هذا الكتاب إلا لأجل شهرتهم بالعلم)[٥].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٩.
(٢) تاريخ السودان ص ١٩.
(٣) تاريخ السودان ص ١٩ - ٢٠.
(٤) المرجع السابق ص ١٩ - ٢٠.
(٥) المرجع السابق ص ١٩.

وقال بعد ذكر أسماء هؤلاء القضاة بالترتيب المتقدم: (فهؤلاء قضاة من أول دولة أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد إلى آخرها...)[1] وأما الفقهاء الذين تولوا القضاء في هذه المدينة بعد انهيار دولة سنغاي الإسلامية واستيلاء المراكشيين عليها فأغلبهم من أصل مغربي. وأما العلماء الذين سكنوا فيها من غير السودانيين فقد ذكر السعدي بأنهم كثيرون في عهد حكم الدولة المراكشية[2]. وبهذا العرض التوضيحي للحركة الثقافية والفكرية والحياة التعليمية في مراكز الثقافة الإسلامية الرئيسة: غاو، وتمبكت، وجنى في السودان الغربي والفقهاء الذين قاموا بدور بارز ونشط فيها أيام ازدهار الأمبراطوريتين الإسلاميتين مالي وسنغاي نصل إلى أن الأهداف الأساسية من وراء حركة علماء السودان التعليمية في تلك المراكز الثقافية هي:

أولاً: هدف ديني عقدي وهو معرفة الله سبحانه وتعالى وما يجب على العبد من وجوب الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى وما يتعلق بذلك من الإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره. ومعرفة ما أوجبه الله على عباده من عبادات كالصلاة والصوم والحج والزكاة وبيان ما نهى الله عنه من المحرمات مثل شرب الخمر وقول الزور وقتل النفس بغير حق...

وقد أدرك العلماء والفقهاء في السودان الغربي في ذلك العهد أن الإنسان عندما يعرف ربه وكيفية عبادته ويتخلق بأخلاق الإسلام يصبح

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠ الإفتاء والقضاء منصبان علميان عظيمان لا يتبوأهما إلا شيوخ العلم، وكان القاضي في عهد ملوك السودان الوطنيين يتمتع بسلطة تفوق سلطة الملك نفسه. وكان الملك لا يبرم أمراً في عهد آل أسكيا من ملوك سنغاي إلا بمشورة القاضي وكان القاضي لا يحاسب على خطأ وكذلك أعوانه. لذلك كان منصب القضاء منصباً عظيماً لا يتولاه إلا من اشتهر بالعلم والصلاح والورع والتقوى.

(٢) تاريخ السودان ص ٢٠.

فرداً صالحاً في مجتمع صالح. لذلك كانوا المثل الأعلى في تطبيق أحكام الشريعة على أنفسهم قبل أن يأمروا تلاميذهم بها والقدوة الصالحة في تدريسهم وتعليمهم وتوجيههم لأولئك التلاميذ. وعامة المجتمع السوداني.

ثانياً: هدف دنيوي يحث عليه الشرع ويأمر به لما فيه من صلاح الدين والدنيا مثل الالتزام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بالفعل والقول والقيام بواجبات الفرد المختلفة في مجتمعه، والوصول إلى المناصب الاجتماعية العالية مثل التدريس والإفتاء والقضاء.

وقد اتجه الفقهاء والعلماء بالثقافة الإسلامية في السودان الغربي كله منذ البداية إلى إصلاح النفس البشرية المسلمة وإصلاح المجتمع الإسلامي وإعداد الفرد للقيام بواجبات الدعوة إلى الله والتعليم والتدريس.

الكتب الدراسية في جامعات ومعاهد الثقافة الإسلامية في كل من تمبكت وغاو، وجني في عهد ازدهار العلم والإسلام في الدولتين الإسلاميتين مالي وسنغاي

مما تقدم من الحديث عن المراكز الثقافية وتراجم الفقهاء والعلماء الذين قاموا بحركة تعليمية نشطة في تلك المراكز يتضح لنا أن التعليم في مدن السودان الغربي عامة (أفريقيا الغربية) وفي تمبكت خاصة حظي بعناية فائقة واعتبار كبير من السلطة الحاكمة في السودان ومن الشعب، نظراً لما يتيح لطالبه من مكانة مرموقة في المجتمع بعد تحصيله من مناصب عالية كالتدريس والإفتاء والقضاء، والإمامة. وأيضاً ولارتباطه بالمقومات الدينية، ولما كان يتمتع به المدرسون من الفقهاء والعلماء من تقدير وإجلال من الحكام، واحترام قد يصل إلى درجة تقديس من العامة، وقد سبق أن وضحنا أن تمبكت وجامعاتها حظيت بسمعة مدوية في العالم الإسلامي مثل السمعة نفسها التي حظيت بها فاس والقاهرة

وتونس، كما بينا أن الطلبة كانوا يتوافدون عليها لأخذ العلم من علمائها من مراكش والجهات البعيدة في السودان من بلاد هوسا ومسينا وبلاد الفولبية[1]. وكان أولئك الطلبة بعد المرحلة الأولية من الدراسة يدرسون أمهات الكتب على الأساتذة السودانيين المتضلعين في العلم، وقد يذهب عدد منهم إلى فاس أو مراكش أو تونس أو مصر أو الحجاز للاستزادة في العلم وحضور مجالس مشاهير العلماء في هذه البلاد.

وكان أولئك الطلبة يجتهدون ويبذلون كل ما يملكون من طاقة للحصول على ثناء مكتوب أو إجازة علمية جزئية أو عامة من بعض شيوخهم لأن ذلك يفتح أبواب التدريس وتوليه بعض المناصب الدينية في بلادهم[2].

وكانت الكتب الدراسية المتداولة في المراكز العلمية في أفريقيا الغربية في ذلك العهد هي نفس الكتب الدراسية المعروفة في البلاد الإسلامية الأخرى، وخاصة المغرب والأندلس وتونس ومصر، ومن أهم الكتب الدراسية في المراكز السودانية: كما جاء في تراجم الفقهاء والعلماء المتقدمة: كتب التفسير من أهمها الجلالين[3]، موطأ الإمام مالك في الحديث والفقه، صحيح البخاري، صحيح مسلم[4]، والشفاء للقاضي عياض في السيرة والشمائل[5]، ومدونة سحنون في فقه الإمام مالك، والرسالة في الفقه المالكي، ومختصر خليل والمنتقى للباجي شرح الموطأ[6]، ومختصر ابن الحاجب الفرعي في الفقه المالكي،

---

(١) انظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ١٧٩ ـ ١٨٠ وتاريخ السودان ص ٤٧ ـ ٤٨ تقدم بيان ذلك في الكلام على الثقافة والإسلام في تمبكت وعلمائها.

(٢) الفتاش ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ونيل الابتهاج في ترجمة محمد بغيع ص ٣٤٢ وتقدم في ترجمتنا له من علماء تمبكت، وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٥٤٧.

(٣) السعدي ص ٣٣، ٤٦ وإيداع النسوخ الورقة ١٦.

(٤) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ في ترجمة بغيع وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٦.

(٥) نيل الابتهاج ص ٨٩ وفي مواضع أخرى وتاريخ السودان ص ٣١ ـ ٣٢.

(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٣ ـ ٤٤.

ومختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول وتهذيب البراذعي في الفقه المالكي، وجامع المعيار للونشريسي، وتحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، والمعيار المعرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي، والبيان والتحصيل لابن رشد، والقرطبية في الفقه، وجمع الجوامع في الفقه، والجامع الصغير في الحديث للسيوطي، وألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها[1] والمنتقى والمدونة بشرح المحلى. وألفية ابن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، والأجرومية وشرحها في النحو، والبهجة المرضية في النحو، وجمع الجوامع في العربية، وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المشهور (بالتسهيل لابن مالك في النحو)، ومقامات الحريري في الأدب العربي، وسيرة ابن هشام، والمدخل لابن الحاج، ورجز المغيلي في المنطق وشرحه لأحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، وجميع مؤلفات المغيلي وعقائد السنوسي في التوحيد وهي ثلاثة: العقيدة الكبرى والوسطى والصغرى، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني. والعشرينيات (الفزازية) في المدائح النبوية، وألفية الأثر في الحديث، وشرح النقاية في الأصول، والبيان والتصوف، والكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع، وهو في الأصول والبيان والتصوف، وشرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد. وقطر الندى وبل الصدى في النحو. وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق عليه، ونظم أبي مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري[2]. وشرح المكودي على ألفية ابن مالك،

---

(١) النيل ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وتاريخ السودان ص ٤٥ ـ ٤٦ وص ٣٨.

(٢) انظر لما تقدم من هذه المقررات الدراسية في تلك البلاد في ذلك العهد تراجم الفقهاء والعلماء المتقدمة أو المراجع التالية: نيل الابتهاج ص ٩٣ وص ٣٣١ و٣٤٠ و ٣٤١ ـ ٣٤٢، وتاريخ السودان ص ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٣ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ وما بعد هذه الصفحات وتاريخ الفتاش ص ٩٤ وفتح الشكور ص ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ومن ص ٢٦ إلى ص ٣٦ وما بعدها.

والبسط والتعريف في علم التصريف للمكودي أيضاً، ولامية ابن المجراد السلوي في الجمل، والمرشد المعين لابن عاشر الفاسي، ولامية الزقاق، والمنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضاً، والدرر اللوامع في قراءة نافع لابن بري، وإضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقري. والطرف في مصطلح الحديث لمحمد العربي الفاسي. ونظم أبي مقرع في التوقيت، ونظم المقنع للمرغيثي، وشرح أبي الحسن الصغير للناس على المدونة، والمراصد في التوحيد لمحمد العربي الفاسي، ومنظومة الزكاة له. ونوازل عبد القادر الفاسي، ونظم العمل للفاسي وشرحه لولده أبي زيد. وتكميل المرام في شرح شواهد ابن هشام لمحمد بن عبد القادر الفاسي... وغيرها من المقررات الدراسية والمراجع عندهم[1].

وهذه الكتب كانت تدرس في تمبكت خاصة وغيرها من المراكز التعليمية والثقافية في أفريقيا الغربية مع روايتهم لها بالسند والاعتماد والإجازة عن شيوخهم كما تقدم في تراجم كثير من العلماء والفقهاء السودانيين. وهذه المواد الدراسية في المراكز الثقافية السودانية تدل على المستوى الرفيع الذي وصل إليه فقهاء وعلماء غربي أفريقيا من العلم والثقافة. بل وقد رأينا في التراجم السابقة أنهم فوق دراستهم لهذه الكتب وروايتهم لهما بالسند والاعتماد والإجازة قد وضعوا الشروح والحواشي والتعاليق على بعضها، واختصروا بعضها[2].

---

(١) انظر فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٠ و ١١ والمراجع السابقة.

(٢) نيل الابتهاج ترجمة أحمد بن أحمد بن عمر أقيت ص ٩٣ وترجمة محمد بن مجمود الونكري ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ وترجمة غيرهما من التراجم المتقدمة من علماء السودان. وانظر تاريخ السودان ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ وفتح الشكور ص ١١ وص ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٥ وما بعدها.

وأما في ميدان دراسة الشعر العربي فقد ذكر بعض المصادر أن الطلاب كانوا يدرسون شعر ابن دريد[1]. وأشعار الشعراء الستة[2] بجانب شعر المدائح النبوية[3] وكان الفقهاء والعلماء في عهد ازدهار الثقافة الإسلامية في السنغاي يستشهدون كثيراً بأشعار شعراء العرب وكتاباتهم، فعبد الرحمن السعدي يصف تمبكت بأنها تشبه في روعتها وجمالها ما كان قد شبه به الهمذاني البصرة في مقاماته[4]. ويستشهد الشيخ أحمد بابا في كتابه (الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان) أو معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السودان) يستشهد على صواب نظريته في أن السودان في لون البشرة لدى الإنسان مرده إلى العوامل المناخية والطبيعية، برأي ابن خلدون، ثم يورد رجز أبي علي بن سينا الذي لخص فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله:

حر غير الأجسادا حتى كسا جلودها سوادا
والصلغب اكتسبه بياضاً حتى غدت جلودها فضاضاً[5]

وهذا دليل على أن أولئك العلماء كانوا مطلعين اطلاعاً تاماً على الأشعار العربية والكتابات المنمقة لدى الهمذاني والحريري وغيرهما من الكتاب والشعراء والأدباء. ويلاحظ أنه ليس في السودان الغربي شعراء مستقلون يقرضون الشعر العربي كما في المشرق الإسلامي والأندلس. وإنما كان العلماء والفقهاء هم الذين يقومون بدور الشعراء لأنهم هم الذين أجادوا اللغة العربية وتذوقوا سحرها وبلاغتها وأسرارها،

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٨٢.
(٢) إبداع النسوخ من أخذت عنه من الشيوخ لعبد الله فودي ورقة ٣٧ مخطوط.
(٣) تاريخ السودان ص ٣١ وص ٤٢ ـ ٤٣.
(٤) المرجع السابق ومملكة سنغاي في عهد الأسكيين ص ١٥٥.
(٥) الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان ورقة ١٩ ـ ٢٣ مخطوط بمركز أحمد بابا بتمبكت في جمهورية مالي ومملكة سنغاي ص ١٥٦.

واتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم وما يجيش في صدورهم من معاني[1].

وبهذا العرض البياني للمقررات الدراسية من الكتب الثقافية والعلمية والدور الذي قام به علماء السودان في مراكز الدراسة والعلم في كل من غاو تمبكت وجنى وغيرها نصل إلى النتيجة التالية:

أ ـ أن المواد الدراسية التي كانت تدرس في مراكز الثقافة بالسودان الغربي: هي العلوم الدينية، ومعها بعض العلوم المساعدة لها مثل النحو والصرف والبلاغة والأدب العربي، والمنطق، وشيء من الفلسفة.

ب ـ أن نظام التعليم في تلك المراكز الثقافية لم يكن شاملاً لكتب التاريخ كلها وأحوال الأمم والمجتمعات الإنسانية وتقويم البلدان.

ج ـ أن النظام الدراسي لم يكن شاملاً للعلوم التجريبية التي كانت مزدهرة في العصور الإسلامية السابقة التي أخذتها أوروبا النصرانية عن المسلمين، وكانت أساس نهضتها الحديثة.

وكانت المواد العلمية والاجتماعية مع الجانب الأدبي تنقص النظام التعليمي في المعاهد والجامعات في السودان الغربي في ذلك العهد، وهذا النقص الذي كان سائداً في النظام التعليمي في عصر

---

(١) ويلاحظ أن أبواب الشعر التي طرقها علماء السودان لا تتجاوز: الثناء على الله والمديح والفكاهه والوصف، والرثاء، والوعظ والإرشاد، والحكم، والأمثال والفكاهة والزهد، وطلب العلم، وقد أورد صاحب كتاب الثقافة العربية في نيجيريا أبيات كثيرة لهذه الأغراض، وكذلك فعل آدم الألوري في تاريخ نيجيريا أورد بعض الأبيات في الزهد وطلب العلم ولكن تلك الأشعار كانت لعلماء سودانيين متأخرين في عصر عثمان بن فودي ومن بعده من العلماء والكتاب.

ازدهار الثقافة الإسلامية في أفريقيا الغربية قبل وصول الاستعمار مما أفسح المجال أمام الاستعمار الأوروبي بعد وصوله للمنافسة القوية من جانب التعليم الاستعماري.

والضعف العلمي في هذا الجانب كان سائداً في العالم الإسلامي كله في ذلك العصر، مما ساعد الاستعمار في السيطرة على العالم الإسلامي بسبب تفوقه في الجانب العلمي الذي أهمله المسلمون بعد أن كان لهم قدم السبق فيه.

مما تقدم إيضاحه من الحركة الثقافية ودور الفقهاء والعلماء السودانيين فيها يتعلق بعهد الحكومات السودانية التي قامت في أفريقية الغربية من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الحادي عشر الهجري عند سقوط أمبراطورية سنغاي الإسلامية نهائياً تحت ضربات جيوش الدولة السعدية بمراكش. وقد اتضح مما تقدم بيانه: أن عهد مملكة سنغاي تحت حكم آل أسكيا هو العهد الذي تميز بكونه يمثل فترة من النضج الثقافي والحضاري لم يسبق لها مثيل في تاريخ السودان الغربي كله. وكان آل أسكيا أول حكام في السودان الغربي نظموا دولة على أساس وطني لا على أساس قبلي، وبنوا قواعد دولتهم على أسس إسلامية واستمدوا قوانينها من أحكام الشريعة الإسلامية، ونبذوا المفهوم القبلي الضيق الذي ظل يفت في عضد الدول التي سبقتهم في المنطقة، وبلغت مدينة تمبكت ومدينة جنى في عهدهم قمة الاتساع والازدهار الثقافي والعلمي والتجاري وتمتع سكانها بقدر كبير من الرفاهية. وكانت أرض السودان عموماً من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمناً واستقراراً وعافية في كل جهة ومكان. وانتشر فيها المساجد ومعاهد العلم ومكتباته. وعمت الثقافة الإسلامية ربوع البلاد، ولمع كثير من علماء السودان في شتى العلوم والمعارف قد تقدم توضيح ذلك بكلام ابن بطوطة والحسن الوزان والسعدي في تاريخه.

بعد أن أنهينا الحديث عن الثقافة الإسلامية في الدول السودانية الإسلامية التي قامت في السودان الغربي نتناول أثر غزو الدولة السعدية لمملكة سنغاي على الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في السودان.

استيلاء جيش أحمد المنصور الذهبي على مملكة سنغاي وأثرذلك على الثقافة الإسلامية ومعاهدها وحركة العلماء في السودان

كان أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي حريصاً على غزو مملكة سنغاي وضمها إلى مملكته طمعاً في خيراتها لأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال[١]. لذلك واظب على مدى السنوات العشر السابقة للغزو، على إرسال العيون والجواسيس إلى السودان الغربي[٢].

قد قام المنصور بجمع المعلومات الكافية عن مملكة سنغاي تمهيداً لغزوها فبث العيون داخل القصر الملكي بغاو، وفي جيش أسكيا وفي الإدارات المحلية في أنحاء الأمبراطورية، وعمل على استمالة الشخصيات ذات النفوذ الديني الاجتماعي والسياسي، والقضاة والأعيان والعلماء في تمبكت وفي مدينة غاو، وجنى وفي جميع أنحاء السودان، واستخدم هذه الشخصيات في جمع المعلومات عن الوضع في السودان[٣] لقاء هدايا وأموال. وكان منهم قاضي تمبكت العاقب بن محمود بن عمر أقيت الذي منحه ملوك آل أسكيا سلطات واسعة تفوق أحياناً سلطة أسكيا نفسه، وعمر بن محمود بن عمر أقيت الذي تولى القضاء بعده وغيرهما من العلماء وبعض القضاة[٤].

---

(١) الاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصري ص ١١٢ ـ ١١٣.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٦٦.

(٣) مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفا، ص ٢٠٧، وص ١٢٣ وص ٣٣٦ للفشتالي عبد العزيز بن محمد المتوفى سنة ١٠٣١هـ نشر جامعة محمد الخامس بالرباط، طبع المطبعة المهدية تطوان، وكان الفشتالي ممن عاصر الأحداث في عصر المنصور الذهبي ورأى ما حل بالسودان.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٣ والفشتالي ص ٣٣٦ وتاريخ السودان ص ٣٠ ـ ٣١ والاستقصاء ص ١٢٩.

وكان قاضي تمبكت هو المرجع الروحي الأول في أمبراطورية سنغاي الإسلامية، وكان تأثيره في البلاط الملكي وفي أوساط العلماء والعامة وفي الجاليات البيضاء في تمبكت وغيرها كبيراً وخطيراً جداً[1] لهذا حرص المنصور على استمالته والتوجه إليه والأخذ بنصائحه تهيئة له ولأتباعه والمتأثرين به ليوم الغزو الموعود[2].

وقد ذكر الفشتالي الذي عاصر الأحداث: أن أحمد المنصور الذهبي وجه رسالة إلى قاضي تمبكت أبي حفص عمر بن محمود بن عمر أقيت قبل غزو السودان بقليل سنة ١٥٩٨م وتضمنت الرسالة التي ذكرها الفشتالي ثلاث نقاط أساسية هي:

١ ـ الدخول في طاعة السعديين. ٢ ـ أن يتولى القاضي إشاعة دعوتهم في أقطار السودانيين كلها لأنه أولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف آثارها وأحقيتها بقيادة المسلمين في كل جهة. ٣ ـ أخبار القاضي بقرب تحرك حملة عسكرية إلى السودان[3]. ويتبين من آخر فقرة في تلك الرسالة أن المنصور كان يجيب على كتاب يحتوي على معلومات تلقاه من القاضي قبل ذلك، وأنه قدم للمنصور جملة من النصائح على ما يجب أن يتحلى به جيش السعديين عندما يحل بالسودان وطلب منه أيضاً أن يشتمل ذلك الجيش على عناصر وفئات حددها القاضي في رسالته[4].

---

(١) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦ والفشتالي ص ٣٣٦، والصفحات السابقة.

(٢) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦.

(٤) بداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ومناهل الصفا ص ١٣٢ ونفس الرسالة في الصفحات ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤. وموجودة في بداية الحكم المغربي ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩.

وبعد ذلك أرسل المنصور الذهبي جيشه لاحتلال السودان الغربي كله والقضاء على أمراطورية سنغاي الإسلامية المترامية الأطراف سنة ٩٩٩هـ وقال الناصري في الاستقصاء: أن جيش المنصور بقيادة جودر كانوا يقتلون السودان وكان السودانيون ينادون نحن مسلمون نحن إخوانكم في الدين والسيوف عاملة فيهم وجنود جودر يقتلون ويسلبون في كل وجه[١]. لقد وجد جودر قائد جيش المغاربة نفسه أمام حقائق في السودان وفي مقدمة تلك الحقائق: أن الشعوب التي حمل المغاربة سلاحهم في وجهها ويقتلونها وينتهكون أعراضها ويسلبون أموالها كانت شعوباً إسلامية مؤمنة بالله حق الإيمان، ففي معركة تنديبي كان جيش سنغاي يلهجون بالشهادة وينادون إخوانهم المسلمين (جيش المغاربة) ويطلبون منهم أن يكفوا عنهم الأذى. وأن يوقفوا سفك دماء المسلمين ولكن جيش المغاربة لم يلتفتوا إلى هذا النداء من إخوانهم السودانيين بل استمروا في قتلهم وسلبهم ونهب أموالهم وانتهاك أعراضهم[٢]. وقد نبه بعض الفقهاء والعلماء من السودانيين جودر ممن اتصلوا به منهم خطيب جمع غاو نبهوه إلى مسألة فقهية في منتهى الخطورة وهي أن (أهل السودان أسلموا طوعاً بلا استيلاء أحد عليهم ولم يسمع قط أن أحداً فرض عليهم هذا الدين ولا أن أحداً استولى عليهم قبل إسلامهم، فكيف يصح الجهاد فيهم وهم مسلمون مهما كانت المبررات للقيام بذلك[٣]. بالإضافة إلى ذلك أن أهل سنغاي الذين يقتلهم جيش المغاربة كانوا يعرفون (بمسلمي الدم) أي أنهم لم يسلموا طوعاً فقط

---

(١) الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ص ١٢٢.

(٢) المرجع السابق وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٢٧٣ وتاريخ السودان ص ١٧١ وتاريخ الفتاش ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) الاستقصاء ص ١٠٣ الباب الخاص بالسودان وحوادث الغزو. وبداية الحكم المغربي ص ١٧٣.

ولكنهم جادوا بدمائهم لنصرة الدين أيضاً[1] فكيف يجوز قتال أمثال هؤلاء، وسفك دمائهم ونهب أموالهم وانتهاك أعراضهم.

ونحن لا نعلم مبلغ الأثر الذي كان يتركه منظر السوداني وهو يدخل المسجد ويستقبل القبلة ويحارب دفاعاً عن نفسه وعرضه ودينه وهو ينطق بالشهادتين في نفوس أفراد الجنود المغاربة الذين يؤمرون بقتل إخوانهم ولاسيما أن قادتهم مشركون وكان الأحرى أن تتجه بنادق المسلمين صوبهم، ألا يتصور أن الجندي المغربي المؤمن مهما كان انضباطه كان يجد نفسه قريباً إلى ذلك السوداني الذي يقتله منه إلى قائده الأبيض النصراني أو المشكوك في إسلامه[2] ومن المشكوك فيه أن يكون أحمد المنصور غير عارف بالوضع النفسي لأفراد جنده الذين كانوا يقاتلون شعوباً إسلامية تحت قيادة مشكوك في إسلامها[3] تم القضاء على آل أسكيا وانهارت أمبراطورية سنغاي الإسلامية التي كانت مصدر نور وإشعاع في السودان الغربي وقامت برعاية العلم والعلماء والطلاب. وبانهيار أمبراطورية سنغاي وانتهاء مقاومتها بمقتل أسكيا نوح سنة ١٠٠٣هـ، الذي قاوم احتلال السعديين مدة أربع سنوات دون كلل أو ملل. وبنقل الفقهاء والعلماء مقيدين في سلاسل سنة ١٠٠٢هـ انهارت الحضارة الإسلامية والثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي، وساد الظلام تلك المنطقة كلها من جراء أعمال القمع والإرهاب اللذين لجأ إليهما الجيش المراكشي لإخضاع شعوب

---

(١) تاريخ السودان ص ٣.

(٢) لقد كان من بين قادة الجند الذين يحاربون المسلمين في السودان ضباط كبار ينتسبون للكنيسة وقد أكد السعدي أن الكاهية باحسن فريدو الذي رافق العلماء السودانيين الذين أمر المنصور بإرسالهم إلى مراكش مقيدين بالسلاسل كان قسيساً. انظر تاريخ السودان ص ١٥٤، وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١.

(٣) بداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١ وكان القائد باختيار نصرانياً وهو من كبار القيادات في السودان، المرجع السابق ص ٣٣٣.

المنطقة، واستقبلت المنطقة عهداً جديداً من حكم القواد الغزاة والباشوات، فبعد سنوات قليلة راح قادة جنود الاحتلال كل منهم يستقل بمنطقة وقامت دويلات في تمبكت وجنى وغاو وبامبا والأراضي حول كل منها. وتركوا باقي أرض سنغاي لمن حاولوا اقتسامها ونهبها من البربر والموشى والبنبر والفولاني والهوسا وعاشت في هذا الركن من أفريقية عدة ممالك صغيرة منفصلة تتقاتل وتتنافر فيما بينها، أصيبت البلاد خلالها بالتفكك والانحلال والخمول فكثرت الحروب الأهلية، واستغلت الولايات والممالك التي كانت تابعة لسنغاي تلك الفوضى فاستقلت عنها، بل هاجم كفار (بنبرا) مدينة جنى وأتلفوها وخربوا جميع البلاد ونهبوها وسبوا أهلها[1]. وتوزعت بلاد الهوسا ممالك متحاربة فيما بينها، واعتلى الحكم في بعض الإمارات الإسلامية حكام وثنيون، وخمد نشاط العلماء والفقهاء والدعاة كقوة موجهة مؤثرة في ازدهار الثقافة الإسلامية وحضارة السودان. وتدهورت مراكز العلم والثقافة الإسلامية في السودان، وانهارت تمبكت بحضارتها وثقافتها، وكذلك بقية المدن الزاهرة بالحضارة والثقافة مثل غاو وجنى وكانو واستمرت الفوضى على النيجر الأوسط وما حوله[2]. وكان من قساوة هذا الغزو على تلك البلاد أن هرب أكثر علماء تمبكت ممن نجا منهم من الإعدام والنفي إلى كشنا (نيجيريا) فازدهرت فيها الثقافة الإسلامية،

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٧١ وما بعدها والفتاش ص ١٧٤ - ١٧٥ وكتاب الدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا ص ٢٢١ - ١٢٢ والثقافة العربية في نيجيريا ص ٥٠ - ٥١ والتأثير الإسلامي للنقيرة ص ٢٠٢ وانظر أيضاً أفريقيا من السنغال إلى نهر جيبا ص ١٢٠ لمحمد عبد الفتاح إبراهيم.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٧١ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢١ - ٣٢٩ والثقافة العربية في نيجيريا ص ٥٠ - ٥١ والدعوة الإسلامية في غرب أفريقيا وقيام دولة الفولاني ص ١٢٢ للدكتور حسن عيسى عبد الظاهر طبع جامعة الإمام ١٤٠١هـ والتأثير الإسلامي في السودان الغربي ص ٢٠٢.

فكان سقوط أمبراطورية سنغاي الإسلامية قد أفاد مدينة كشنا ونيجيريا عامة من الناحية الثقافية لأنه عندما تفككت أمبراطوبية سنغاي الإسلامية إثر الغزو المراكشي لها في نهاية القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر الميلاديين برزت إمارات الهوسا عامة وكشنا خاصة كملجأ لكثير من العلماء الهاربين والقادمين إليها من معاهد تمبكت وغاو وجنى فازدهرت مدينة كشنا علمياً وثقافياً ووجد فيها حي خاص بالطلبة. وأصبحت من المدن القيادية الثقافية في غرب أفريقيا، حيث تحول معظم عناصر ازدهار سنغاي إليها التي فرت من التدمير والإبادة من قوات الغزو، فوجدت كشنا نفسها صاحبة شهرة وحضارة وثقافة مزدهرة، وبمرور الزمن أصبحت تشتهر بالعدل وتسودها العفة والأخلاق الحميدة وتكثر فيها المعاهد التعليمية وتعم ربوعها الثقافة الإسلامية. كل ذلك بسبب تحول العلماء والفقهاء من السنغاي إليها بعد انهيار الثقافة الإسلامية والحركة العلمية في أمبراطورية سنغاي أثناء غزو المغاربة لها[1] وقد صدق المتنبي حين قال:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

لقد أنزل الحكم المغربي في السودان منذ بدايته ضربة مؤلمة وقاسية على علماء تمبكت شملت خصوصاً عائلة أقيت التي كانت لرجالها سطوة ونفوذ لدى سلاطين السنغاي وفي المجتمع السوداني كله.

قال الناصري في الاستقصاء: (كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تمبكت وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرئاسة الشهيرة ببلاد السودان ديناً ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم

(١) تاريخ التعليم الإسلامي في معاهد غربي أفريقية ص ٢٦٦ وانظر الثقافة العربية في نيجيريا ص ١٧٦ وكان من أهم معاهد كشنا المعهد الذي أنشأه الشيخ محمد غيغما وهو من المهاجرين من مملكة سنغاي ويسمى المعهد (معهد الحنبليين) وقد ساهم هذا المعهد في نشر العلم في نيجيريا.

مدة طويلة تقرب من مائتي سنة كانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه. . . إلى أن كانت سنة اثنتين وألف، فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وأنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل أقيت فتخوف المنصور منهم (فغدر بالعهد الذي قطعه للقاضي حين كان يدعو له بالخلافة سراً) وربما وشيي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بن زرقون بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش، فقبض على جماعة كبيرة منهم، كان منهم الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بابا والقاضي أبو حفص عمر[1] بن محمود بن عمر بن محمد أقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم، وانتهبت ذخائرهم وكتبهم[2]. وكانت نكبة العلماء بدأت باستئصال شأفة عائلة الشريف الصقلي فقد صدرت أوامر السلطان أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي إلى قائده بالسودان محمود بن زرقون الذي كان يغزو سنغاي بالقضاء على عائلة أحمد الشريف الصقلي واستئصال شأفتها أولاً مهما كانت النتائج ثم إلقاء القبض على القاضي وعائلة أقيت وترحيلهم إلى مراكش ومن أجل ذلك وجه محمود زرقون تعليمات السلطان كما وردت إليه إلى حاكم تمبكت من قبله بإلقاء القبض على أفراد العائلة وفي مقدمتهم الشريفان: محمد الشيخ محمد بن عثمان، وبابا عمر سبطي الشريف أحمد الصقلي الذي استقدمه أمير المؤمنين

(١) القاضي عمر هذا كان ممن له سلطة مطلقة ونفوذ واسع لدى ملوك سنغاي وعامة الشعب، ولكنه مع ذلك غره سلطان مراكش أحمد المنصور الذهبي بالأماني واستماله إليه وكان من كبار الدعاة له في السودان بالخلافة وكانت الكتابات بينهما مستمرة لغزو أمبراطورية سنغاي الإسلامية وضم السودان كله إلى مراكش. وقد لقي القاضي جزاء عمله هذا حيث ألقي القبض عليه ووضع هو وأسرته في السجن عدة شهور ثم أرسلوا إلى مراكش مقيدين في سلاسل من حديد ومات هناك ولم يعد إلى تمبكت.

(٢) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٢٩ تحت عنوان نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل أقيت.

الحاج محمد أسكيا أثناء حجه من مكة فاقتادهما قائد تمبكت بنفسه إلى سوق مدينة تمبكت، فأصدر الأمر بقطع أيديهما وأرجلهما بالفأس وتركهما على تلك الحالة معذبين حتى الموت، وقد أنجز ذلك القتل الشنيع المكلف بالسجون ومراكز التعذيب علي الدراوي، وكان برتبة قائد مع مساعده شاوش الكامل الذي باشر القتل بنفسه[١].

وبعد رجوع ابن زرقون من المنطقة الشرقية من حربه أسكيا نوح عمل الاحتياطات التي تقتضيها الظروف لإلقاء القبض على قاضي تمبكت وأسرته وسائر علماء تمبكت، فدعا جميع أهل تنبكت إلى تجديد البيعة للسلطان وسار المنادي في شوارع وأحياء تمبكت يطلب من أهل المدينة أن يهرعوا إلى مسجد سنكري لتأدية البيعة العامة للسلطان، وأن يصحبوا معهم المصاحف وصحيح البخاري ومسلم فجمع كافة أهل تمبكت في المسجد المذكور، وعند حضور العلماء أغلقت أبواب المسجد عليهم وظهر الرماة على الأسطحة المجاورة وفي أركان الأزقة المؤدية إلى المسجد شاهرين أسلحتهم النارية وأخرج الناس من المسجد إلا الفقهاء والعلماء وأصحابهم وأتباعهم فقبض عليهم جميعاً الباشا محمود بن زرقون وعلى رأسهم القاضي عمر أقيت وعند احتجاج بعضهم أثناء سوقهم بخشونة إلى السجن ومركز التعذيب صدرت الأوامر بإطلاق الرصاص فسقط أربعة عشر منهم قتيلاً وعدد من الجرحى. ومن القتلى تسعة من فقهاء سنكري[٢].

وذكر السعدي أن الباشا محمود دخل ديار الفقهاء والعلماء وأخذ

---

(١) تاريخ السودان ص ١٦٦، وذكر قصة قتل الشريفين وعائلتهما أيضاً صاحب كتاب بداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٥ - ٣٢٦ نقلاً عن نفس المصدر.

(٢) تاريخ السودان ص ١٦٩ - ١٧٠ وتاريخ الفتاش ص ١٧٣ - ١٧٤ والاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٢٩ - ١٣٠ وما بعدها، وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٧ - ٣٢٨ نقلاً عن المرجعين الأولين.

جميع ما فيها من الأموال والمتاع والأثاث مالا يدخل تحت حصر ولا يحصيها إلا الله ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودائع. ونهب أتباعه ما اتصلوا به وقام جيشه بكشف عورات الحرائر من نساء الفقهاء وبناتهم وفعلوا فيهن الفاحشة واقتدوهن إلى القصبة ليعاشرهن العساكر هناك، وأمضى العلماء ونساؤهم ستة أشهر في السجون قبل تغريبهم إلى مراكش[1].

وقد توجه العلماء في سلاسلهم إلى مراكش صحبة قائد علجي والكاهية فريدو النصراني مقيدين ومعهم نساؤهم وأولادهم وعدد من عبيدهم سنة ١٥٩٤م الموافق ١٠٠٢هـ وذكر القاضي محمود كعت أن عددهم نيف وسبعون ولم يرجع منهم سوى أحمد بابا بعد أن مكث هناك عشرين سنة غير ستة أشهر[2]. ولم يتحمل أولئك العلماء والفقهاء صعوبة الطريق ومشاقه ولا قساوة طقس الصحراء في ذلك الوقت من العام، ولاسيما أنهم كانوا معتقلين لعدة أشهر في ظروف سيئة مثقلين بالسلاسل، وأغلبهم تجاوز سن الشباب، وقد ذهب هؤلاء العلماء بغير كتبهم وأوراقهم فإن جنود المغاربة قد أحرقوا كل شيء ونهبوا أموالهم وذخائرهم وكتبهم[3].

وذكر أحمد بابا أنه نهب له في تلك المحنة ألف وستمائة مجلد، وقال: أنا أقل عشيرتي كتباً. وكان القبض عليهم وتعذيبهم في أواخر محرم سنة ١٠٠٢هـ، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من

---

(١) تاريخ السودان ص ١٧١ والفتاش ص ١٧٣، وبداية الحكم ص ٣٢٨.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١٧٤ وانظر تاريخ السودان ص ١٧١ - ١٧٢ وأمضى العلماء مدداً في سجن مراكش قبل إطلاق سراحهم ولم يسمح لهم المنصور بالعودة وبعد وفاته سمح السلطان زيدان لأحمد بابا بالعودة إلى تمبكت وتوفي في تمبكت سنة ١٠٣٢هـ، شجرة النور الزكية ص ٢٩٩.

(٣) الاستقصاء في أخبار الدول المغرب الأقصى ص ١٣٠ وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ١٩٩ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٢٨. وانظر ترجمة أحمد بابا نفسه من كتابه كفاية المحتاج مخطوط.

السنة نفسها واستقروا في المعتقل مع عيالهم. وأطلق سراحهم بشرط عدم العودة إلى السودان يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ١٠٠٤هـ[١].

وذكر صاحب الاستقصاء في دول المغرب الأقصى: أن أحمد بابا دخل على المنصور الذهبي بعد تسريحه من السجن فوجده يكلم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم كلة مسدولة. فقال له الشيخ أحمد بابا: (إن الله تعالى يقول: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾ وأنت تشبهت برب الأرباب، فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب، فنزل ورفعت الأستار. فقال له الشيخ: أي حاجة لك في نهب متاعي وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكت إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي؟...)[٢].

وقد وصف القاضي محمود كعت مدينة تمبكت في أيام حكم سنغاي قبل استيلاء المغاربة عليها وترحيل علمائها عنها، وبين ما عليه أهلها في عهد سنغاي من الصلاح والتقوى والعلم فقال: (فتنبكت يومئذ لا نظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب مروءة وحرية وتعففاً وصيانة، وحفظ العرض، ورأفة ورحمة بالمساكين والغرباء، وتلطفاً بطلبة العلم وإعانتهم، وأماسن[٣] فهم أجل عباد الله

---

(١) المراجع السابقة في نفس الصفحات وانظر أيضاً كتابه: كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج. مخطوط وتوجد منه نسخة في مكتبة الحرم بمكة المكرمة، وذكر الإفراني نقلاً عن أحمد بابا نفسه أن مكتبته بلغت ستمائة وألف مجلد. انظر صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ص ٥٢ للإفراني محمد الصغير بن محمد بن عبد الله المراكشي.

(٢) الاستقصاء ص ١٣٠.

(٣) سن بفتح السين ونون ساكنة بعدها: قوم من السودان اشتهروا بالدين والكرم والمروءة والإحسان إلى الناس والأظهر أنهم شعب سنغاي حيث لا تزال هذه الأوصاف موجودة فيهم إلى هذا اليوم.

في زمانهم كرماً وحفظ المروءة والسكوت وترك مالا يعني ولزوم بيوتهم ونفع المسلمين ورفد محتاجهم وتلك فيهم خلقة وجبلة رحمهم الله ورضي عنهم ورحم أسلافهم وأبقى مخلوفهم في سلامة وستر واقتفاء آثارهم. وهي أي تنبكت يومئذ ليس فيها حكم إلا حكم متولي الشرع، ولا سلطان فيها، والقاضي هو السلطان وبيده الحل والربط وحده، ومثلها في أيام سلطنة سلطان مالي (جعب) بلد الفقهاء وهي في وسط أرض مالي لا يدخلها سلطان مالي وليس لأحد حكم فيها إلا قاضيها ومن دخلها كان آمناً من ضيم السلطان وجوره، ومن قتل ولد السلطان - (أي في مدينة جعب). التي سماها بلد الفقهاء - لا يسأله السلطان بدمه. ومثلها (أي مثل تمبكت) بلد يقال له كنجور بلد بأرض كياك بلد قاضي تلك الأقاليم وعلمائها لا يدخلها جندي ولا يسكنها أحد من الظلمة إلا سلطان كياك يزور علماءها وقاضيها في شهر رمضان من كل عام على عادتهم القديمة بصدقاته وهداياه ويفرقها عليهم وإذا كانت ليلة القدر يأمر بطبخ الطعام ثم يجعل المطبوخ في المائدة أي القدح الكبير ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلونها والقدح على رأسه يحملها وهو قاعد وهم قائمون يأكلون تعظيماً لهم...)[1] انتهى. هذا بعض ما حكاه القاضي محمود كعت عن مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان في عهد أمبراطورية سنغاي وما امتاز به هذا العهد من الدين والأمن وإكرام العلماء وطلبة العلم وصلاح الأحوال قبل نزول المحنة على مدينة تمبكت وغاو، وجنى بسبب غزو المغاربة لها.

---

(١) تاريخ الفتاش للقاضي محمود ص ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ وقد ذكر صاحب الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى: أن أهل السودان قبل غزو المغاربة لهم: أنهم أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة ص ١٣١.

وقد وصف القاضي محمود كعت أيضاً حالة مدينة تمبكت وغيرها من مدن السودان بعد استيلاء المغاربة عليها وتغريب العلماء والفقهاء وبين ما أصاب الإسلام وثقافته وحضارته وما حل بتلك البلاد بالبلاء والخرافات والبدع. فقال: (ولما أجلاهم القوم وارتحلوا صارت تنبكت جسماً بلا روح وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها، وساد أرذالها على عظمائها، وباعوا الدين بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى، وعطلت الأحكام الشرعية، وأميتت السنة وأحيت البدع، ولا بقي فيها من يتمسك بالسنة ولا من يسير على منهج التقوى في ذلك الوقت سوى محمد بغيع...)[1].

وهذه تمبكت التي كانت ينبوعاً للثقافة الإسلامية ومنارة للعلم والأدب أضاءت الطريق أمام شعوب السودان الغربي تحت حكم سنغاي، وكان أهلها يتحلون بفضائل الأخلاق والكرم، آلت إلى بؤرة للفساد ومكاناً للضلال والبدع والخرافات لا لشيء إلا أن المنصور الذهبي أراد أن يضيفها إلى الخلافة الإسلامية[2]. وكان أهل السنغاي قبل هذا الغزو المدمر في غاية من الجود والكرم ومكارم الأخلاق. وقد ذكر القاضي محمود ما كان عليه أسكيا إسحاق الذي حاربه جودر الإسباني من كرم وجود ومكارم الأخلاق وحب العلماء والطلبة والتفاني في إكرامهم وعامة الناس. وقال: (كان أسكيا إسحاق كريماً سموحاً جواداً جميل الوجه بلغ غاية في التصدق والعطاء محب للعلماء ومكرماً لهم... ومما يؤثر من كرم أسكيا إسحاق وجوده أنه قال: في مجلسه يوماً وهو يوم عيد الفطر وسنغاي كلهم حاضرون وأعيان بلد غاو

---

(١) تاريخ الفتاش ص ١٧٥.

(٢) تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ والاستقصاء ص ١١٣ـ ١١٤ وص ١٣١ ـ ١٣٢ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ١٢٠ ـ ١٢١.

وخاصتها وعامتها وقال لترجمانه (وندع) قل لهذه الجماعة هل بقي أحد من أهل كاغ (غاو) من لم يدخل يده إعطائي وصدقتي في داره من هذا رمضان، وكل من لم يصل إليه سببي وإعطائي فليقم ويذكر ذلك فنعطيه الآن، فقال وندع وهو قائم على رجليه ينادي به ويكرره ولم يخرج منهم أحد يذكر أنه لم يصله منحه شاع ذلك القول في البلد، وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ولم يقل أحد أنه لم ير خيره ولا وصله أعطاؤه في ذلك. وكفى بهذا كرماً وحلماً وجوداً وسعة ملكه وكثرة ذات يده، فانظر غاو وعظمها وكثرة سكانها. . .)[1].

وذكر السعدي ما وجدته حملة المغاربة في السودان من الخير والرفاهية والاستقرار والأمن فقال: (فوجدت هذه الحملة أرض السودان يومئذ من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمناً وعافية في كل جهة ومكان ببركة ولاية الأسعد المبارك أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر من عدله وشدة حكمه الشامل العام الذي كما ينفذ في دار سلطنته، كذلك ينفذ في أطراف مملكته من حد أرض دند إلى حد أرض الحمدية، ومن حد أرض بندك إلى تغاز وتوات وما في أحوازهن. فتغير الجميع حينئذ وصار الأمن خوفاً والنعمة عذاباً وحسرة والعافية بلاء وشدة ودخل الناس يأكل بعضهم بعضاً في جميع الأمكنة طولاً وعرضاً بالإغارة والحرابة على الأموال والنفوس والرقاب فعم ذلك الفساد وانتشر وبالغ واشتهر)[2].

وقد ذكر صاحب الاستقصاء ما كان عليه أهل السودان الغربي من الدين والعلم في عهد امراطورية سنغاي الإسلامية والدول الإسلامية التي قامت قبلها في المنطقة فقال: (قد تبين لك بما قصصناه عليك

---

(١) الفتاش ص ١٤٣ ـ ١٤٤ـ ١٤٥.

(٢) تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً وأقومهم ديناً، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة...)[1] وقد قامت الثقافة والحضارة في دول السودان الغربي (أفريقيا الغربي) القديمة غانا ومالي وسنغاي على أسس إسلامية متينة وسليمة لتعيش هذه الدول بحضارتها وثقافتها الإسلامية العربية قروناً طويلة ثم تتحول بسبب تدمير هذه الحضارة والثقافة الزاهرة من قبل من يدعي الإسلام إلى مجرد قصص يتناقلها الرواة. لقد كانت الحضارة في أرض السنغاي (السودان الغربي) سابقة للحضارة في أوروبا، ولكن لا يمكن لأي دولة أن تتابع تقدمها الحضاري والثقافي إذا تقسمت إلى دول صغيرة تتقاتل فيما بينها، فيشغل أهلوها بالدفاع للبقاء والوجود عن ازدهار الحضارة والتقدم بالعلم، كما لا يمكن أن تتابع النهضة العلمية تقدمها والعلماء يساقون في جحافل لخارج البلاد والكتب الثمينة تحرق وتمزق ويلقى خيار العلماء في غياهب السجون أو يعدمون[2]. وقد جاء المستعمرون البيض وانتهزوا الفوضى الذي أحدثه غزو الدولة السعدية للسودان ليسدوا الطريق أمام التاريخ القديم وازدهار الحضارة والثقافة الإسلاميتين في ذلك التاريخ المجيد في عمر المنطقة ليحاولوا تسجيل تاريخ جديد من بداية وصولهم إلى البلاد وكأنه قد نشأ من عدم. وهكذا طوى

---

(١) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى ص ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ وما بعدها.

(٢) انظر أفريقيا من السنغال إلى نهر جيبا ص ١٢١ وتعتبر مذبحة جامع سنكري من الأحداث التي يندى لها الجبين خجلاً وهي وصمة عار في جبين السعديين والمنصور بالخصوص ودليل قاطع على الغدر والخيانة وتمثل صورة من صور الامتهان الذي مارسه جنود المنصور السعدي ضد العلماء والعلم والثقافة الإسلامية والدين وضد أهالي سنغاي باسم الدين ونشر الإسلام، وبينما يدعي المنصور أنه خليفة المسلمين، وينادي بالدخول في خلافته الإسلامية يقوم جنوده بقتل العلماء والأبرياء وإحراق الكتب والذخائر العلمية في الجامعات وبيوت الله. انظر العلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٠ ـ ١١١.

جيش مراكش صفحة من تاريخ دولة إسلامية قامت بخدمات جليلة في سبيل نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في المنطقة وسادت على السودان الغربي ما يزيد على قرنين من الزمان وكان لها في تاريخ انتشار الإسلام وازدهاره شأن عظيم، طوت جيوش السعديين هذه الصفحات المجيدة في تاريخ المنطقة دون تحقيق شيء من أطماع سلاطين مراكش ولو تعاونت الدولتان على تحقيق مصالح المسلمين والنهوض بهم وصد جيوش الاستعمار التي كانت جاشمة على شواطئهما لكان خيراً لهما، إذا استغلت الدول الأوروبية ما حل بهما نتيجة هذا الغزو فاستعمرتهما وسواهما من العالم الإسلامي[١].

نتائج استيلاء المغاربة على أمبراطورية سنغاي الإسلامية والقضاء عليها بشكل نهائي

نتج عن غزو المغرب أمبراطورية سنغاي الإسلامية نتائج سيئة وتطورات ثقافية ودينية واقتصادية وسياسية بعيدة المدى بالنسبة لشعب السنغاي المسلم وبالنسبة لمسلمي أفريقية عامة.

أولاً: من الناحية الثقافية:

أ ـ قبض الباشا محمود بن زرقون على معظم علماء سنغاي وخيار الفقهاء وساقهم أسرى مقيدين في سلاسل من حديد إلى مراكش واعتدى جنود المغاربة على معاهد العلم ومكتباته في مدن امبراطورية سنغاي وقراها ينهبون ويخربون ويحرقون المكتبات، فضلاً عن الغارات الهمجية التي شنتها القبائل والممالك الوثنية على أمبراطورية سنغاي عندما أحست بضعفها والتي كانت تتربص لها الدوائر وتتحين الفرصة

---

(١) انظر الاستقصاء ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ والفتاش ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ وتاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ والعلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وأمبراطورية سنغاي في غرب أفريقية ص ٦٤١ من مجلة كلية الشريعة بالإحساء بحث الدكتور محمد النقيرة.

للهجوم على المسلمين ومعاهدهم، وقد دمرت مظاهر الحضارة والثقافة الإسلامية، ولذلك أغلق كثير من معاهد العلم ومكتباته والتي كانت تشع في أرجاء السودان الغربي علماً ونوراً وضاعت مؤلفات كثيرة لعلماء سنغاي وتوقفت دروس العلم في معظم المساجد في تمبكت وغاو وجنى.

وخبى نور الثقافة الإسلامية في أنحاء السودان كله[1].

ب: قضى جنود الغزو والاحتلال على مراكز الثقافة الإسلامية التي كانت ينبوعاً للثقافة الإسلامية واللغة العربية ومنارة أضاءت غرب أفريقيا كله. وقد كانت جنود أحمد المنصور الذهبي معظمهم من المرتزقة، وكانت لغة جيش جودر الرسمية هي الإسبانية[2]. فأدى هذا الجيش المشكوك في إسلامه إلى تدهور مستوى اللغة وتدنيها إلى أدنى مستوى في جميع أنحاء السودان الغربي وكذلك الثقافة الإسلامية فبدلاً من أن يقوم هذا الجيش بتعزيز اللغة العربية وتقويتها سبب في تدهورها وتدميرها. والمعروف أن الدول المهزومة تعمل على تقليد الفاتحين في كل شيء وخاصة في اللغة والثقافة كما هو مشاهد الآن في انتشار اللغتين الأنجليزية والفرنسية في مستعمراتهما السابقة في آسيا وأفريقيا. وكان الأمر بالعكس في غزو المغاربة السودان تدهورت اللغة العربية وثقافتها في المنطقة. وكان بين جيش المنصور الذي استولى على أمبراطورية سنغاي الإسلامية عدد كبير من الجنود المسيحيين في الحملة[3]، كما كان هناك بعض كبار القواد من القساوسة فالقائد مامي

(١) انظر المراجع السابقة.

(٢) انظر العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي ص ١١٩ وتاريخ الدول الإسلامية السودانية أفريقية الغربية ص ١٦٦.

(٣) نقولا زيادة: المغرب والسودان أيام المنصور الذهبي، كتاب العيد ص ٨٠ ـ ٨٢ الجامعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٦٧ وانظر العلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٩.

قسيس والقائد فريدو قسيس، والقائد باختيار قسيس وهو من كبار القيادات في السودان وغيرهم[١]. ومن المعلوم بالضرورة أن الجنود المسيحيين والقساوسة لم يعملوا على نشر الثقافة الإسلامية ولا على نشر الدين الإسلامي ولغته، بل ثبت بما لا يقبل الشك أنهم أثروا تأثيراً عكسياً على عقائد المسلمين السودانيين وساعدوا على انتشار البدع والخرافات والطرق الصوفية. كما بدا واضحاً للعيان أن هدف الحملة على أمبراطورية سنغاي الإسلامية كان هدفاً مادياً بحتاً[٢].

ثانياً: من الناحية الدينية:

أضرت الحملة المغربية على سنغاي بمستقبل الإسلام والمسلمين لا في السودان الغربي فقط بل في القارة الأفريقية كلها وذلك أن أمبراطورية سنغاي الإسلامية قامت بجهود كبيرة في نشر الدين الإسلامي فيما جاورها من بقاع أفريقيا، واستقدمت الفقهاء والعلماء لتعليم الناس أمور دينهم وشجعت الدعاة على نشر العقيدة الإسلامية السليمة في السودان، فلما قضى المغرب على حكومتها وعلى جيشها وحلت حكومات الباشوات محلها هاجمت سنغاي القبائل الوثنية والبربرية تقتل وتنهب وتدمر مراكز الدين والكتب العلمية وبيوت الله، كما حاصرها البرتغاليون والإنجليز والفرنسيون واحتلوا سواحلها ثم احتلوها في النهاية وأخذوا ينشرون المسيحية بين المسلمين ويحاربون تقدم الإسلام ودعاته في كل مكان من القارة[٣].

بالإضافة إلى هذا كله فإن غزو المغرب السودان لم يكن له أي

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٥٤ ـ ١٥٧ والعلاقات بين المغرب والسودان ص ١١٩ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٣١ ـ ٣٣٣.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ١٤٢ ـ ١٤٣ وتاريخ الفتاش ص ١٧٥ والعلاقات ص ١١٩.

(٣) انظر المراجع السابقة والعلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبين أمبراطورية سنغاي بغربي أفريقيا في القرن العاشر الهجري للنقيرة بحث منشور في مجلة كلية الشريعة بالإحساء ص

فائدة للإسلام والمسلمين سوى آثار في غاية من السوء بالنسبة للمسلمين في المغرب والسودان معاً، وذلك أن البرتغاليين كانوا أثناء الغزو لا يزالون جاثمين على أهم بعض الثغور المغربية واحتلوا بعض سواحلها وأخذوا يتدفقون على البلاد الإسلامية فلو وجهت الجيوش المغربية لإخراجهم من الأجزاء المغربية التي احتلوها، ومحاربة تدفقهم على البلاد الإسلامية الأخرى لكان خيراً من محاربة المسلمين في السودان بجيوش أكثرها كافرة طمعاً في الذهب والمال.

ثالثاً: من الناحية الاقتصادية:

لم يستطع المغرب الاستيلاء على ثروات السودان الغربي كلها ولا استعادة تجارته كما توهم المنصور إذ فتكت الأوبئة والأمراض بمعظم جيشه وألقى القائد محمود بن زرقون القبض على كبار تجار سنغاي وأرسلهم أسرى إلى مراكش بعد أن نهبت ثرواتهم فكسدت تجارة السودان وتدهور اقتصاده ولم يستفد من ذلك المغرب ولا أمبراطورية سنغاي[1].

لقد كان نظام التجار المراكشيين في السابق الذي كان يعتمد على التبادل التجاري مع السودانيين دون محاولة الوصول إلى المناجم واستغلالها مباشرة أنجح من الخطة التي لجأ إليها المنصور، لقد أضرت الحملة المغربية ضرراً بالغاً بتجارة السودان الغربي مع المغرب ومع الدول العربية الأخرى في شمال أفريقية، فقد كان العرب وسكان شمال أفريقيا يسيطرون على تجارة السودان الغربي في عهد أمبراطورية سنغاي ولم يسمحوا للأوربيين بالتعامل المباشر مع السودانيين، ولكن استيلاء المغاربة على السودان الغربي قضى على تجارة الصحراء، وأصبح الذهب يذهب

---

(١) مملكة سنغاي في عهد الأسكيين ص ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ والمراجع السابقة وانظر أيضاً انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى ص ٧١ لحسن إبراهيم حسن.

إلى السواحل الجنوبية التي احتلها الأوروبيون، فسيطروا على تجارة الذهب وبالتالي انتقلت تجارة الذهب إلى سواحل أفريقيا بدلاً من طريق الصحراء الذي كان مساراً لها عبر القرون. ومنذ القرن السادس عشر الميلادي أصبح اهتمام غرب أفريقيا مركزاً على السواحل وعلى أوروبا. وبهذا نصل إلى أن استيلاء المغرب على السودان الغربي، وتحول تجارة الذهب إلى أوروبا مكن الدول الغربية من الإثراء والازدهار كما عاق الاحتلال ازدهار الشمال الإفريقي حيث أصبحت التجارة مع الأوروبيين عن طريق الساحل أسهل للسودانيين من طريق الصحراء غير المأمون. وأدرك المنصور أن السودان بلد فقير وأن التجارة قد توقفت، وأحس بخيبة الأمل وواجهته النفقات الباهظة والثورات في بلده وفي السودان الغربي، وسمح بالتدريج للغزو أن يهوي إلى عملية الابتزاز الاستبدادي[1].

رابعاً: من الناحية السياسية:

قضى المغرب على استقلال أكبر دولة مسلمة في أفريقيا وهي أمبراطورية سنغاي التي سيطرت على السودان الغربي ونشرت الإسلام وحضارته في ربوع أفريقيا الغربية قبل تلك الغزاة بمئات السنين ووطدت علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول الإسلامية في المغرب والمشرق في ذلك الوقت.

ومن جهة أخرى قضت هذه الحملة على جيش المغرب وجيش سنغاي على حد سواء إذ أباد جيش المغرب معظم جيش سنغاي بينما أبادت الأمراض والأوبئة أكثر جيش المغرب فاضطرب حبل الأمن في تلك الجهات. فقد المنصور ثلاثة وعشرين ألفاً من خيرة جنوده في أرض السودان الغربي منذ بداية الفتح حتى نهايته، يقول السعدي: (قال العلامة الفقيه أحمد بابا رحمه الله تعالى أخبره الأمير السلطان

(١) العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين مالي وسنغاي ص ١٧٧ وص ١١٨.

مولاي زيدان بن أحمد المنصور: أن نهاية الرجال الذين صرفهم والده في الحملات من لدن الباشا جودر إلى الباشا سليمان ثلاثة وعشرون ألف نفس من خيرة جيشه وهي مقيدة في الزمام، قال أضاعهم الوالد باطلاً ولم يرجع منهم أحد لمراكش فيموت فيه إلا نحو خمسمائة رجل كلهم ماتوا في أرض السودان[١].

وبعد وفاة المنصور لم يستطع خليفته زيدان أن يحافظ على السودان الغربي وتخلى عنه مما أدى إلى إثارة النزاع بين القادة وتقاتلهم فيما بينهم، وبلغ بهم الضعف مبلغاً جعلهم يدفعون الجزية لحكام سيجو الوثنيين، فاستبدلوا سيادة سنغاي المسلمة على أراضيها بسيادة سيجو الوثنية، وبدلاً من أن يكون المنصور قد ضم بلاداً إسلامية لخلافته المسلمة قطع جزءاً عزيزاً من العالم الإسلامي وسلم سيادته لسلطة وثنية، واستقلت حامية جاو وجني وبنبا ولم يبق للباشوات إلا مدينة تنبكت[٢].

ولما ساءت الأحوال قرر زيدان أن يتخلى نهائياً عن السودان عام ١٦١٨م ودفن مشروع والده...[٣].

---

(١) تاريخ السودان ص ١٩١ والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان ص ١١٦.
(٢) المرجع السابق ص ١١٨.
(٣) المراجع السابقة.

الفصل الخامس

نظام القضاء في دولة سنغاي الإسلامية

في عهد ملوك آل أسكيا

ويضم هذا الوضوع المباحث التالية:

١ ـ تعريف القضاء في اللغة وفي الاصطلاح الشرعي.

٢ ـ مشروعية القضاء وحكمه في الإسلام والغرض منه.

٣ ـ نظام القضاء عند الأفارقة السود فيما حول النيجر قبل الإسلام.

٤ ـ القضاء في عهد الممالك الإسلامية التي قامت في أفريقية الغربية.

أولاً: في عهد أمبراطورية غانة الإسلامية.

ثانياً: في عهد مملكتي مالي وسنغاي الإسلاميتين.

ثالثاً: كيفية اختيار القضاة في عهد مملكة سنغاي وأمثلة لهروب الفقهاء السودانيين من ولاية القضاء.

٥ ـ طريقة تنصيب القضاة في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية.

٦ ـ سلطة القاضي ومكانته في المجتمع السوداني في هذا العهد.

٧ ـ أشهر القضاة في هذا العهد.

٨ ـ أهم نتائج البحث.

نظام القضاء وطريقة تنصيب القضاة وسلطة القاضي في عهد الممالك الإسلامية الثلاث التي قامت في أفريقيا الغربية من القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن العاشر الهجري

القضاء أمر ضروري للناس ولا تستقيم أمور دنياهم وأخراهم إلا بالقضاء لذلك اهتم به الإسلام اهتماماً شديداً وأمر بالقضاء العادل والحكم بأحكام الشريعة وجعل من لم يحكم بالشريعة الإسلامية من الكافرين ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[1] واهتمام الإسلام بالقضاء والأمر بتنصيب القضاة نابع من حرصه الشديد على تحقيق العدل بين الناس ومحاربة الظلم لأن الظلم في الطباع فلا بد من حاكم عادل ينصف المظلوم من الظالم.

وقد يقال؛ إن الإسلام يهذب نفوس المؤمنين به ويملأ قلوبهم بتقوى الله وخشيته تعالى ويحمل المؤمن على الامتثال بأوامر الله وعدم مخالفة أحكام شرعه فلا يحصل منه اعتداء على حقوق الآخرين بل ينصفهم من نفسه ويحب لهم ما يحب لنفسه. وبناء على ذلك فلا يكون القضاء أمراً ضرورياً ولا تبقى الحاجة إليه قائمة بالنسبة للمجتمع الإسلامي المهذب، والجواب أن المسلم مع ذلك يظل غير معصوم من الوقوع في المعصية والمخالفة وهو بشر ويتعامل مع غيره بالبيع والشراء والأخذ والعطاء والناس يختلفون في تقدير مصالحهم مهما بلغ عمق إيمانهم وصفاء إسلامهم ـ وفي أساليب المحافظة على حقوقهم. فيدب التنازع والتخاصم بينهم وهم بحاجة حينئذ إلى من يفصل بينهم بالحق والعدل.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٧.

والدليل على ذلك أن المجتمع الإسلامي في عهد رسول الله ﷺ وهو أصفى المجتمعات الإسلامية وخيرها على الإطلاق وقعت فيه مخالفات لذلك باشر النبي ﷺ القضاء بنفسه[١] وبعث القضاة إلى الأمصار الإسلامية في عهده ﷺ فبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن أيضاً قاضياً، وبعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قاضياً وبعث عتاب بن أسيد قاضياً إلى مكة[٢] رضي الله عنهم أجمعين.

أولاً: تعريف القضاء

معنى القضاء في اللغة:

ذكر ابن منظور في لسان العرب أن القضاء في اللغة يعني الحكم والفصل والقطع، والقاضي معناه في اللغة القاطع للأمور المحكم لها، واستقضى فلان أي جعل قاضياً يحكم بين الناس[٣].

ويرد لفظ (قضى) لمعان كثيرة منها:

١ ـ الحكم: بمعنى المنع، ومنه سمي القاضي حاكماً لمنعه الظالم من ظلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[٤] أي حكم وأوجب وأمر

٢ ـ الإتمام والإكمال ومنه قوله تعالى: ﴿فلما قضى موسى

---

(١) انظر كتاب أقضية رسول الله ﷺ للعلامة المحدث عبد الله محمد بن فرج المالكي القرطبي وقد جمع فيه أقضية الرسول في مختلف القضايا.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٢ ص ١٠٠، ١٠١، ١٠٧ وانظر أيضاً تبصرة الحكام ص ١٣ لابن فرحون المالكي الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

(٣) انظر لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ١١١ مادة (قضى) ط دار لسان العرب، بيروت.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

الأجل...﴾[1] وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿أيما الأجلين قضيت﴾[2].

٣ ـ الإنهاء والتبليغ ومنه قوله تعالى: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾[3].

٤ ـ الخلق والتقدير ومنه قوله تعالى: ﴿فقضاهن سبع سموات في يومين﴾ أي خلقهن وقدرهن ويقال: قضاه أي صنعه وقدره.

٥ ـ الوجوب والوقوع: مثل قوله تعالى: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[4].

٦ ـ الأداء يقال: قضى الدائن دينه، أي أدى دينه، وقضى مناسكه أداها. ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾[5].

وترجع معاني لفظ القضاء في اللغة إلى معنى واحد وهو إمضاء الشيء وإحكامه وخلقه، أو إتمام الشيء والفراغ منه قولاً أو فعلاً[6].

ثانياً: القضاء في اصطلاح الفقهاء

عرف الفقهاء القضاء بتعريفات مختلفة:

منها:

أولاً: القضاء هو الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام[7].

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٩.

(٢) سورة القصص: الآية ٢٨.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٤.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٥) سورة يوسف: الآية ٤١.

(٦) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

(٧) انظر لسان العرب المجلد ٣ ص ١١٢ فقد ذكر ابن منظور جميع هذه المعاني في معنى (قضى) وأورد لها جميع الأمثلة التي ذكرتها وزيادة.

(٨) تبصرة الحكام لابن فرحون ج١ ص ١١ ـ ١٢ ومواهب الجليل بشرح مختصر خليل للحطاب، ج٦ ص ٨٦.

ثانياً: هو فصل الخصومات والمنازعات[1].

ثالثاً: هو رفع الخصومة بين خصمين فأكثر بحكم الله تعالى[2].

رابعاً: هو تبيين الحكم الشرعي والإلزام به وفصل الخصومات[3].

خامساً: هو قول ملزم يصدر عن ولاية عامة[4].

وهذه التعريفات لا تختلف في جوهرها وحقيقتها، والاختلاف بينها لفظي لأنها جميعاً تعني أن القضاء هو الحكم بين الخصوم بأحكام الشريعة الإسلامية بكيفية مخصوصة. مثل كيفية رفع الدعوى إلى القاضي ووسائل إثبات الدعوى، ووسائل دفع الدعوى وغيرها من الأساليب والضوابط المطلوبة في القضاء. والاختلاف اللفظي الذي بين تلك التعريفات ينصب على ما أظهره كل تعريف أو أخفاه من معاني مقومات القضاء، إلا أن ما أخفاه كل تعريف من مقومات القضاء تضمنه ما أظهره هو من تلك المعاني أو المقومات. فالتعريف الأول والرابع والخامس نص على عنصر الإلزام. والفصل بين الخصومات لابد أن يكون على سبيل الإلزام وإلا ما حصل الفصل بينها.

والتعريف الثاني أظهر عنصر الخصومات وفصلها، كما أن التعريف الثالث نص على رفع الخصومة بين خصمين... وأخفيا العناصر الأخرى التي يتضمنها معنى القضاء في الإسلام. ولا شك أن

---

(١) شرح أدب القاضي لحسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة ج١ ص ١٢٦.

(٢) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الشربيني ج ٤ ص ٣٦٢.

(٣) الروض المربع مع حاشية ابن قاسم ج ٧ ص ٥٠٨.

(٤) رد المحتار شرح درر المختار المسمى بحاشية ابن عابدين الحنفي ج ٥، ص ٣٥٢.

الخصومات تستلزم وجود خصمين أو أكثر وأن الفصل بين الخصوم يكون بحكم الله على سبيل الإلزام[1].

الفرق بين القضاء والإفتاء:

يختلف القاضي عن المفتي في منصب القضاء والإفتاء في أن القاضي حكمه ملزم وله سلطة الإلزام، وأما المفتي فليس له سلطة إلزام على أحد من المستفتين. بل من شاء قبل قوله ومن شاء تركه. ويختلفان أيضاً من ناحية أن فتوى المفتي حكم عام يتعلق بالمستفتي وغيره، وأما حكم القاضي فهو قاصر على المحكوم عليه، فالمفتي يفتي بحكم عام كلي من فعل كذا ترتب عليه كذا، ومن قال كذا لزمه كذا.

والقاضي يقضي قضاء معيناً على شخص معين، فقضاؤه خاص ملزم. وفتوى العالم عامة غير ملزمة[2].

والقاضي أيضاً أيسر مأثماً وأقرب إلى السلامة من المفتي لأن المفتي من شأنه إصدار ما يرد عليه من ساعته بما حضره من القول، والقاضي شأنه الأناة والتثبت بالنظر في البينات والحجج المقدمة له، ومن تأنى وتثبت تهيأ له من الصواب مالا يتهيأ لصاحب البديهة[3].

ويتفق القاضي والمفتي في الإخبار عن الحكم الشرعي ويفترقان فيما ذكر.

---

(١) راجع كتاب نظام القضاء في الشريعة الإسلامية لعبد الكريم زيدان، ص ١٢ - ١٣ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ الموافق ١٩٨٤م مطبعة العاني - بغداد.

(٢) راجع للفرق بين المفتي والقاضي أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ج١ ص ٣٧ وأيضاً كتاب الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لأبي الحسن المرداوي ج١١ ص ١٨٦.

(٣) راجع الإنصاف - الصفحة نفسها.

مشروعية القضاء في الإسلام وحكمه، والغرض منه

القضاء مشروع بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقد وردت فيه آيات كثيرة تدل على مشروعية القضاء منها:

قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾[2].

وقوله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[5].

وأما مشروعية القضاء بالسنة فقد ثبت بقوله ﷺ وفعله أما القول فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»[6].

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٩.

(٣) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

(٥) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٦) انظر كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٢ ص ٥٥ باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام انظر الحديث في صحيح مسلم مع شرحه للنووي ج١٢ ص ١٣.

أما بالسنة الفعلية فقد باشر النبي ﷺ القضاء بنفسه وقضى بين الناس، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: (قضى باليمين على المدعى عليه)[1]. وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: (قضى بيمين وشاهد)[2].

أما مشروعية القضاء بالإجماع فقد نقل غير واحد من أهل العلم إجماع أمة محمد ﷺ على مشروعية القضاء والحكم بين الناس. وقال ابن قدامة في المغني: (وأجمع المسلمون على مشروعية نصب القضاء والحكم بين الناس)[3].

حكم القضاء:

اتفق الفقهاء على أن القضاء فرض كفاية وقال ابن قدامة في المغني: (والقضاء من فروض الكفايات لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه فكان واجباً عليهم كالجهاد والإمامة...)[4].

وقال ابن فرحون: (وأما حكمه فهو فرض كفاية، ولا خلاف بين الأئمة أن القيام بالقضاء واجب، ولا يتعين على أحد إلا أن لا يوجد عنه عوض، وقد اجتمعت فيه شرائط القضاء فيجبر عليه[5].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٢ ص ٣.

(٢) المصدر السابق ج ١٢ ص ٤. وقد ذكر العلامة المحدث عبد الله محمد بن فرج القرطبي في كتابه أقضية رسول الله ﷺ ١١٨ حكماً مما قضى به رسول الله ﷺ وتحت كل حكم عدة أقضية من قضاياه ﷺ.

(٣) المغني لابن قدامة ج ٩، ص ٣٤ كتاب القضاء، وانظر أيضاً مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الشربيني ج٤ ص ٣٧٢ وتبصرة الحكام لابن فرحون ج ١ ص ١٢.

(٤) المغني ج ٩ ص ٣٤ وفرض الكفاية يعني أنه إذا قام به بعض الأمة سقط عن الباقين، وإذا أجمع أهل بلد على تركه أثموا جميعاً.

(٥) تبصرة الحكام ج ١ ص ١٢.

الغرض من القضاء:

القضاء أمر لازم لقيام الأمم وسعادتها وأمنها واستقرارها ولنصرة المظلوم ورد الظالم إلى الصواب وأداء الحقوق إلى مستحقيها والضرب على أيدي العابثين وأهل الزيغ والفساد. ونقل ابن قدامة عن الإمام أحمد أنه قال: (لا بد للناس من حاكم أتذهب حقوق الناس)، وفيه فضل عظيم لمن قوي على القيام به وأداء الحق فيه، ولذلك جعل الله فيه أجراً مع الخطأ وأسقط عنه حكم الخطأ، ولأن فيه أمراً بالمعروف ونصرة المظلوم وأداء الحق إلى مستحقيه ورداً للظالم عن ظلمه وإصلاحاً بين الناس وتخليصاً لبعضهم من بعض، وذلك من أبواب القرب، ولذلك تولاه النبي ﷺ والأنبياء قبله فكانوا يحكمون لأممهم...[1].

نظام القضاء عند الافريقيين قبل الإسلام فيما حول النيجر

لم يكن لدى الإفريقيين قانون مدون قبل الإسلام يحدد نظام القضاء ويضع قواعد قضائية للقضاة، وإنما كانوا يحفظون في صدورهم ما يتوارثونه عن أسلافهم من أساطير وتقاليد وأعراف متواترة بينهم، وتعتبر هذه التقاليد والأعراف عندهم بمثابة أنظمة وقوانين ثابتة لا تجوز مخالفتها يتوارثونها كابراً عن كابر، وكان القضاء مبنياً على تلك التقاليد والعادات المحلية[2].

أما نظام القضاء عندهم وطريقة فصل الخصومات، فالملك هو قاضي القضاة يتولى القضاء بنفسه كما كان يحدث في مملكة غانة الوثنية وممالك هوسا، وكبير كل عائلة قاضيها، ورئيس كل قبيلة

---

(١) المغني ج ٩ ص ٣٤.

(٢) هذه المعلومات مستقاة من روايات بعض الشيوخ في غرب أفريقيا ومن الواقع الملموس من عادات بعض القبائل الأفريقية التي لم تدخل في الإسلام، وظلت متوارثة تلك الأعراف رغم اعتناق بعضها النصرانية، كما أن هذه المعلومات موجودة أيضاً في بعض الوثائق المتعلقة بقبائل الهوسا وغيرها في غرب أفريقيا.

حاكمها وقاضيها ولا تجوز مخالفته فيما يقضي به. وقاضي القضاة هو الملك الذي يعتبر نفسه نائباً عن الله في أرضه. ولكل كبير ورئيس حق سماع القضايا الصغرى في ناحيته وولايته الخاصة.

أما القضايا الكبرى فإنها ترفع إلى مجلس الملك فيجتمع الأعيان لسماعها والنظر فيها. أما العقوبات الكبرى التي كانت تعاقب بها الجاني فهي:

أولاً: القتل وهو عقوبة من قتل نفساً بغير حق، أو كان لصاً محارباً أو خائناً للوطن أو مخالفاً لأمر السلطان على سبيل الاستفزاز مثل هذا يقضي عليه بالصلب حتى الموت.

ثانياً: النفي وهو جزاء من استحق القتل من العظماء الذين يخشى من قتلهم الفتنة.

ثالثاً: الغرامة، وهو جزاء من زنى بامرأة محصنة متزوجة فيؤخذ ما يعدل ثلث المهر الأصلي ويسلم للزوج الشرعي تعويضاً له عن التمتع والتلذذ بالمرأة المتزوجة.

رابعاً: الرهان: وهو ما يدفعه المدين لدائنه ليحبسه عنده ويستغله حتى يدفع ما عليه من الدين عاجلاً أم آجلاً وغالباً ما يحبس الدائن أحد أولاد المدين عنده ويستغله حتى يدفع دينه.

ومن أقضيتهم أيضاً أن المزارع يقدم لمالك الأرض نوع ما يزرع فيها. ويستولي أخو الميت الأصغر على كل الميراث ويرث بجانب العقار الثابت والأموال المنقولة الزوجات وليس للأولاد والأزواج حق إلا ما تسمح به نفس العم الذي هو بمنزلة الأب[1]. وهذا النظام

(1) انظر كتاب الإسلام في نيجيريا ص ٧٣ ـ ٧٤ لآدم عبد الله الآلوري الطبعة الثانية. بالإضافة إلى مصادر المعلومات السابقة وانظر أيضاً للفقرتين الأخيرتين موجز تاريخ نيجيريا ص ١٣٢ للألوري وكتاب حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية ص ١١٥ لنعيم قداح.

القضائي الجاهلي في العقوبات وغيرها هو النظام السائد في جميع أقطار أفريقيا الوثنية قبل ظهور الإسلام. وذكر كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا بعض الحكومات الوثنية، أن العدل كان سائداً في تلك الحكومات. ووصفوا ملوكها بالعدل. ومن ذلك ما ذكره الشريف الإدريسي: أن ملك غانا الوثني كان من (أعدل الناس فيما يحكى عنه، ومن سيرته أنه له جملة قواد يركبون إلى قصره في كل صباح فإذا اجتمع إليه قواده ركب وسار يمشي في أزقة المدينة وسائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته، ثم يرجع إلى قصره. وهو يفعل ذلك مرتين المرة الأولى قبل الظهيرة والمرة الثانية بعد الظهيرة[1].

وقد صور البكري صورة رائعة لعدل ملوك غانا قبل دخولهم في الإسلام فذكر أن اسم ملك غانا في سنة ٤٦٠هـ تنكامنين الذي ولي عرش غانا سنة ٤٥٥هـ وكان اسم الملك الذي قبله (بسي) وكان محمود السيرة محباً للعدل مرثداً للمسلمين ويجلس للناس والمظالم في قبة[٣].

وعلى الرغم أن الملك كان وثنياً - كما يذكره البكري - فإنه يحترم المسلمين لعدله وحسن سيرته في الحكم والقضاء. ولما لمسه في المسلمين من العدل والبعد عن الظلم وإجادتهم القراءة والكتابة، ويدل على ذلك ابتناه مسجداً في مدينته الوثنية على مقربة من مجلس الحكم ليصلي فيه المسلمون الذين يفدون عليه. وذكر البكري أن هذا

---

(١) الشريف الإدريسي: وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية (وهو جزء من كتاب نزهة المشتاق) ص ٨ صححه ونشره هنري بيربس طبعة الجزائر عام ١٩٥٧م وانظر أيضاً مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ١٩ لعبد القادر زبادية ونقل هذا أيضاً عن المصدر السابق.

(٢) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ص ١٧٤/١٧٥.

الملك كان ممدوح السيرة حريصاً على العدل بين الرعية كثير العطف على المسلمين. واتخذ منهم أكثر وزرائه. وصاحب بيت ماله منهم وكذلك الذين يترجمون له[١].

وقد كان للثقافة الإسلامية العربية أثر واضح في حكومة غانا الوثنية قبل دخول ملوكها في الإسلام وقبل وصول المرابطين إليها. فالمسلمون هم الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة، فلذلك كانوا هم الذين يتولون إدارة الدواوين، ومنهم الوزراء الذين كانوا يساعدون الملوك الوثنيين[٢]. هذا ما كان عليه حكومات أفريقيا الوثنية من نظام القضاء والعدل بين الرعية قبل الإسلام.

فلما جاء الإسلام ودان به كثير من تلك الحكومات في معظم أقطار أفريقيا عمل الملوك والأمراء بالنظام الإسلامي في القضاء، وطبقوا أحكام الشريعة الإسلامية العادلة على جميع شئون الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية. وكان للعلماء والفقهاء دور عظيم في تبيين أحكام الله وسنة رسول الله ﷺ فيما يصدر عن الناس في حياتهم العملية والاجتماعية.

وكان على كل إقليم أو قطر إسلامي من أقطار أفريقية ملك أو سلطان يحمل لقباً معيناً مثل (منسى) (بمعنى الملك) لأهالي مملكة مالي.

وعرف ملوك سنغاي بثلاثة ألقاب لكل واحد منها مدلوله السياسي والديني:

١ - زا، بمعنى خذ، أي خذ الملك بلا منازع ولا معارض.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٧٥.

٢ ـ سني: بمعنى السني نسبة إلى سنة رسول الله ﷺ إيذاناً لرفضهم مذهبي الخوارج والشيعة اللذين أخذا يفدان مع التجار وبعض الدعاة والمهاجرين من شمال أفريقيا.

٣ ـ أسكيا: بمعنى ممنوع جريان اسم الملك على الألسنة إجلالاً ومهابة له...

ومن ألقاب ملوك غرب أفريقيا: (الماي) لأهل برنو، و(سركي) لأهل هوسا (نيجيريا) الحالية.

وكان أكثر أولئك الملوك والسلاطين علماء وفقهاء[١]. وإذا لم يكن الملك أو السلطان نفسه عالماً فقيهاً اتخذ أحد العلماء البارزين مستشاراً ووزيراً له وقاضياً للقضاة. كما كان يفعله ملوك غانا بعد إسلامهم[٢].

وكما فعل منسى موسى ملك مالي[٣] عندما عين كاتبه قاضياً وإماماً ومستشاراً له ثم أرسله إلى مدينة فاس لتتزود بالعلم ودراسة الفقه المالكي عند فقهاء المالكية في تلك المدينة المشهورة بالعلم والفقه في تلك الأيام[٤].

---

(١) انظر تاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت التنبكتي ص ٩٤ وقد ذكر عدداً من ملوك السودان كانوا فقهاء منهم أسكيا داود ملك سنغاي الذي حكم أمبراطورية سنغاي ٣٤ سنة كان عالماً فقيهاً حافظاً كتاب الله. وانظر أيضاً تاريخ السودان للسعدي ص ٥٧ وما قبلها، وكتاب الإسلام في نيجيريا ص ٧٣ ـ ٧٤ لآدم الألوري.

(٢) انظر البكري ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) تولى منسى موسى عرش مالي سنة ١٣٠٧م وقام برحلة مشهورة إلى الحج سنة ١٣٢٤م/٧٢٤هـ، وكان ملكاً عادلا. انظر الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك، ص ١١١ وصبح الأعشى ج ٥ ص ١٩٥، والبداية والنهاية لابن كثير ج١٤ ص ١١٢. وتاريخ السودان ص ٧ ـ ٨.

(٤) تاريخ السودان ص ٥٧ وانظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي ص ٣٣١.

وكما فعل أمير المؤمنين محمد أسكيا[1] ملك سنغاي حين استقدم الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد عودته من الحج وعينه مستشاراً له وقاضياً ومفتياً يستشيره في شئون دولته الواسعة وفي نظام الحكم في الإسلام[2]. على الرغم من أن كلاً من الملك منسى موسى وأمير المؤمنين أسكيا محمد من الفقهاء في المذهب المالكي[3] وكما فعل سلطان كنو مع المغيلي نفسه[4].

وكان كل ملك أو سلطان من أولئك يشكل هيئة شورية على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء في مملكته لتقديم المشورة والرأي في شئون الحكم وما يستجد من الأحداث. ومعاملة بعض رعايا دولته من غير المسلمين وفق منهج الإسلام.

وكان أمير المؤمنين أسكيا محمد أول من فعل ذلك من أمراء السودان الغربي بشكل ثابت ثم حذا حذوه من أتى بعده من ملوك السنغاي وغيرهم، كما كان أول من تلقب بأمير المؤمنين من ملوك السودان الغربي[5].

القضاء في عهد الممالك الإسلامية التي قامت في أفريقيا الغربية من القرن الرابع الهجري حتى نهاية القرن العاشر

قام بغربي أفريقيا في العصور الوسطى عدد من الأمبراطوريات القومية أقامها الوطنيون الأفريقيون، وكان عمادها أيام ازدهارها وقوتها

(١) تولى أسكيا محمد عرش أمبراطورية سنغاي الإسلامية سنة ١٤٩٣م إلى عام ١٥٢٨م، وحج عام ٨٩٩هـ أو سنة ٩٠١/٩٠٢ المراجع السابقة.

(٢) انظر نيل الابتهاج ص ٣٣١ والفتاش وتاريخ السودان السابقين.

(٣) انظر المصادر السابقة.

(٤) انظر المصادر السابقة والإسلام في نيجيريا ص ٧٤.

(٥) انظر المصادر السابقة: تاريخ السودان ص ١١ ـ ٢٢ والفتاش ١٢.

الدين الإسلامي عقيدة، واللغة العربية أداتها في الإدارة والقضاء والتعليم والثقافة والتجارة. وهذه الأمبراطوريات هي غانا ومالي وسنغاي. وقد بلغت الذروة في القوة وازدهرت علمياً وثقافياً وإدارياً في عهدها الإسلامي.

وكانت مملكة غانا من أقدم الأمبراطوريات التي قامت بغربي أفريقيا، ثم تلتها مالي ثم قامت من بعدهما أمبراطورية سنغاي الإسلامية العظيمة[1].

والذي يهمنا من جوانب هذه الحكومات الإسلامية هو الجانب القضائي فيها وكيف كان نظام القضاء وطريقة تنصيب القضاة، وسلطة القاضي.

أولاً: القضاء في عهد امبراطورية غانة الإسلامية:

من أقدم ممالك السودان الغربي الإسلامية (أفريقيا الغربية) مملكة غانة وذكر القلقشندي أن أهلها قد أسلموا في أول الفتح الإسلامي[2].

لم يكن القضاء منظماً له سلطته التنفيذية في عهد أمبراطورية غانة الإسلامية بعد إسلام ملوكها. وإنما كان أئمة المساجد والمدرسون والعلماء يتولون مهمة الحكم بين الناس في الخلافات العقارية والأحوال الشخصية، وفي الأمور المتعلقة بالإرث والديون والقروض

---

(١) انظر تاريخ السودان للسعدي ص ٢ - ٩ وما بعدها، وتاريخ الفتاش وأمبراطورية غانة الإسلامية لإبراهيم طرخان والاستقصاء في دول المغرب الأقصى للناصري ص ٩٩، والمغرب للبكري ص ١٧٤ وما بعدها.

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤ لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ وانظر أيضاً لانتشار الإسلام في أمبراطورية غانة مبكراً - كتاب العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٤١٢ ويذكر ابن خلدون وابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار والبكري في المغرب وغيرهم أن الإسلام دخل هذه البلاد في وقت مبكر جداً، وأنه كان في غانا سنة ٦٠ هـ ٦٨٠م جالية كبيرة من المسلمين وعدد من المساجد والجوامع.

والتجارة. وأغلب أقضيتهم في فصل الخلافات كانت تتم على سبيل الصلح بين المتنازعين. وقد اشتهر أهل غانة بعد إسلامهم بقلة أنواع التعدي على حقوق الآخرين. كما شهد بذلك الرحالة والتجار الوافدون إلى تلك البلاد في ذلك العهد من المغرب وشمال أفريقيا والمشرق الإسلامي. لذلك لم تواجه الأئمة والفقهاء والمدرسين صعوبات في فض الخلافات والمنازعات القليلة التي كانت تقع بين الناس في المعاملات العقارية والتجارية وغيرها[١] حيث كان الإسلام ذا أثر عميق في سلوكهم وحياتهم الاجتماعية. كما اشتهر أهل تلك البلاد بحماسهم للإسلام وقيامهم بدور كبير في الدعوة إليه، وقد أدى هذا الأثر الشديد الذي تركه الإسلام في نفوس السودانيين من أهل غانا إلى قلة الجرائم وأنواع التعدي مما صرف جهود العلماء والفقهاء وأئمة المساجد إلى التعليم ونشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية بين السكان، وقد ساعد جهودهم في هذا الميدان على سرعة انتشار الإسلام ولغته بين الوثنيين في غانا وغيرها من بلاد السودان وزاد ذلك على استقرار الأمن فيها حتى أصبحت القضايا التي كانت تعرض على أئمة المساجد والفقهاء قليلة[٢].

ثانياً: القضاء في عهد مملكة مالي ومملكة سنغاي الإسلاميتين:

طريقة اختيار القضاة وأمثلة لهروب الفقهاء والعلماء من تولي منصب القضاء.

---

(١) انظر وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية للإدريسي ص ٨ وما بعدها، ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ٧٤ ـ ٧٥ لعبد القادر زبادية. والثقافة العربية في نيجيريا ص ٢٨ ـ ٢٩ للدكتور/علي أبو بكر الطبعة الأولى ١٩٧٢م ورحلة ابن بطوطة ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٢) انظر المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص ١٧٥ ومملكة سنغاي ص ٧٥ وتاريخ الفتاش وأمبراطورية غانة الإسلامية لطرخان ص ٨٢/ ٨٤، وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي لمحمد الغربي، والعلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي ص ٤٤ ـ ٤٥ للشيخ أمين عوض الله الطبعة الأولى.

في هذا العهد تم تنظيم القضاء تنظيماً ممتازاً على الطريقة الإسلامية المعروفة وأصبح القضاء منصباً مستقلاً بذاته وللقاضي بعد تنصيبه سلطاته الواسعة واستقلاله في قضاياه(١).

وكان القضاة في هذا العهد - وخصوصاً في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية العهد الذي بلغ فيه منصب القضاء ذروته في التنظيم يعينهم الملك ويختارهم من العلماء والفقهاء البارزين في العلم والمتضلعين في فقه المذهب المالكي ممن امتاز بالعلم والفقه والورع والزهد، واشتهر صلاحه وعلمه بين الناس(٢)، وكان ملوك سنغاي من آل أسكيا يحرصون على اختيار الأصلح من العلماء لولاية القضاء والأصلح عندهم هو العالم الصالح الورع الزاهد التقي الذي بلغ رتبة الاجتهاد في المذهب المالكي على الأقل، وبدون ذلك لا يقلدونه القضاء فلذلك يجدون صعوبة كبيرة في الحصول على العالم الذي تتوفر فيه هذه الشروط. وقد شكى ملك سنغاي أسكيا محمد ذلك إلى الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي في أسئلته التي وجهها إليه، وقد وصف فيها كثيراً من علماء بلده بعدم الأمانة والعلم وعدم معرفتها مقاصد العلماء. . .(٣).

وكان الفقهاء في هذا العهد يتهربون من منصب القضاء ولا يتولونه إلا بعد إلحاح شديد يتوالى عليهم من الملك وأعوانه. ومن الأصدقاء ومن الجمهور وذلك تهرباً من مسئولية القضاء الصعبة وهذه سنة قديمة في تاريخنا الإسلامي، لقد كان كثير من العلماء والفقهاء في

---

(١) راجع تاريخ السودان ص ٢٨ - ٣٠ وما بعدها. وتاريخ الفتاش ص ٤٨ ونيل الابتهاج ص ٢٧٠ ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين من ص ٧٣ وما بعدها، وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٩٠/٣٩١.

(٢) راجع المصادر السابقة.

(٣) انظر السؤال الأول من أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي عليها. ص ٣٥ من دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي في أواخر القرن التاسع الهجري للباحث/ د أبو بكر إسماعيل ميقا.

الخلافة الإسلامية يرفضون منصب القضاء بتاتاً لما فيه من مسئولية إحقاق الحق بين الناس[1] وكان بعض أئمة المذهب المالكي قد بالغوا في التحذير من الدخول في ولاية القضاء وشددوا في كراهية السعي فيها ورغبوا في الإعراض عنها والهرب منها وفي ذلك يقول ابن فرحون في التبصرة: (اعلم أن أكثر المؤلفين من أصحابنا وغيرهم بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهية السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها والنفور والهرب منها، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه وألقى بيده إلى التهلكة، ورغب عما هو الأفضل...[2]
وكان فقهاء السودان الغربي كغيرهم يتهربون من تولي منصب القضاء ومن أمثلة هروبهم منه في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية، ما ذكره السعدي وغيره: أن أسكيا ملك سنغاي أرسل إلى الفقيه أبي حفص عمر بن الفقيه محمد ثلاث مرات يلح عليه ويحثه على تولي منصب القضاء الشاغر في مدينة تمبكت وهو يرفض، ثم أرسل إليه الملك أسكيا رسولاً ليبلغه أنه إذا لم يقبله يوليه الجاهل فكل ما حكم به لا يسأل عنه غداً بين يدي الله تعالى إلا هو. فلما وصل رسول أسكيا إلى الفقيه عمر فبلغه مناشدته إياه أن يتولى القضاء وإلا ولاه الجاهل فيتحمل هو وزره بكى الفقيه عمر، ثم قبل المنصب وتولاه)[3].

---

(١) وقد رفض منصب القضاء كثير من أئمة العلم والتقى فقد روى أن الإمام أبا حنيفة مثلاً رفض منصب القضاء، ويقال أنه عذب وضرب، ورغم ذلك لم يقبله. وكذلك فعل عدد من مشاهير العلماء والأئمة.

(٢) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ص ١٢.

(٣) انظر تاريخ السودان للسعدي ص ١١٨ وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت ص ١٢٤ وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٧٨ للولاتي الطبعة الأولى. وكان منصب القضاء قد شغر بعد وفاة القاضي العاقب لمدة سنة ونصف سنة لامتناع الفقهاء قبوله. حتى تولاه عمر بإلحاح شديد من أسكيا والعلماء وأعيان البلد. انظر المصادر السابقة.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن القاضي محمود بعد عودته من الحج عام ٩١٥هـ طلب منه أسكيا محمد أن يتولى فرفض ذلك رفضاً شديداً، وقال صاحب الفتاش: (إن القاضي محمود بن عمر لما امتنع عن قبول منصب القضاء أرسل إليه أمير المؤمنين الحاج أسكيا محمد: كبراء قومه وأعيان تمبكت فألحوا عليه وألزموه ذلك فلم يقبل إلا بعدما غلبوه بالحجج وأقاموا الأدلة عليه)[(١)].

ومن أمثلة هروب فقهاء السودان الغربي من منصب القضاء ما ذكره القاضي محمود كعت: أن ملك سنغاي أسكيا داود الذي اشتهر بالعدل والإحسان إلى العلماء وطلبة العلم قد أمر الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر أن يطلب من الفقيه محمد بغيع وأخيه الفقيه أحمد بغيع ابني القاضي محمود بغيع أن يتولى أحدهما قضاء مدينة جنى وتوابعها، وألح عليهما في ذلك إلحاحاً شديداً، وطلب أسكيا داود من العلماء والأعيان في غاو وتمبكت محاولة إقناعهما، ولكنهما أصرا على رفض هذا المنصب. فلما زاد الإلحاح عليهما من الملك والأعيان هربا ولجأ إلى المسجد الجامع وأقاما فيه شهوراً، ويأتيهما رسل أسكيا داود كل يوم، فلما رأى إصرارهما على الرفض عفى عنهما[(٢)]. وذكر القاضي محمود أيضاً أن الفقيه أبا بكر بن أحمد بير إمام المسجد الجامع الكبير في تمبكت قد هرب من الإمامة بعد أن تولاها وصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء ثم خرج من البلد هارباً والتجأ إلى قرية نائية خوفاً من مسئولية الإمامة التي هي طريق إلى إلزامه بالقضاء[(٣)].

---

(١) انظر المصادر السابقة مع نيل الابتهاج لأحمد بابا ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) تاريخ الفتاش ص ١١٣.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ٦٣ ويذكر السعدي وكعت كثيراً من الفقهاء الذين كانوا يرفضون ولاية القضاء والذين يقبلونها بعد إلحاح شديد من الحكام والأعيان.

والأمثلة على هذا كثيرة، ومن يراجع نيل الابتهاج وتاريخ السودان والفتاش ـ وهي المصادر الأساسية لهذا العهد ـ يجد عشرات من العلماء والفقهاء السودانيين الذين يتهربون من منصب القضاء في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية.

ثالثا: طريقة تنصيب القضاة بعد اختيارهم في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية:

اهتم ملوك سنغاي بولاية القضاء وتنصيب القضاة في كل مدينة من مدن السودان الغربي وكان القضاة في هذا العهد يعينهم الملك نفسه بعد توفر الشروط التي تجعل الشخص أهلاً لولاية القضاء ووقوع الاختيار عليه[1].

ويتم تنصيبه عقب صلاة من الصلوات الخمس في المسجد الجامع على مرأى من الناس بحضور الملك في يوم مشهود، يأتي الفقيه الذي يريد الملك تعيينه وتقليده منصب القضاء[2]، بعد الصلاة يحلف أمام الملك بالله أو باسم من أسمائه الحسنى أنه سيلتزم في أحكامه بما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وخلفائه من بعده، واجتهادات أئمة العلم من بعدهم، ولا يخاف في الله لومة لائم[3]. ثم قال: (القوي عندي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، وكذلك الضعيف عندي قوي حتى يستوفي له حقه) وعقب الحلف يقلده الملك منصب

---

(١) انظر الفتاش ص ٨٩ ـ ٩٠ والسعدي ص ٢٨ ـ ٣٠، ومملكة سنغاي في عهد الأسقيين ص ٧٤.

(٢) تقليد منصب القضاء عبارة عن جبة أو قميص يلبسه القاضي في عنقه وعمامة خاصة يتعمم بها القاضي، وقد يلزم الشخص بلبس قميص القضاء وعمامته قهراً إذا رفض القضاء ولم يكن هناك من هو أولى منه، كما حصل لمحمود بغيع قاضي جنى. انظر الفتاش ص ٩٠.

(٣) المصادر السابقة.

القضاء[1] ويحضر تنصيبه الأعيان من العلماء والصالحين وأعوان الملك وخاصته وغيرهم في يوم مشهود.

رابعاً: سلطة القاضي ومكانته في المجتمع السوداني في عهد مملكة سنغاي الإسلامية:

عندما يتحدث أحمد بابا في النيل[2] والقاضي محمود كعت في تاريخ الفتاش[3] والسعدي في تاريخ السودان[4] ومؤلفاتهم من المصادر الأساسية عن تاريخ السودان الغربي الثقافي والعلمي والقضائي وكل من كعت وأحمد بابا قد عاصرا العهد الذهبي لممكلة سنغاي الإسلامية. عندما يتحدث هؤلاء عن القاضي وسلطته في عهد ملوك السودان يخيل للباحث أن سلطة القاضي كانت أعلى من سلطة الملك نفسه في عهد أمبراطورية سنغاي في غرب أفريقيا[5] ولقد لفتت المكانة التي تمتع بها القضاة في عهد ملوك سنغاي انتباه الباحثين القدامى والمحدثين على السواء إلى حد المقارنة بين سلطة الملك ومكانته ومركز القاضي الديني ومكانته. فقرروا أن سلطة القاضي تفوق سلطة الملك نفسه[6] وأن العدل الذي ساهم القضاة في نشره ودافعوا أنفسهم لترسيخه عمل على إشاعة النظام والأمن والاستقرار في أرجاء مملكة سنغاي المترامية الأطراف أكثر مما فعله قادة أسكيا وجيوشه، حيث تحول الناس في

(١) المصادر السابقة، وأساليب الدعوة في أمبراطورية سنغاي الإسلامية، ص ٧٣ ـ ٧٤ مخطوط لإدريس حمزة.

(٢) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ٢١٨ و ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٣) الفتاش ص ١٢١ ـ ١٢٤.

(٤) السعدي ص ٣٣ إلى ص ١١٨.

(٥) راجع مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ص ٧٣ وما بعدها وبداية الحكم المغربي في السودان الغربي ص ٣٩٠.

(٦) تاريخ افتاش ص ١٧٨ ومملكة سنغاي ص ٧٣ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٣٩١.

غاو وتمبكت وجنى وفي سائر أمبراطورية سنغاي إلى حمل المعول والمحراث عوضاً عن الرمح والحريش[1] غير أن هذا لا يدل إلا على المكانة السامية التي كان يتمتع بها القضاة والعلماء في مجتمع سنغاي الإسلامي في ذلك الوقت. كما أنه يدل على ما كان يمتاز به ملوك السودان الغربي من السنغاي من العدل وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. ويشير كل من أحمد بابا وكعت والسعدي مرات عديدة - أثناء حديثهم عن القضاة - إلى أن القاضي كان له الحظوة الواسعة لدى الأمراء وبين أفراد الشعب. وأن الملك كان يستشيره ويطلب منه النصيحة حينما يلتقي به[2].

إن عظيم المكانة والاحترام اللذين كان عليهما القاضي في عهد ملوك سنغاي لا مجال للشك فيهما بحال، ويبدو أن القضاة قد فرضوا احترامهم على السلطة وعلى الجمهور من الاستقامة التي كانوا عليها.

فالقضاة في هذا العهد لم يؤثر لنا عن أحد منهم إخلاله بالواجب بأي شكل من الأشكال، كما كانوا لا يتولون منصب القضاء إلا بعد إلحاح شديد من الملك ومن الأعيان والأصدقاء والجمهور[3].

وكمثال على مكانة القاضي في هذا العهد ما ذكره القاضي محمود كعت في تاريخ الفتاش: من سعي الوشاة بين القاضي العاقب بن محمود والملك أسكيا داود بأن القاضي عازم على وضع أحد الأمراء على عرش سنغاي بدلاً عن أسكيا داود الذي كان يغزو بلاد مالي حين سماعه الخبر فأوقف حملاته وقفل راجعاً إلى تمبكت لمقابلة القاضي وقصد بيت القاضي فلم يسمح له بالدخول فاضطر إلى

---

(١) المصادر السابقة الفتاش ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) المصادر الثلاث السابقة.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ٧٦ - ٩٠ - ١٣٣ وتاريخ السودان ص ١١٨ ومملكة سنغاي ص ٧٣ - ٧٤.

أن يتشفع ببعض علماء المدينة وأكابرها. فقبل القاضي شفاعتهم ودخل أسكيا متواضعاً يسترضيه حتى رضي عنه[١].

ومن الأمثلة على مكانة القاضي أيضاً أن القاضي محمود بن عمر حين خرج للحج عام ٩١٥هـ خرج في موكب شبيه بموكب الملوك وحضر الملك أسكيا محمود وداعه في يوم مشهود وعمت الأفراح سائر مملكة سنغاي[٢] وقد حدث عدة مرات أن القاضي محمود بن عمر يرفع احتجاجه أمام الملك على مسألة من المسائل وعلى مسمع من الجمهور فيرضخ الملك له ويترجى منه العفو وحسن النصيحة[٣].

وكان الملك لا يبرم أمراً إلا بمشورة القاضي ومباركته، وإذا صدف أن القاضي ارتكب هو أو أحد أعوانه خطأ في الحكم أو في التصرف فلا يناله أو ينال أحد أعوانه عقاب أو لوم، وقد قامت ثورات ومؤامرات في الجهات الغربية من مملكة سنغاي ضد أسكيا يشارك فيها القاضي، ولكن لا يلحقه بعد انتهائها أي أذى أو عقاب[٤].

لقد كان قضاة سنغاي مثاليين في الاستقامة والتصدي لجميع واجباتهم بكل أمانة وإخلاص، كما نقل ذلك عنهم أحمد بابا والسعدي، وكعت[٥] لذلك كانوا على درجة عظيمة من الاحترام والتقدير سواء من السلطة أو من الشعب. أما من جهة السلطة فلأنهم

---

(١) الفتاش ص ١٠٩ ونيل الابتهاج ص ٢١٨.

(٢) انظر المصادر السابقة: نيل الابتهاج ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وتاريخ السودان ص ٣٨ وقد ذكر كل من أحمد بابا وكعت السعدي وأمثلة كثيرة لما عليه القاضي في هذا العهد من الاحترام والتقدير وعظمة السلطة سواء كان من الملوك أو من الشعب.

(٣) انظر المصدرين السابقين النيل والسعدي بالصفحة نفسها.

(٤) انظر المصادر السابقة.

(٥) انظر نيل الابتهاج ص ٢١٨ ـ ٣٤١ ـ ٣٤٣ والسعدي ص ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ والفتاش ص ١٧٨ ـ ١٢١/١٧٩.

كانوا نعم المساعدين لها على الاستقرار، ولأنهم يشاركون مشاركة فعالة في حفظ الأمن. فقد حدث في سنة ١٠٠١هـ الموافق ١٥٩٣م في بداية الاحتلال المغربي أن طلب القاضي عمر بن محمود[١] من سكان تمبكت الثورة ضد الجيش المغربي فثاروا رغم عدم توافر الأسلحة النارية لديهم، ورغم ما كانوا يشاهدونه من تشدد الجيش المغربي في ردع كل من تسول له نفسه القيام بأي عمل ضده وإنزال أقصى العقوبة عليه دون أية شفقة، وقد قتل من أهل تمبكت من العلماء وغيرهم في تلك الثورة خلق كثير. وأما من طرف الشعب، فلما كان يمثله القاضي في أعين العامة من قول الحق والمحافظة على سير المصالح العامة، وحراسة المؤسسات الدينية والتعليمية. لهذا كله كان منزل القاضي ملجأ حرمة، لا يجوز للسلطة الوصول إليه فإليه يلتجىء الفارون من جور السلطات، وإليه يهرب الفارون من السجون وإليه يأتي الخائفون من التتبع، ومن التجأ إليه أصبح آمناً، ولكن للقاضي أن ينظر في أمره حسبما يلتمس في ذلك من أحكام الشرع[٢].

مهمات القاضي والقضايا التي كان القضاة يقضون فيها

كان القضاة في عهد مملكة سنغاي يعينهم الملك[٣] فهم بهذه الصفة تابعون للسلطة المدنية. ورغم ذلك فإنهم كانوا في الأحكام التي

---

(١) القاضي عمر بن محمود عينه ملك سنغاي قاضياً على تمبكت بواسطة مفتي السودان في تمبكت الشيخ محمد بن محمود بغيع ومكث في القضاء قبل احتلال المغاربة بلاد سنغاي ثمان سنوات وكان هذا القاضي من ضمن المتآمرين ضد آل أسكيا وله دور كبير في استيلاء جيش منصور الذهبي على بلاد السنغاي، وانظر مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين وبداية الحكم المغربي في السودان ص ١٨٥/١٨٨.

(٢) انظر لما تقدم مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ص ٧٦ - ٧٧ وتاريخ الفتاش ١٢٥ - ١٧٤ وانظر أيضاً نيل الابتهاج ص ٢١٩ وص ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ٥٩ ومؤلفه من الذين عاصروا العصر الذهبي للدولة السنغائية في غرب أفريقيا.

يصدرونها مستقلين تمام الاستقلال عن أي اعتبار خارج نطاق الأحكام الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة واجتهادات فقهاء المذهب المالكي[1]. وقد اشتهر المجتمع في سنغاي على أيام حكم آل أسكيا بقلة أنواع التعدي بين أفراده فقد تواترت شهادات الرحالة والتجار في تلك الفترة وقبلها على اتصاف المجتمع السوداني في غربي أفريقيا بالوداعة وقلة التعدي، لذلك كانت القضايا التي تعرض أمام القضاة في طبيعتها قليلة[2] وكان القضاة يفصلون بصفة رئيسة في القضايا التي تتصل بالجماهير الشعبية فيحكمون في الخلافات العقارية وفي الأحوال الشخصية، وفي الشئون المتعلقة بالإرث والديون والقروض والتجارة، وفي المسائل التي لها صفة أخلاقية كالإشراف على مراقبة شئون المدينة الأخلاقية[3].

أما القضايا الإجرامية والجنايات الكبرى وخاصة ما يتصل منها بالأمن العام أو المساس بالسلطة فإن الملك هو الذي يتولى الحكم فيها وتنفيذ أحكامها بعد عرضها على القاضي حسبما يشير به مستشاروه، وفي الغالب كانت الأحكام التي يصدرها الملك صارمة وشديدة.

وأما الأحكام التي يصدرها القاضي فأقصى عقوبة فيها الجلد[4]. أما الإيداع في السجن فقد كان يصدره القضاة كما كان يصدره الملوك أيضاً. وتعرف الآن ثلاثة سجون رئيسة كانت موجودة في مملكة سنغاي في ذلك العهد وكان يودع فيها المساجين، وهي سجون كل

---

(١) مملكة سنغاي ص ٧٥ وتاريخ الفتاش ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) المصدرين السابقين وانظر أيضاً رحلة ابن بطوطة ص ٤٥٠ ووصف أفريقيا للحسن الوزان (ليون الإفريقي).

(٣) مملكة سنغاي ص ٧٤ - ٧٥ وبداية الحكم المغربي في السودان ص٣٩٣.

(٤) مملكة سنغاي بالصفحة السابقة.

من غاو تمبكت جنى، وكانت تلك السجون الثلاثة تقع كلها خارج المدن في مكان منعزل ويتولى حراستها جنود الملك من عبيده[1].

وكان الناس يقصدون القاضي في كل أمورهم - كأنه ضابط الشئون المدنية في هذه الأيام - لا يذهبون بأنفسهم إلى السلطات، بل إن القاضي هو الذي يخبر السلطات إذا لزم الأمر في شيء فلذا كان للقاضي أعوان يرسلهم للاتصال بالسلطة ولإيصال رغباته إلى السكان[2] ومن أعوان القاضي في ذلك العهد: العدول أو كتاب دار القاضي - كما كانوا يسمون - وهم الذين كانوا يوثقون الشهادات، ويحصون التركات، ويراقبون الأهلة، وينوبون عن الغائبين، وكان القاضي يعين هؤلاء الموثقين باستمرار ويختارهم ممن عرفوا بالكفاءة والصدق، ويكلفهم بالحراسة على أبواب الميت إن كان عظيم الشأن حتى لا يقع التلاعب بأمتعته المنقولة وأمواله، كما كان يعهد إليهم بمصالحة المتخاصمين والفض فيما بينهم في الأسواق والأحياء[3].

ومن أعوان القاضي موظفان قائمان على باب المحكمة[4].

والواقع أنه كان للقاضي مهمتان رئيسيتان:

الأولى منهما: مهمة القضاء بين الناس (وهي التي تقدم الحديث عنها) ورئاسة مجموعة مختلفة من الناس من أعوانه الذين يساعدونه في تأدية وظيفته تلك.

---

(١) المصدر السابق. بالإضافة إلى الروايات المتواترة عند سكان المدن الثلاثة بذلك وانظر أيضاً أفريقيا لديوب ص ١٦٤ ونقل عنه ذلك (زبادية).

(٢) انظر تاريخ الفتاش ص ١٧٩ - ١٨٠ ومملكة سنغاي في عهد الإسبقيين ص ٧٥ - ٧٦.

(٣) تاريخ السودان ص ٢٥٠ - ٢٥١ وبداية الحكم المغربي في السودان ص ٤٠٠.

(٤) الفتاش ص ١٧١.

المهمة الثانية:

الإشراف على شئون المدينة الأخلاقية، والإشراف على أموال اليتامى حتى يرشدوا، وأموال الغرباء الذين يموتون حتى يحضر وكيلهم أو وريثهم الشرعي. كما يتولى الإشراف على بناء المساجد وصيانتها وتوسيعها وتعيين الأئمة ومؤذنين ومؤقتين وخدم[1].

ومن أهم وظائف القاضي في هذا العهد: الإشراف على سير التعليم في البلاد، فهو الذين يعين المدرسين في منطقته، ويحصي الطلبة ويساعد المحتاجين منهم. لذلك كان كثيراً ما يتولى بناء المساجد للدراسة والعبادة حسبما يراه من حاجة المنطقة إلى ذلك والمسجد لم يكن محلاً للعبادة فقط، ولكنه كان مركزاً لنشر الثقافة الإسلامية وتعليم اللغة العربية. وهنا تلتقي مسئولية القاضي في بناء المساجد والنفقة على الطلبة ومسئولية المؤدب أو الأستاذ الذي كانت شهرته وتعلق المثقفين والعامة به ترفعانه إلى صف التقديس في مدرسة تمبكت[2] وكان أغلب أولئك الأساتذة أو الشيوخ يتحولون بعد موتهم إلى أولياء، وتصبح أضرحتهم التي تقام بجوار المساجد أو بداخلها مزارات وتنسج حولهم الخرافات والكرامات والمعجزات التي ترقى ببعضهم إلى مرتبة الأنبياء[3] خرافات ما أنزل الله بها من سلطان.

وكان القاضي يتلقى مساعدات للقيام بأعماله هذه من الملك، ومساعدات من المحسنين في كل مناسبة[4] وأما تمويل مشروعاته الأساسية كالإنفاق على طلبة العلم والمدرسين وسير التعليم ونحو ذلك

---

(١) المصدر السابق، ص ١٢١ ورحلة ابن بطوطة ص ٤٥٠.

(٢) انظر تاريخ السودان ص ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ وما بعدها والفتاش ص ١٢١ وما بعدها.

(٣) انظر المصدر السابق في الصفحات نفسها من تاريخ السودان والفتاش.

(٤) الفتاش ١٢١ وما بعدها والسعدي ص ١١٠ - ١١١ ومملكة سنغاي ص ٧٦.

فقد كان يعتمد على أموال الأحباس التي كان يتولى بمساعدة من يعينهم لذلك الإشراف عليها وتسييرها[1].

ومن الموظفين التابعين للقاضي الذين يتقاضون رواتبهم منه مؤذنوا المساجد يتقاضونها من الزكوات التي يأخذونها لحماً وحبوباً وسمناً من القاضي. وأما أئمة المساجد فهم تابعون أيضاً للقاضي وهو الذي يعينهم. ويعتبر الإمام بمثابة نائبه حينما يغيب فإن العامة كانت ترتبك أمورها، وتتعطل المصالح في حالة عدم وجود قاض بالبلاد، فلذا فإن بعض الأئمة كانوا يتصدون للقيام بوظيفة القاضي تلقائياً، حينما يتعطل منصب القضاء لسبب من الأسباب[2].

ويبدو أن منصب القاضي قد عرف باسم الخطيب أيضاً في ذلك العهد فإن ابن المختار[3] يقول في معرض كلامه عن بعض أعمال أسكيا إسحاق ملك سنغاي وترشيحه محمود بغيع لمنصب القضاء في مدينة جنى يقول: (ثم رجع أسكيا إسحاق إلى كاغ (غاو) وأدركه في الطريق نعي الخطيب أحمد[4] ترف خطيب جنى قبل وصوله لكاغ وهو الذي ألفاه أسكيا إسحاق هنالك خطيباً... فأمر بتقديم القاضي محمود

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) انظر الفتاش ص ١٢٤ والسعدي ص ١١٨ فقد ذكرا أن لما تعطل القضاء في تمبكت أيام أسكيا داود لمدة سنة ونصف لخلاف بين السلطان والقاضي قام الإمام محمد بغيع تلقائياً بواجب القضاء، وكان يجلس بباب المسجد ويحضر معه بعض طلبته، ويقول: من له حق على من امتنع به فليأت، وقد قام الإمام بذلك خشية على مصالح الناس والمضار التي تلحقهم.

(٣) ابن المختار هو حفيد القاضي محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش مات محمود هذا قبل تكملة كتابة الفتاش فكلمه حفيده ابن المختار ابن بنته، انظر تاريخ التعليم الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٩ وما بعدها مخطوط.

(٤) أحمد ترف هو قاضي مدينة جنى وتوابعها تولى القضاء بعد العباس كب توفي بالحجاز أثناء حجه عام ٩٦٠هـ.

بغيع وأرسل أحد أعيانه من جيشه ليقدمه قاضياً أحب أم كره...)[١] وفي هذا النص دليل على أن منصب الخطيب هو منصب القاضي.

ويذكر السعدي أن أسكيا داود ملك سنغاي ولي محمد[٢] درمي خطيباً[٣] وفي تاريخ الفتاش نص صريح لابن المختار[٤] يفيد بأن القاضي والخطيب شيء واحد، منصبان لشخص واحد. وهذا النص هو قوله: (وكان أسكيا يوم عزم على الخروج لملاقاة جودر، وقتالهم جمع أشياخ كاغ وأعيان جيشه والقاضي الخطيب، وكبراء شهوده وسألهم عن الرأي والتدبير...)[٥].

ويتضح مما تقدم أن منصب القضاء من أكبر المناصب الإدارية والعلمية التي يتولاها العالم في عهد الدولتين الإسلاميتين في غرب أفريقيا: مالي وسنغاي.

أشهر القضاة في هذا العهد

ظهر منصب القضاء في غرب أفريقيا عند ظهور الدول الإسلامية كدولتي مالي وسنغاي ووجد منصب قاضي القضاة في العاصمة أو في أكثر المدن شهرة بالعلم والعلماء[٦] والقضاة في المدن الهامة الكبيرة[٧]

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ٨٩.

(٢) ومحمد درمي هذا ولاه أسكيا قاضياً على مدينة جني والمراد بقوله (ولى محمد درمي خطيباً) أي ولاه قاضياً، والقاضي في ذلك العهد يسمى عندهم خطيباً وقد يجمع بين الخطابة والقضاء والإمامة كما حصل للقاضي أحمد ترف المذكور. انظر تاريخ السودان ص ١٩.

(٣) انظر المصدر السابق ص ١١١.

(٤) توفي ابن المختار سنة ١٠٧٥هـ أو ما بعدها انظر تاريخ التعليم الإسلامي ص ٣٩.

(٥) تاريخ الفتاش ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) انظر تاريخ السودان ص ٤٠ وتاريخ الفتاش ٥٩ ونيل الابتهاج ص ٢١٨ وتاريخ التعليم الإسلامي ص ٣٥٧.

وفي المدن الصغيرة[1].

وكان ملوك وسلاطين هاتين الدولتين يشترطون في القاضي أن يكون عالماً فقيهاً متحلياً بالنزاهة والورع. ولم يكن أحد يتقلد منصب القضاء إن لم يكن أهلاً له خوفاً من الله. وتورعاً من خطورة المسئولية أمام الله[2] وحتى لو كان أهلاً لهذا المنصب فإنه كان يرفضه أيضاً كما تقدم توضيح ذلك. وكان الذي يعين القاضي القضاة أو قاضي تمبكت وغاو وجنى هو الملك نفسه[3] أما قضاة الأقاليم فيوليهم قاضي القضاة (قاضي تمبكت) بعد مشاورة الملك واتفاق أهل البلد على هذه الولاية، فعندما توفي قاضي جنى (القاضي العباس[4] كب) شاور أهل جنى الملك (أسكيا إسحاق) فيمن يخلفه في القضاء، فأشار إليهم بتولية الفقيه محمود بغيع الذي عرفه بعلمه قبل أن يعرف شخصه، وذلك عندما زار هذا الملك مدينة جنى وتحادث مع قاضيها السابق العباس كب بحضور محمود بغيع الذي أفتى في مسألة أثارها الملك، فأعجب به من حينها مما كان سبباً في أن يشير بتوليته[5].

وكان لقاضي مدينة تمبكت بالذات أهمية كبرى فهو بالإضافة إلى قيامه بتعيين قضاة الأقاليم بعد مشاورة الملك - يقوم بتولية الأئمة

---

(١) مثل مدينة جنى، انظر تاريخ السودان ص ١٨ - ١٩.

(٢) مثل بلدة بنديغ الواقعة جنوب غرب مدينة تمبكت - جنوب نهر النيجر - انظر تاريخ السودان ص ٢٩/٢٨.

(٣) انظر تاريخ الفتاش ص ١١٣ تقدمت أمثلة كثيرة لرفض فقهاء السودان الغربي منصب القضاء.

(٤) تاريخ الفتاش ص ٥٩ وتاريخ السودان ص ١١٨ وفتح الشكور ص ١٧٨.

(٥) توفي القاضي العباس كب قاضي مدينة جنى سنة ٩٥٩هـ أيام حكم أسكيا إسحاق، تاريخ السودان ص ١٩.

(٦) انظر تاريخ السودان ص ٩٦ - ٩٧.

للمساجد الكبيرة بعد استشارة الملك أو السلطان أحياناً[1] ويبني المساجد الجديدة أو يقوم بترميم القديم منها، فالقاضي العاقب - مثلاً - هو الذي أشار بتولية محمد كداد بن أبي بكر فلاني إمامة المسجد الجامع الكبير بتمبكت[2].

والقاضي محمد بن أحمد بن عبد الرحمن هو الذي أمر بتولية محمود بن الإمام صديق إمامة المسجد الجامع الكبير بعد وفاة أخيه أحمد[3].

أشهر القضاة في عهد دولة مالي الإسلامية[4]

ومن أشهر القضاة في هذا العهد: الفقيه القاضي كاتب موسى وكان كاتباً للسلطان منسى موسى سلطان مالي بعثه منسى موسى إلى مدينة فاس المزدهرة بالعلم والفقهاء في ذلك الزمان للتزود بالعلم والتفقه في المذهب المالكي. وذكر السعدي: أنه من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلم العلم بأمر السلطان العدل الحاج موسى)[5] ويذكر السعدي أيضاً: أن الفقيه القاضي كاتب موسى كان لا

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٨ - ٣٠٩ وانظر أيضاً تاريخ التعليم الإسلامي في غرب أفريقيا ص ٣٦١ مخطوط.

(٢) تاريخ السودان ص ١٠٨، ١٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٩.

(٤) يمتد الدور التأسيسي لأمبراطورية مالي الإسلامية ما بين عام ١٢٢٥ و ١٤٥٥م في هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانا القديمة واستولت عليها نهائياً سنة ١٢٤٠م وكانت أمبراطوبية مالي المذكورة يمتد حكمها في ذلك العهد على جمهورية مالي الحالية والسنغال وموريتانيا وغينيا وشمال كل من فولتا العليا والداهومي، وجمهورية النيجر إلى أقصى حدود جمهورية تشد الحالية. وهذا ما جعل بعض المؤرخين من العرب وغايرهم يقدرون طولها بمسيرة أربعة أشهر (من الغرب إلى الشرق). وعرضها بمسيرة ثلاثة أشهر من الشمال إلى الجنوب، وذكر القلقشندي أن عرضها مثل طولها. انظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٢. ومملكة سنغاي في عهد الإسقيين ص ٢١.

(٥) تاريخ السودان ص ٥٧.

يقضي بين الناس إلا في رحبته من وراء داره من جهة المشرق تنصب له المنصة تحت شجرة كبيرة كانت هناك يومئذ)[1].

وكان هذا الفقيه إلى جانب توليه منصب القضاء في تمبكت يشغل أيضاً إمامة المسجد الجامع الكبير، وكان آخر من تولى منصب الإمامة فيه من العلماء المحليين الذين يطلق عليهم السعدي (السودانيين)[2] يعني بذلك السود من أهل غرب أفريقيا.

وقد كانت الإمامة منذ أن ابتدأت في المسجد الجامع الكبير بتنبكت بأيدي هؤلاء السودانيين[3] وذكر السعدي أن هذا القاضي مكث في الإمامة أربعين عاماً متواصلة ولم يتخلف ولو صلاة واحدة لما حباه الله من صحة وعافية بين سببها عندما سئل عن ذلك[4].

ومن القضاة في هذا العهد:

القاضي عبد الرحمن الذي كان قاضياً في عهد الملك منسى سليمان شقيق منسى موسى وقد ذكر ابن بطوطة أنه كان قاضياً في مدينة مالي حضرة ملك السودان، ووصفه بالفضل ومكارم الأخلاق، وأنه استضافه أثناء وجوده في مالي وبين أنه من السودان وحاج. وقال: (ولقيت القاضي بمالي عبدالرحمن، وجاءني وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق. وبعث إلي بقرة في ضيافته)[5].

---

(١) المصدر السابق في الصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق من الصفحة نفسها.

(٣) المسجد الجامع الكبير بناه الملك العادل منسى موسى بعد عودته من الحج عام ١٣٢٥م بناه له أبو إسحاق الساحلي الأندلسي المعروف (بالطويجن) الذي استقدمه موسى من الحج. انظر تاريخ السودان ص ٥٧.

(٤) المصدر السابق ص ٥٧، لم أجد اسماً صريحاً لهذا الإمام في المصاد السودانية سوى (كاتب موسى) فجميع المصادر تسميه بهذا الاسم دون زيادة.

(٥) رحلة ابن بطوطة ص ٤٤٤ وكانت زيادة ابن بطوطة مالي في أول سنة ٧٥٣هـ/ فبراير ١٣٥٢م ولم يذكر ابن بطوطة الاسم الكامل لهذا القاضي الذي وصفه بالفضل ومكارم الأخلاق.

ومن القضاة الذين ذكرهم السعدي في تاريخ السودان:

الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج تولى القضاء بمدينة تمبكت في أواخر دولة مالي وذكر السعدي؛ أنه أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر. وبعد صلاة العشاء وقد كان مقدم هذا القاضي أصلاً من ولاتا مع أخيه الفقيه إبراهيم فآثر إبراهيم أن يسكن في مدينة بنك القريبة من تمبكت في جهة الجنوب من نهر النيجر. ومن نسل هذا القاضي الفقيه علماء آخرون تولوا مناصب القضاء في مناطق أخرى غير مدينة تمبكت في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية[1]. ويبدو أن عبد الرحمن هذا غير عبد الرحمن الذي وجده ابن بطوطة قاضياً في عاصمة أمبراطورية مالي الإسلامية على عهد الملك منسى سليمان المشهور سنة ٧٥٣ حيث وصفه بأنه من السودان. أما عبد الرحمن الذي ذكره السعدي فقد وصفه بأنه قاض في تمبكت وإن مقدمه من ولاتا ثم ولي قضاء تمبكت وهذا ما يرجح أن القاضي عبد الرحمن الذي وجده ابن بطوطة على قضاء مالي غير القاضي عبد الرحمن الذي ذكره السعدي بأنه كان قاضياً بتمبكت. والله أعلم. ولم تشر المصادر السودانية التي اطلعت عليها إلى أسماء جميع القضاة في عهد دولة مالي غير هؤلاء.

كما أنني لم أعثر على ما يشير إلى وجود دار مستقلة قائمة بذاتها للقضاء في هذا العهد، ويبدو أن القاضي كان يتخذ من المسجد مكاناً للقضاء، أو يتخذ داره أو أي مكان عام. وقد تقدم ما ذكره السعدي أن الفقيه القاضي كاتب موسى كان يقضي على منصة تنصب له تحت شجرة كبيرة بالقرب من داره[2].

---

(١) تاريخ السودان ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) تاريخ السودان ص ٥٧.

أشهر القضاة في أمبراطورية سنغاي الإسلامية[1]

يسرد لنا أحمد بابا في نيل الابتهاج قوائم طويلة بأسماء القضاة الذين تولوا منصب القضاء في تمبكت وجنى وغاو وغيرها من مدن السودان الغربي في عهد مملكة سنغاي الإسلامية المترامية الأطراف، ويصفهم بالاستقامة والحظوة الواسعة لدى ملوك سنغاي وأمرائها، وبين أفراد الشعب السوداني في غربي أفريقيا. وكذلك يصفهم كل من كعت والسعدي[2].

وسأكتفي بذكر أشهر القضاة في هذا العصر لأن الذين سرد أسماءهم أحمد بابا والسعدي وكعت ممن تولوا منصب القضاء منذ قيام دولة سنغاي بتطبيق الشريعة الإسلامية لا يسع لذكرهم هذا المختصر.

منهم:

١ ـ أبو عبد الله أندغمحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح من علماء التكرور وصفه السعدي[3] بأنه معدن العلم والفضل والصلاح، تولى منصب القضاء في تمبكت في أواسط القرن التاسع الهجري[4]، وهو جد أحمد بابا التنبكتي من أمه وهو أول من خدم

---

(١) من أقدم الممالك في غرب أفريقيا قبل الإسلام مملكة سنغاي فهي أقدم من مملكة كانم وغانا القديمة وكانت عاصمتها في عهد فرعون كوكيا (قرية تقع شرق مدينة غاو الحالية بمسافة تربو على مائة كيلو) وذكر السعدي أن بعض سحرة فرعون الذين حشروا لمناظرة موسى عليه السلام من هذه المدينة. وقد بدأت دولة سنغاي تتسع منذ القرن السابع الميلادي واستمرت تقوى باستمرار وتتسع حتى القرن السادس عشر، وكانت مدينة غاو هي العاصمة منذ القرن العاشر الميلادي. انظر لما تقدم: تاريخ السودان ص ٣ ـ ٤ وموجز تاريخ أفريقيا ص ٥٣ تأليف رولاند أوليفر. ومملكة سنغاي ص ٢٥.

(٢) انظر نيل الابتهاج ص ٢١٨ ـ ٣٤٣. وتاريخ الفتاش ص ٥٩ وتاريخ السودان ص ٢٩ ـ ٣٨.

(٣) تاريخ السودان ص ٢٨.

(٤) نفس المصدر السابق.

العلم من أجداده. ومن نسله كثير من شيوخ العلم والصلاح في تمبكت[1].

٢ ـ القاضي محمود بن عمر المسوفي: ٨٦٨ ـ ٩٥٥هـ/ ١٤٦٣ ـ ١٥٤٨م. هو قاضي تمبكت وعالم التكرور محمود بن عمر بن محمد بن علي بن يحيى المسوفي، قال عنه أحمد بابا: (قاضي تمبكت أبو الثناء وأبو المحاسن عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها، وإمامها بلا مدافع كان من خيار عباد الله الصالحين العارفين به ذا ثبت عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وجلالة. اشتهر علمه وصلاحه في البلاد وطار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً، وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته لا يخاف في الله لومة لائم. يهابه السلاطين فمن دونهم ويزورنه في بيته فلا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم ويهادونه بالهدايا والتحف. وكان شيخاً كريماً جواداً يفرق ما يهدى له بين الناس. تولى القضاء عام ٩٠٤هـ فشدد في الأمور وسدد وتوخى الحق في الأحكام... فظهر عدله بحيث لا يعرف له نظير في وقته)[2]. وكان إلى جانب توليه منصب القضاء يقوم بالتدريس واشتهر بذلك حتى كثر طلبته في حلقة تدريس الفقه ونجب منهم جماعة كثيرة، وكان أكثر ما يدرسه المدونة والرسالة ومختصر خليل والألفية وغيرها من الكتب المالكية الشائعة، وكان طلبته يسجلون دروسه عن مختصر خليل، فأخرجوها شرحاً في مجلدين، وانتشر هذا الشرح. وعنه انتشر قراء ومعلمو مختصر خليل في غربي أفريقيا[3].

وقام القاضي محمود برحلة إلى الحج عام ٩١٥هـ ولقي جماعة

---

(١) كفاية المحتاج لأحمد بابا مخطوط، ترجمة أبي عبد الله أندغمحمد، وانظر المصدر السابق أيضاً.
(٢) نيل الابتهاج ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وانظر أيضاً تاريخ السودان ص ٣٨ ـ ٣٨.
(٣) نيل الابتهاج ص ٣٤٤، وتاريخ السودان ص ٣٨ ـ٣٩.

من مشاهير علماء المشرق في ذلك الوقت أمثال إبراهيم المقدسي والشيخ زكريا والشيخ القلقشندي واللقانيين وغيرهم من علماء مصر، ثم عاد إلى بلاده، وتوفي في تمبكت وهو على رأس القضاء سنة ٩٥٥هـ[(١)].

والقاضي محمود من أبرز العلماء والقضاة في عهد أسكيا الحاج محمد ملك سنغاي وهو والد الثلاثة من مشاهير قضاة وعلماء تمبكت وهم: القاضي محمد بن محمود الذي تولى القضاء بعد وفاة والده المذكور سنة ٩٥٥هـ. والقاضي العاقب بن محمود الذي تولى قضاء تمبكت في عهد أسكيا داود بن محمد ملك سنغاي[(٢)] والقاضي عمر بن محمود الذي كان قاضياً على تمبكت في آخر دولة سنغاي وقد نقل إلى مراكش بعد قضاء جيش منصور الذهبي على مملكة سنغاي وتوفي هناك[(٣)].

٣ ـ القاضي العاقب بن محمود المتقدم ذكره (٩١٣ ـ ٩٩١هـ):

تولى القضاء بعد وفاة والده وأخيه كما تقدم. وصفه أحمد بابا بأنه كان مسدداً في أحكامه صلباً في الحق ثبتاً فيه لا تأخذه في الله لومة لائم قوي القلب مقداماً في الأمور العظام التي توقف فيها غيره جسوراً على السلطان فمن دونه، وقع له معهم وقائع وكانوا يخضعون له ويطاوعونه في كل ما أراد، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه، ثم يلاطفونه حتى يرجع وقع له مرارا...)[(٤)].

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

(٢) المصدرين السابقين وتاريخ الفتاش ص ١٧٤.

(٣) تاريخ السودان ص ١٧٠ ـ ١٧١ وبداية الحكم المغربي ي السودان ص ١٨٦ ـ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٤) نيل الابتهاج ص ٢١٨ ـ ٢١٩ وتاريخ السودان ص ٤٠ ـ ٤١ والفتاش ص ١٢١.

وقال عنه السعدي: (كان عالماً جليلاً ثاقب الذهن قوي القلب، صلباً في الحق... قد ملأ أرضه بالعدل حيث لا يعرف له نظير في وقته. وكان إلى جانب توليه القضاء يقوم ببناء المساجد وترميم القائم منها وتوسعته، كما فعل في هدم المسجد الجامع الكبير وتوسعته، وكما فعل في تجديد مسجد سنكري[1]. وقام القاضي العاقب بأداء فريضة الحج ولقي هناك الناصر اللقاني وأبا الحسن البكري، والشيخ البسكري وغيرهم. وأجازه اللقاني جميع ما يجوز له وعنه[2]. وتوفي العاقب في تمبكت وهو على رأس القضاء سنة ٩٩١هـ[3] هؤلاء بعض من مشاهير العلماء الذين تولوا منصب القضاء في مدينة تمبكت، وقد ذكر كل من أحمد والسعدي وكعت وصاحب فتح الشكور عشرات ممن تولوا القضاء في هذه المدينة، وقد اكتفيت بذكر هؤلاء الثلاثة من المشاهير.

أما الذين تولوا منصب القضاء في مدينة جنى فعدد كبير أيضاً فمن أشهرهم:

القاضي محمود بن أبي بكر بغيع الونكري: تولى قضاء مدينة جنى سنة ٩٥٩هـ بأمر من أسكيا إسحاق بن أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد ملك سنغاي، وكان تنصيبه قاضياً بعد وفاة قاضي جنى العباس كب. والقاضي محمود بغيع وهو والد العالمين الفاضلين الصلحين: محمد بغيع مفتي تمبكت في زمانه، والفقيه أحمد بغيع[4] وقضاة مدينة جنى عددهم كثير وقد ذكر السعدي سبعة من القضاة قبل الفقيه محمود

---

(١) نيل الابتهاج ص ٢١٨ ـ ٢١٩ وتاريخ الفتاش ص ١٢١ وتاريخ السودان ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) المصادر السابقة.

(٤) المصادر السابقة.

بغيع وأولهم القاضي محمد فودي سانو الذي ولاه أسكيا محمد بعد عودته من الحج قضاء جنى وهو أول قاض يفصل بين الناس فيها بالشرع وقبل ذلك كان الخطيب هو الذي يفصل بين الناس بالصلح[١].
كما ذكر السعدي عدداً من القضاة تولوا منصب القضاء بعد القاضي محمود بغيع كلهم في عهد أمبراطورية سنغاي الإسلامية، وآخر القضاة في هذا العهد هو القاضي محمد بنب كنات[٢].

قضاة مدينة غاو (العاصمة)

يمتاز القاضي في غاو بأنه مفتي ومستشار ديني وسياسي للملك وكان من أعظم المفتين المستشارين في عهد أسكيا محمد الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان مفتياً ومستشاراً لاسكيا في غاو وقام بدور بارز في تصحيح بعض المفاهيم المغلوطة وتوجيه الأمراء إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقد وجه إليه أمير المؤمنين أسكيا محمد أسئلة عديدة شملت جميع الجوانب المتعلقة بالحكم والقضاء والفتوى والسياسة والحرب والسلم والمعاملات. . . وأجابه المغيلي برسالة قيمة أوضح له فيها الفتاوي الإسلامية وما يجب أن يكون عليه الأمير في الموضوعات التي أثارها. وأسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي عليها يلقي ضوءاً على المشاكل التي كانت تواجه حكام المسلمين في السودان الغربي في ذلك الزمن[٣].

ومن القضاة البارزين في غاو في عهد أسكيا محمد: القاضي محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمني. والقاضي محمود

---

(١) انظر تاريخ السودان ص ١٨ ـ ١٩ والفتاش ص ٨٩ ـ ٩٠ وفتح الشكور في معرفة علماء التكرور ص ١١٣ ـ ١١٤ للولاتي الطبعة الأولى ١٩٨١م.
(٢) تاريخ السودان ص ١٨ ـ ١٩.
(٣) انظر نيل الابتهاج ص ٣٣٠ ـ ٣٣١ لمعرفة ما قام به المغيلي في غاو عاصمة مملكة سنغاي وانظر أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي في (دعوة الإمام المغيلي الإصلاحية في السودان الغربي لأبو بكر إسماعيل).

كعت من الفقهاء المرموقين في غاو وتمبكت وكان من المقربين إلى أسكيا محمد ملك سنغاي وقد حج معه سنة ٩٠٢هـ وكان مرافقاً له من ضمن العلماء والفقهاء والقضاة الذين اصطحبهم أسكيا محمد معه في حجه. وقد ذكر ذلك القاضي محمود كعت نفسه(١).

ومن القضاة الذين اتخذهم أسكيا مستشاراً ومفتياً القاضي محمود بن عمر أقيت المتقدم ذكره وقد كان أسكيا يستفتيه ويستشيره، فعندما طلب الإمام المغيلي من أسكيا محمد إلقاء القبض على يهود توات القاطنين في غاو وقتلهم استشار القاضي محمود بن عمر فأشار إليه بعدم فعل ذلك لأنهم لم يفعلوا شيئاً يستحقون العقاب بسببه، فأطلق أسكيا سراحهم من السجن(٢).

وكان ملوك سنغاي من آل أسكيا يهتمون اهتماماً شديداً بولاية القضاء وكان قاضي تمبكت يتبوأ دائماً مركز قاضي القضاة بالإضافة إلى كونه المستشار الأمين لأسكيا ولا يبرم أمراً إلا بمشورة القاضي ومباركته. فلذلك كان قضاة المدن الثلاث: (غاو وتمبكت وجنى) في اتصال دائم بالملك في غاو(٣).

---

(١) انظر تاريخ الفتاش ص ١٦ - ١٧ فقد ذكر قصة حج أسكيا وأنه كان معه في تلك الرحلة وانظر أيضاً لحج أسكيا تاريخ السودان ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) كان المغيلي قد بلغه أن اليهود في مدينة توات قتلوا ابنه فطلب من أسكيا قتل يهود غاو فأنكر عليه ذلك القاضي محمود لأن اليهود في غاو لم يشاركوا في قتل ابن المغيلي. انظر نيل الابتهاج ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) انظر تاريخ السودان ص ١٨ - ١٩ - ٢٠ والفتاش ص ٥٩ - ٩٠ من أراد الاطلاع على القضاة في عهد حكم آل أسكيا أمبراطورية سنغاي الإسلامية فليرجع إلى الكتب التالية: نيل الابتهاج لأحمد بابا، وتاريخ السودان للسعدي وتاريخ الفتاش للقاضي محمود كعت. وفتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور وهذه هي المصادر الأساسية لنظام القضاء والحكم والحركة العلمية في السودان الغربي. وهي مصادر جميع الكتاب والباحثين عن المنطقة.

أهم النتائج المستنتجة من نظام القضاء وسلطة القاضي في السودان الغربي

لقد كان منصب القضاء في الدول الإسلامية التي قامت في السودان الغربي (أفريقيا الغربية) وخاصة في مملكة سنغاي الإسلامية ـ يتسم بميزات خاصة يمكن استنتاجها مما تقدم عرضه في الأسطر التالية:

١ ـ يمارس القاضي سلطات واسعة تفوق في كثير من الأحيان سلطة الملك نفسه وقاضي القضاة له سلطة إقالة من يرى من بين القضاة الآخرين. ويتصل القاضي في هذا العهد اتصالات مباشرة بالعامة، ويتولى من الأعمال ما يمثل واسطة بين الإدارة والأهالي.

٢ ـ من أهم وظائف القاضي في هذا العهد: الإشراف على التعليم وسيره في المنطقة التي يمارس فيها عمله، وكان هذا الإشراف يتمثل في عنايته بتوفير السكن للوافدين من الطلبة، وتوزيع المواد الغذائية عليهم، وإعانة معلميهم بما يمكنهم من القيام بمهام التعليم، كما أنه بالإضافة إلى ذلك يقوم ببناء المساجد وتوسعة القائم منها للدراسة والصلاة حسبما يراه من حاجة المنطقة إلى ذلك بمساعدة من الملك والمحسنين.

٣ ـ القضاة في السودان الغربي وخاصة في عهد ملوك سنغاي من آل أسكيا كانوا مثاليين في الاستقامة والتصدي لجميع واجباتهم بكل إخلاص وأمانة. لذا كانوا على درجة عظيمة من الاحترام والتقدير من السلطة والشعب على حد سواء، وكانوا نعم المساعدين للسلطة على الاستقرار لمشاركتهم مشاركة فعالة في حفظ الأمن.

٤ ـ ترتبك بعض الجوانب في حياة المجتمع السوداني وتتعطل بعض المصالح حينما يشغر منصب القضاء في عهد الأسكيين لأي سبب، ويشعر الناس بهذا الارتباك فيلحقهم الضجر وعدم الرضى فلذلك كان الملك يهتم اهتماماً شديداً بإرضاء القاضي كلما أمكن، أما العامة فكانت تعتبر القاضي الحارس الأمين على سلامة أملاكها وأمنها،

والناطق المخلص بالعدل أمام المعتدين، وما قد يحصل من طغيان السلطة.

وبهذا نصل إلى الأهمية الكبيرة التي كانت لمنصب القضاء والقاضي في المجتمع السوداني في عهد مملكة سنغاي تحت ظل حكم آل أسكيا حيث كانوا أول حكام في السودان الغربي نظموا القضاء على أساس الشريعة الإسلامية واستمدوا منها نظام الحكم، ونبذوا المفهوم القبلي الضيق الذي ظل يفت في عضد الدولة التي سبقتهم في المنطقة.

ويمكن أن نلاحظ مما تقدم من سلطة القاضي الواسعة الفرق واضح بين السلطات التي كان القاضي يمارسها في المشرق الإسلامي وشمال أفريقيا وفي الأندلس الإسلامي، والسلطات التي كان القاضي السوداني الغربي يمارسها. فنجد أن سلطات الأخير تفوق كثيراً من سلطات الأول. فلا مقارنة بينهما بل القاضي في السودان قد يمس السلطة العليا بسوء ويحاول زعزتها مع ذلك لا يمس بسوء، كما تقدم توضيح ذلك.

انتهى ما قصدنا توضيحه للباحثين عن تلك المنطقة المجهولة عند كثير من أبناء المسلمين الذين لا يعرفون شيئاً عن ماض الإسلام المجيد فيها. وما قدمه أجدادهم من خدمات جليلة فيها.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجميعن ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين.

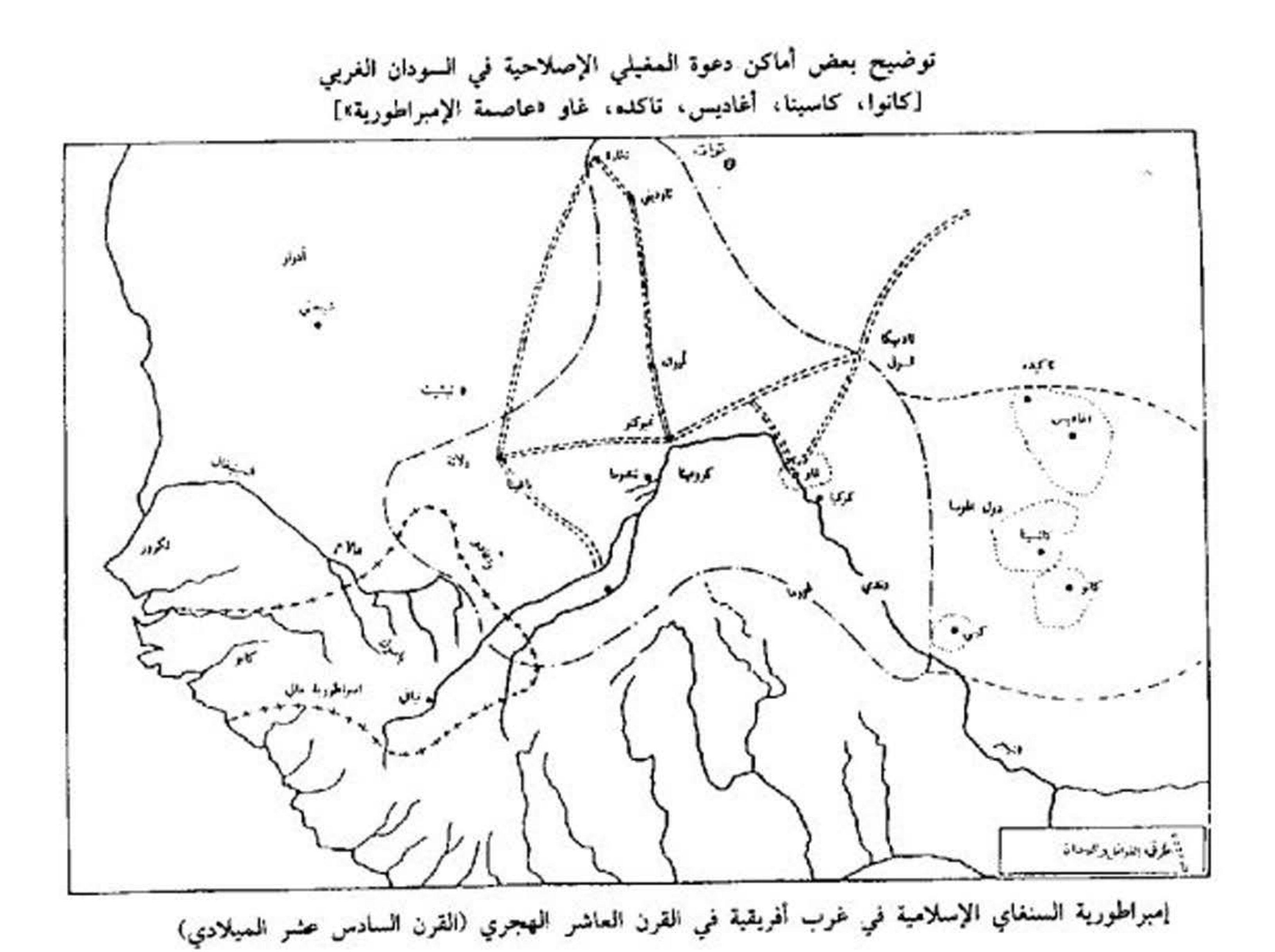
بقلم الأستاذ الدكتور/ أبو بكر إسماعيل محمد ميقا

أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة

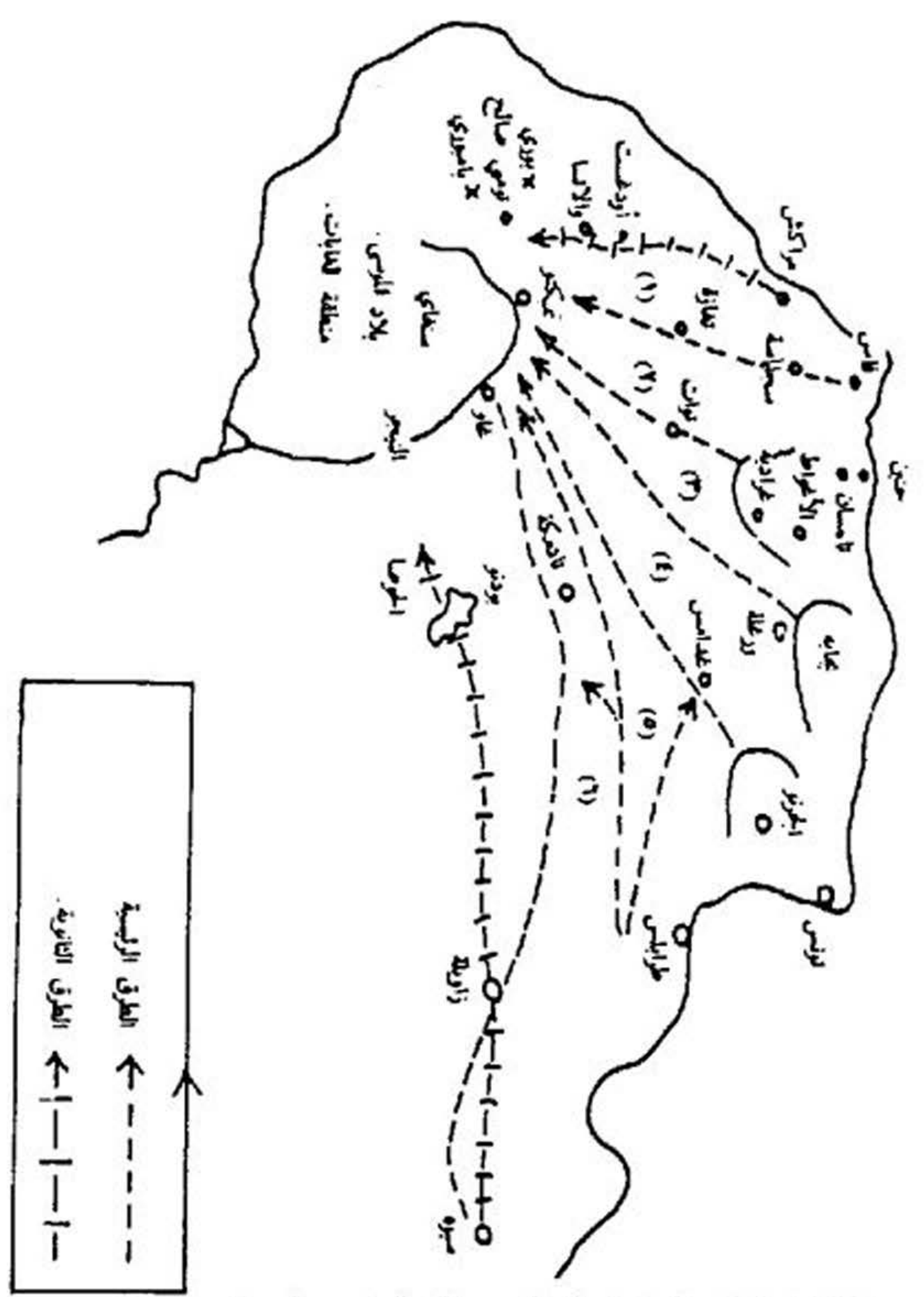
الملك سعود ـ كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

توضيح بعض أماكن دعوة المغيلي الإصلاحية في السودان الغربي
[كانوا، كاسينا، أغاديس، تاكده، غاو «عاصمة الإمبراطورية»]



إمبراطورية السنغاي الإسلامية في غرب أفريقية في القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي)



مخطط لطرق القوافل التجارية والدعاة مع بلدان المغرب والسودان الغربي في عهد إمبراطورية سنغاي

جزيرة ميورقة

طرق القوافل الرئيسة بين بلاد غربي إفريقية وشمالي إفريقية



مملكة سنغاي في أقصى اتساعها أيام الأسبقيين
والإمارات المجاورة لها في القرن السادس عشر



فهرس الموضوعات

المؤلف في سطور

على رغم ما أمتاز به المؤلف من أصل كريم مجيد وصفات كريمة إلا أنه يرفض الحديث عن نفسه وماضي آبائه وفي حديثه عن ملوك السودان الغربي وما قاموا به من خدمة الإسلام لم يشر إلى أنه من ذرية أولئك العباقر لتواضعه ودينه وخلقه الكريم.

ألا أننا بحكم تعاملنا معه لمدة عشرين سنة عرفنا الكثير عنه فلذا نوجز شيئاً عنه في السطور التالية:

١ ـ ولد المؤلف في المنطقة الشرقية الشمالية من السودان الغربي المتاخمة للصحراء الكبرى (مالي حالياً) في أسرة لها ماض عريق في المجد وخدمة العلم والإسلام، فجده (محمد بن أبي بكر) الذي حج سنة ٩٠٢ هـ كان من أعظم ملوك السودان الغربي (إفريقيا الغربية) فقد ترك حجه آثاراً عظيمة في المشرق الإسلامي وبخاصة في مصر والحرمين بما أنفقه فيها من الذهب الذي ترك أثراً كبيراً سنين طويلة بعد حجه. ففي الحرمين خصص مبلغاً كبيراً للمشاريع الخيرية فاشترى بيوتاً وأراضي زراعية أوقفها على القادمين إليهما من السودانيين الحجاج وطلبة العلم والقيمين ليأووا إليها ولينفق من ريعها عليهم ولا تزال أوقافه في المدينة قائمة حتى الآن، وقد بلغت الثقافة الإسلامية في عهده القمة في الإزدهار وبشكل لم يسبق له مثيل في إفريقيا الغربية.

٢ ـ نشأ المؤلف وترعرع في المدينة المنورة، وتلقى تعليمه الابتدائي فيها، والتحق بالمعهد العلمي بالرياض سنة ١٣٧٥ هـ وتخرج من كلية الشريعة بالرياض سنة ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤ هـ وحصل على الدكتوراة في الفقه وأصوله من المعهد العالي للقضاء بالرياض سنة ١٤٠٣ هـ.

٣ ـ عمل في حقل التعليم في معاهد جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مدة من الزمن. ثم في الرئاسة العامة لتعليم البنات موجه التربوي ثم مراقبة تعليم.

٤ ـ بعد حصوله على الدكتوراة إنتقل إلى جامعة الملك سعود بدرجة أستاذ مساعد، ثم أستاذ مشارك، ثم أستاذ.

٥ ـ للمؤلف ثمانية مؤلفات في موضوعات مختلفة تمتاز بالدقة وسهولة العبارة وسلاسة الأسلوب وتدل على فهم المؤلف الإسلام فهماً دقيقاً وفكراً سليماً وسلوكاً مستقيماً وقد تعاملنا مع المؤلف مدة تقارب عشرين سنة فوجدناه يمتاز بخلق كريم والصدق في التعامل والوفاء بما يلتزم به وإذا وعد وفى والله يثيبه على وفائه وصدقه.

وقد قمنا بطباعة جميع مؤلفاته القيمة

الناشر مكتبة التوبة

الرياض في....

كتب للمؤلف

١ ـ أحكام المريض في الفقه الإسلامي طبع ١٤٠١هـ.

٢ ـ الإيضاح في جواز تغيير الشيب بالسواد طبع ١٤٠١هـ.

٣ ـ الرأي وأثره في مدرسة المدينة طبع ١٤٠٢هـ.

٤ ـ الإنصاف في نقض الإتحاف طبع ١٤١١هـ.

٥ ـ أثر تطبيق الشريعة في منع الجريمة طبع ١٤١١هـ.

٦ ـ مبادئ الإسلام ومنهجه في قضايا السلم والحرب والعلاقات الدولية والإنسانية طبع ١٤١١هـ.

٧ ـ معالجة الإسلام لوقت الفراغ طبع ١٤١١هـ الطبعة الثانية طبع ١٤١٤هـ.

٨ ـ حكم الرجوع عن الإقرار بما يوجب حداً وأثره في سقوط العقوبة «تحت الطبع».

٩ ـ الثقافة الإسلامية والتعليم في السودان الغربي من القرن الرابع الهجري حتى مطلع القرن الثالث عشر (كتابنا هذا).

١٠ ـ أهمية الثقافة الإسلامية في التوجيه وصلاحيتها لمعالجة المشكلات الفردية والاجتماعية «تحت الطبع».



الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص. ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥